عثمان مشاورة

مقهى البازلاء

obeikan.com

الكتـــــــاب: مقهى البازلاء

المـــؤلـــــف: عثمان مشاورة

تصميم الغـــلاف: أحمد الصباغ

المراجعة اللغوية: مؤسسة إبداع للترجمة والنشر والتوزيع

رقـــم الإيـــداع: 26497 / 2015

الترقيــم الدولــي: 4 - 060 - 779 - 977 - 978

الإخــراج الفنـــي: مؤسسة إبداع للترجمة والنشر والتوزيع

المدير العام: عيد إبراهيم عبدالله

جميع الحقوق محفوظة

وأي اقتباس أو تقليد، أو إعادة طبع، أو نشر دون موافقة قانونية مكتوبة يعرض صاحبه للمساءلة القانونية، والآراء والمادة الواردة وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالمؤلف فقط لا غير.

العنوان: 97 ش محمد فريد، وسط البلد، القاهرة.

هاتف: 0223952354 - موبايل: 01142050403

الموقع الإلكتروني: www.prints.ibda3-tp.com

البريد الإلكتروني: info@ibda3-tp.com

obeikan.com

عثمان مشاورة

مقهى البازلاء

obeikan.com

obeikan.com

إلى سِيزيف، وهو يدفع الصّخرة بصدره ويديه وقلبه، ثم تهوي إلى السّفح من جديد.

obeikan.com

obeikan.com

الذاكرة هبة كبيرة، إنها ثاني أفضل شيء بعد الموت"

– بول اوستر–

"مدينتنا، بحمد الله

راضية بما فيها

ومن فيها

بآلافٍ من الأموات

تعلكهم مقاهيها

لقد صاروا ، مع الأيام

جزء من كراسيها"

– نزار قباني–

"كيف أصبحتُ الشخص الذي أنا هو، هل أنا نفسي فعلا، أم صنع مني الآخرون، بالأحرى، الشخص الذي أنا هو؟"

– فرانز كافكا–

obeikan.com

obeikan.com

الدّمعة الممطوطة

تموز ٢٠٠٦

مكتب العقيد/ قيادة الكتيبة الخامسة.

الساعة ٨:٢٠ ص

خبطَ العقيد "نايف صالح الصّالح" بيده فوق المكتب، واستدار برأسه، فقط، ناظرًا نحو النَّافذة: "لا يمكن ذلك!" وكانت العبارة تتلاشى كالخواء في جمجمته، وصداها يتذبذبُ بين شفتيه "لا يمكن ذلك"! وشرد بنظره يحدّق في اللاشيء، وقد انزلقت دمعتان متلاحقتان من عينه، انزلقتا لصقَ بعضهما في دمعة واحدة ممطوطة، دمعة حقيقية، طفحت بهدوءٍ بينما هو يضغطُ بحزنٍ عميقٍ على أسنانه الخلفية، ثم انحدرتْ ساخنةً ومؤلمة: لا يمكن ذلك!

وراح يتيبَّس على كرسيّه الجلد، كما لو كان طيرًا نافقًا، فقد ضُرب كيانه وانسحق في ذلك الصّباح بصمتٍ مكتوم، الصَّمت المكتوم الذي يتوحّش فجأة، ويُمزِّق الأحشاء بأظافره.

في ذلك الصّباح، الثّاني من تموز، من عام ٢٠٠٦، تبزغُ الشمس، وتُشرق من فوق حُدب الجبال البعيدة، تدخل أشعتها المنعشة إلى ساحات الكتيبة الخامسة ومرافقها، تمسحُ وجوه الجنود وتُطيل خيالاتهم، وهم يركضون بإيقاع مدروس، بينما الحماس يتعالى من أفواههم: "واح اثنين... واح اثنَين.." وتدخل أيضًا، دون هوادة، إلى

obeikan.com

مكتب العقيدِ نايف الصالح، من النَّافذة التي أخذ عامل النظافة يرفع ستائرها المعدنية، ويفتح جزءا صغيرًا منها، وتتبعثر دوائر مبعوجة صغيرة من أشعتها البيضاء الشَّفافة على الجدار المقابل وعلى طقم الكنب الجلد الرّمادي، وفوق منضدة زجاجية عليها دُمية دبابة حربية، وفي الشُّعاع الداخل، كما لو أنّه شعاع الحقيقة المقتَحِم، تألّقت ذرّاتٌ صغيرة متطايرة، تداخلت مع بعضها البعض في طيرانها المتنافر.

وشرعت تدخل، بالمعيّة أيضًا، سقسقةُ العصافير المتقافزة على أغصان الأشجار القريبة، وهدير مُحركات عسكرية ومولدات تعمل بالدّيزل، وصيحات الجنود الرّاكضين في السّاحات، تلك الصّيحات التي تخرج من الأعماق، صارخةً ومدويّة، وهم يركضون، في تدريباتهم الصّباحية الاعتيادية، يثنون ركبهم إلى الأعلى أقصى ما يمكن، ويضعون أيديهم على صدورهم، كما لو أنّهم صفوفٌ منتظمة ومتتالية من "الكنجارو"، وقد توحّدت في قفزها.

وبفعل هبّاتٍ خفيفة من نسمات الصّباح، تتحرك ظلال أغصانِ شجرة وردٍ حمراء على الجدار لصق تلك النَّافذةِ من الخارج، وعلى نحو دراماتيكي، يحلّ الصّمت، يصيبُ الخرسُ بلَعنته كلَّ شيء، لأنَّ العقيد، صاحب الوجه المستطيل كأنّه قالب "كاتو"، وعليه حبّة كرز حمراء؛ أنفه الضّخمة والمتورّمة دائمًا، ومن خلفِ مكتبه، يبكي الآن بقهرٍ عميقٍ مكتوم.

المقهى الغامض

السّبت

٨/كانون الثاني/٢٠١١

١٠:٠٠ ليلاً

بدا لو أنّ كلّ شيء يحدث في عالم هلاميّ مبهم، دون رغبة منّي أو قرار، فقد جئتُ إلى المقهى في ساعةٍ متأخرة من هذه الليلة الباردة؛ كان الهواءُ مثلجًا وكأنّه قادمٌ للتو من آلة تبريد عملاقة، ولم يكن أبدًا في حسباني أنّي سأقابله هنا، وتؤول الأمورُ إلى ما آلتْ إليه، فقد أتيتُ - كما هي العادة- لكي أجد بعضَ الوقت في تدخين النّرجيلة وشرب فنجانٍ أو اثنين من القهوة، محسّنًا بذلك مزاجي المتقلّب، والذي قد يتعكّر صفوه أثناء ساعات النهار.

لم أتزوج بعد، والكلمة الأخيرة تومئ إلى أنّني قد أفعل ذلك لاحقًا، إذا ما وجدت، بطبيعة الحال، امرأة تملؤني وأملؤها بالحب، لكنني الآن، وبعيدًا عن ذلك الوهم، أعيش بمفردي في شقة صغيرة، في العاصمة "عمّان"، في حي "اللويبدة" القديم، إلى القرب من دوار "باريس"، بناية رقم ٤٥. ط٢.

لا مصعد في البناية، ولديّ شُرفة ذات إطلالة رائعة على الجزء الأقدم من المدينة؛ جبل القلعة، بكلّ ما فيه من مساكن وبيوت شعبية، لا سيما في أوقات المساء والليل، حيث الإضاءات، في مجملها، تلتمعُ

obeikan.com

وتومئ من بعيد، كما لو أنّها مجرّةٌ رضيعة هبطت إلى الأرض.

يسكن في الطّابق الرابع ضابطٌ في الجيش الأردني،متقاعد منذ بضع سنوات، وفي الطّابق ذاته، إلى اليمين من السّلم، تسكن أرملة، مات زوجها المحب وهو ما زال في ريعان شبابه. ولدينا صديق آخر مشترك، سافر مؤخرا إلى "البحرين"، ليعمل في مهنة التّدريس.

لكنّي؛ عقب أن أنتهي من عملي كلّ مساء، كحمار مثابر، لا أعود إلى وحدتي ومجرّتي الرضيعة في البيت، إنّما أجيء إلى المقهى، منهكًا ومحتاجًا أكثر ما يمكن إلى بعض الكافيين مع فنجان القهوة وخرطوم النرجيلة.

أردت كذلك، أن أجد وقتًا جيدًا لمتابعة أحداث الرواية التي بدأت بقراءتها قبل عدّة أيام، فيومي المتروس بساعات العمل لا يُتيح لي المجال الكافي لممارسة واحدة من أفضل هواياتي المحبّبة؛ قراءة الروايات، لأنّ الأوقات البينية غير المدروسة، تضيعُ بالضرورة هباء، كشرائط القماش المتبقية من خلف الثوب، لا تصلح لشيءٍ يحُسف عليه.

كان المقهى صالة فسيحة عديمة النّوافذ، يتوسّطها عمودٌ واحدٌ فقط، مستطيل الشّكل، الأرضية مصفوفة ببلاطٍ قديم كبير الحجم، يعود المبنى لفترة السبعينيّات كما هو منقوش علىً إحدىً أحجار البناء في المدخل، الجدران مطليّة بلونٍ أبيض سُكّري، وقد استحالت في مجملها – بمرور الزّمن ونفث الدّخًان– إلى أبيضٍ مُصفر.

الطّلاء مسوَد ومقشّر في الأمكان المعرّضة للرطوبة. بيوت عناكب

obeikan.com

قديمة وجديدة تملأ الزوايا في السّقف المرتفع، تُطلّ منها الحشرات الصغيرة وتتزاور فيما بينها، وقد تنزل إحداها بخيطٍ إلى منتصف المسافة، تتأمّل المكان ثم تعاود الصعود.

في الأعلى مروحة عجوز ذات لون رمادي متّسخ، ولا أدري لماذا تدور في هذه الأجواء الباردة، لكنّها بالكاد تفعل ذلك بما عليها من قذارة متدليّة من حواف الشّفرات. وعلى الحائط المقابل للباب الزجاجي، والملاصق للمطبخ، روزنامة باهتة، كما لو أنّها منسيّة منذ عدّة سنوات، وهناك ما بين ثمانٍ إلى عشر طاولات خشبية ذات طراز قديم، موزعة في ترتيبٍ متخلخل، يسمح لصبي المقهى، بالحركةِ المريحة بينها.

يجلس على الطاولة بجانبي ناحية اليمين، رجلان متقابلان، بذقونٍ حليقة تمامًا، يرتديان معطفين عسكريين طويلين أخضري اللون، يبدو أنّ الشّاي قد برد في كوبيهما قبل أن يرشفاه بالكامل، لكنّهما لا يزالان يستمتعان بشربه على مهل، يلعبان طاولة "الزَّهر" بملل مُطبق، كما لو كانا حيواني الكسلان يجلسان قبالة بعضهما البعض، يرمي أحدهما النّردين معًا، ثم يُحرّك أقراصه دون أن ينبس بكلمة، يأتي دور الآخر، يفعل الكرّة ذاتها، يلعبان بصمت، أقرب لصمت اللاجدوى والهباء.

في هذه السّاعة المتأخرة من الليل الشتائي، وبينما النّسمات الباردة تتجوّل في الأرجاء، والسُّحب الفضية تتراكم فوق بعضها البعض، وتتفتّق بين الحين والآخر وهي تمضي، عن قمرٍ أبيض كحزّ برتقالة وحيد في كبد السماء، ثمة قطّةٌ منكمشة، تستند على طرفيها الأماميينً، تُغمض عينيها نصف إغماضة ثم تفتحهما، وتلوّح بذيلها عند حافة الباب، وعلى ضوء المصباح الخارجي تدور بعض الحشرات الطائرة المتبقية

من الصيف، كما لو كانت أجرامًا سماوية سريعة في مداراتها.

وكان المقهى في طورِ ساعة الإغلاق، وممتلئًا برائحةِ الدّخان المختلطةبالرطوبة الباردة،وراح الصبي العشريني، يقلبُ الكراسي فوق الطاولات الخارجية التي فرغت من الزبائن، ويكنسُ المساحة الصغيرة فوق الرّصيف، وعندما طوى بنطاله القماش بانت ساقاه النّحيلتان وفوقهما الشّعيرات كساقي جُندب منشاريتين، حمل دلوًا مليئًا بالماء والصابون، دلق هنا وهناك، أمسك القشّاطة، وراح يشطف البلاط.

كان الهدوء شبه عام في الدّاخل، الجميع في الغالب قد خرجوا إلى بيوتهم، متكاسلين، قمصانهم متهدّلة، وسراويلهم مبعوجة من أمام الركب لطول الجلوس، ثمة أصوات بسيطة متداخلة في المقهى؛ صوت المذياع القادم من بعيد، قرقعة كسولة لأحجار نردِ حيواني الكسلان فوق خشب الزّهر، صنبور المياه وطقطقة غسل الكاسات الزجاجية وفناجين البورسلان في المطبخ، بعض السّعلات المتتالية والنّحنحات، هبّات رياح معذَّبة تصفر، من وقتٍ لآخر، خلال الباب الموارب، ويتلاشى بوقُ سيارةٍ أو سيّارتين تمرانٍ في الخارج.

وقف صبي المقهى فوق رأسي، واسمه "زياد" كما سمعت أحد الزبائن يدعوه، كان يبدو بسبب من طوله ونحافته الشّديدة، كقصبةٍ محنية، يدسُّ قميصه الأبيض في بنطالهِ القماش، ويرتدي فوقه كنزةً صوفية بياقة متهدّلة كبيرةويشدّ أكمامهاَ حتى المرفق. قال وهو يسكبُ لي القهوة من ركوة نحاسية، ويضع الفنجان أمامي:

– أحدهم كان يسأل عنك قبل قليل؟

لاحظتُ أنّ "السّين" قد خرجت على هيئة حرف "ثاء" من بين أسنانه الأمامية الكبيرة والتي تكاد تخرج من فمه حتّى وهو مغلق.

- عنّي أنا؟ من؟

أومأ بعينيه النّاعستين إلى شخصٍ يتواجد على طاولةٍ نائيةٍ عنّي بعض الشيء، همس مبتسمًا:

- سليم بيك، الرجل الذي يجلس هناك في تلك الزواية، إنّه الأمين العام للحزب، سألني قبل أن تأتي؛ إن كنتَ قد حضرتَ اليوم أم لا!

- أيّ حزب؟

- لا أدري بالتّحديد أيّ حزب! وكيف لي أن أعرف عن هذه الأمور؟ لا أعرف إلا أن اسمه سليم بيك، وبأنه الأمين العام للحزب، هكذا يقولون.

نظرت ناحية الرجل، كان يرتدي معطفا أخضر داكن ويغوص رأسه في ياقته العالية:

- لكن مهلاً، سألك عنّي! كيف عرف أنّي سآتي إلى هنا، حتّى إنّي أتيت صدفة! ألم يقل لك ماذا يُريد منّي بالضّبط؟

- لم يقل. وأنا بدوري لم أسأله، لا أتدخّل بخصوصيات الزبائن، كما تعلم، لذلك ما زلتُ هنا منذ زمن، كلّ ما أفعله هو إحضار الطلبات وأخذ الطلبات، كما تعلم.

ثم اقترب من كتفي، وأكمل بصوتٍ خفيض:

obeikan.com

– لكنّه وعندما أحضرت له فنجان الشّاي قبل قليل، طلب منّي أن أُخبرك بأنّه كان يسأل عنك. وقد سألني عنك بالفعل، قال لي: هل حضر الشاب الصحفي ذو الحقيبة الجلدية البُنية؟ لكنّي لا أعرفك، هذه أول مرة أراك فيها أنت وحقيبتك هذه أيّها السيّد. هذا كلّ شيء. وأنا لا أعرف الحزب ولا أتدخّل بالسّياسة كما تعلم، ويعلم الجميع.

من جديد، لاحظت حرفي "الثاء" بدلاً من حرفي "السّين" في كلمة السياسة. استغلّ صمتي لبعض الوقت، ثم مسح الطاولة بخرقتهِ، رغم أنّها نظيفة، لكنّه فعل ذلك تلقائيًا بحكم العادة. وضع الخرقة على كتفه الأيمن. وذهب مسرعًا ليكمل عمله في شطف الباحة، وهو ينظر إلى السّاعة فوق الجدار المقابل.

obeikan.com

الموسيقى تحترق

في هذا الصّباح المباغت بعذاباته، عنَّت على بال العقيد، جامدًا فوق كرسيّه، كما لو كان تمثالاً من الشّمع في متحف المشاهير، في أقوى أشكال الحنين، وبشريط بانوراميّ، مرَّ سريعًا، من الصور والمشاهد القديمة، ذكرى الأيامِ الخوالي، عندما كان من المحتمل له، قبل أن يحطَّ القدر السّيئ فوق كتفيه، أن يكون الآن تاجرًا كبيرًا من تجّار البلد، يُسافر إلى الصين، يُصادق المتنفّذين ويتهرّب من الضرائب، يجلب البضائع المقلّدة في الحاويات عبر البحر إلى ميناء العقبة، كثيرًا ما كان الأبُ يقول له:

– لقد كبرتُ يا نايف، وحان الوقت لترك الدراسة؛ التي لا تُطعم خبزًا، وتأخذ عنّي كتفًا في دكاننا.

كان الأب، كغيره من الآباء الآخرين في البلدة، يرى ذلك من منظوره الخاص، الذي نشأ عليه أيضًا، فالدراسةُ رمز للشّاب المدلل الذي يتهرّب من العمل، كما كان يربط التكسّب بمدى خشونة اليدين والصّبر على الآلام، يقول له: "ربما يشعر الشّاب بالجوع والعطش، لكنّه، وهذا هو المهم، لا يجب أن يشعر بالتعب!" إنّ على الشّاب هناك أن يتحلّى بصفاتٍ كتلك التي يملكها بغلٌ يافع.

لكنّ الإبن يترفّع، ولا يشعر بالرضى حيال الجلوس في دكانٍ تبيع أشياء تافهة، سكاكر في غالبيتها للأطفال.

obeikan.com

- وماذا تُريدني أن أفعل في بيت الدرج الذي تُسميه دكانًا؟ وأنت لا تبيع غير المصّاص والعلكة!

يسعل أبوه، عدّة مرات، سعلات ملحّة وجافّة، تخرج من أحشائه:

- بالصبر والدّراية، تتضاعف المصّاصات، وتكبر هذه الدّكان يا نايف. ألا ترى أنني على وشك الموت؟

- وأنا على وشك الحياة، يا أبي، فلماذا تُصرُّ على أن تغمرني بين هذه الأشياء التّافهة؟

فيغضب الأب من جديد:

- وأنت لا تريد أن تذهب إلى الجيش، ولا أنْ تجلس معي وتساعدني في أعمال الدّكان، فظهري يكاد ينحني يا نايف.

كان يحلم بشيءٍ آخر، على أيةِ حال، بعيدا عن تجارة "المصّاص" والسكاكر، أو التفكير في الذّهاب إلى الجيش، فقد أخبره بعض الشّبان اللذين يكبروه سنًّا، وقد تركوا الدراسة والتحقوا بالصفوف؛ عن جحيم الحياة الذي لا يُطاق، إنّهم يخرجون كلّ يوم إلى الصحراء مثل أسرابٍ من العضاءات المنتشرة تحت صلية الشّمسً اللاهبة، يركضون ويهرولون ويصرخون بينما يقفزون من فوقِ حواجز وإطارات مُشتعلة، ومن ثمّ وبعد صرخة؛ خذ الأرض! يشرعون بالتّدحرج والزحف على بطونهم كالسّحالي والرّغالات، وبعد ذلك يعودون إلى العنابر الجماعية التي يعرفون طريقها بشكلٍ جيد، وبالكاد يندسّون في الفراش، وبعد أن تُطفأ المصابيح في ساعةٍ محددة، وفي عتمة الليل، وباضمحلال قيمة الفكرة، تبدأ الأيادي القلقةً بالتوجّه نحو الأسفل.

ومن بعد ذلك يتمّ توزيعهم كأوتاد تدقّ جيدًا على أبواب الرأسماليّين والمتنفّذين وشركاتهم، وكلّ ذلك بأجرٍ يُقارب الفُتات؛ لأنّ الأمر أشبة بالدائرة، دائرة السلطة والنفوذ، التي يجب الحفاظ على دائريتها؛ فقر، بؤس، لا تعليم، صفحة بيضاء، فقر، بؤس؛ البداية إذن.

كان يحلم دائما بالنّقيض من تلك القسوة الفاجعة، والتي تُطعم خبزًا مجرّدًا فقط؛ إنّها الموسيقى. فقد كان من المقدّر له، إن هو تابع طموحاته النّيرة، أن يكون عازفًا منقطع النّظير على آلةِ البزق، أو قائدًا لأيّة فرقة موسيقية كبيرة، مرتديًا ذلك الرّداء المثلثي المنسدل على مؤخرته من الخلف، وملوّحًا للعازفين أمامه بعصىً رفيعة، يمسكها بإصبعين فقط، وبغموضٍ مدروس الإيقاع.

ففي طفولته، وبالغياب الممنهج، بطبيعة الحال، لدروس الموسيقى والفن في المدرسة؛ هذه الدروس التي من شأنها أن تُتيح المجال أمام اليد والأصابع، لكي تساند المخيّلة فيما تجنح إليه، سيقول معلّم الرّسم، وما أعمق ما يقوله معلّم الرّسم: "افتحوا دفاتركم وارسموا ما رأيتموه في أحلامكم ليلة الأمس".

ما أخطر ذلك؛ أن تُرسم الأحلام بيدٍ صغيرة على الصفحة البيضاء. إنّ الأيدي الصغيرة، التي تقوم بتلك الخربشات الهامشية، ستكبر يومًا ما كما تكبر الشّجرة من شقّ في أرضٍ صخرية، وستكبر معها الأحلام التي لن تتّسع لها صفحة بيضاء كما هو معلوم، ستهرب إلى الواقع المتغطرس، في رحلة محفوفة بالتّمرد والعصيان، ما أخطره على تلك الدائرة، إنّه يخرجها عن مسارها الدّائري السّلس، وقد تؤول إلى شكلٍ هندسي له زوايا وحواف، إنّ خطورة هذه الزوايا والحواف تكمن في

obeikan.com

رؤوسها الحادة، الأشبه برؤوس الدّبابيس.

لذا كان الأطفال، ولعدم توفّر معلّم متخصّص، أو غير متخصّص، لملء الحصة الأسبوعية الوحيدة الشّاغرة لمادة التربية الفنية، يخرجون كقطيع نعاج، لا لترعى الأعشاب والشّجيرات في كنفات وساحة المدرسةَ، إنّما لقلعها بأيديهم المجرّدة، ونكش الباحة الخلفية بالفؤوس والمعاول.

وكان نايف صالح يجعل من أصدقائه الأطفال في القرية، صفًا واحدًا أمامه، يحمل كلٌ منهم، صفيحةَ زيت معدنية فارغة، أو إبريقًا بلاستيكيًا بالمقلوب، يضرب على قاعدته بيده، أو بأيّ شيءٍ متاح، لتبدأ حفلة الضّجيج والإيقاع على أنغام النّهقات والعواء والصّهيل وبقية الأصوات للحيوانات المتَقمَّصة، ويقف أمامهم شامخَ الأنف، يُنظّم عزفهم وأداءهم في تفريغ آهاتهم المطمورة، التي يحملونها في صميم لاشعورهم المطلق، اللاشعور المتوارث؛ كإرث مرهِق، أبًا عن جد في هذه القرية، ثِم يُفاجؤون بآبائهم يهرولون إليهم ملوّحين بقبضاتهم، ومطالبين بالأباريق، بينما يلعنون نايف صالح الذي يُفسد أطفالهم بأفكاره البلهاء.

فعلى خلاف الأحلام البسيطة والمتواضعة في البلدة المسحوقة، رغم أنّها لا تتحقق في كثير من المرات، والمتمثّلة في اقتناء بغلٍ أو حمار جيد يأخذ جزءًا من الأعباء اليومية عن كاهل الأهالي، أو بقرةٍ حلوب و بعض من الخراف والأغنام مع تيس فحلٍ يُساهم في زيادة أعدادها، أو في الحصول على مزرعةِ أشجارٍ مليئة بكروم العنب والزيتون، أو حقلاً منبسطًا يُزرع بالحَبوب والمزروعات الموسمية

المفيدة، وذلك بالإضافة إلى طموحات الأب الخاصة، في جعل ابنه عسكريًا، أو تاجرًا يبدأ من الصّفر، من أتفه البضائع المعروضة لديه في واجهة الدّكان، كان الطفل نايف صالح يرغب بتعلّم شيءٍ لم يسبقه إليه أحدٌ من أبناء القرية، أو حتى يُفكّر فيه مع نفسه مجرّد تفكير؛ الموسيقى، والتي اتّقدت شرارتها منذ دخوله، بعمر الحادية عشر، إلى خيمةِ الغجر الذين وفدوا ذات صيفٍ بعيدٍ إلى البلدة، فبينما يلعب مع الأطفالِ فوق التّلال، لمحوا الغجر بثيابهمُ المتهلهلة الملوّنة، وقد بدأوا ينصبون خيمتهم البيضاء، المرقّعة في جزءٍ منها، وعليها حرفي UN بخط أزرق كبير وواضح، في ساحة ترابية على طرف القرية، تركوا إطارات "الكاوشوك" السّوداء التي كانوا يُدحرجونها وقد صبغت أيديهم ووجوههم بالسّناج، وركضوا نحوهم، كقطيعٍ من الماعز المتلاحقة، وهم حُفاة، يصرخون:

– الغجر...الغجر... "أرمندا"..."أرمندا"!

كانت أرمندا؛ الطفلة الغجرية، ذات الشعر البرونزي المصفر، المنسدل بظفيرة طويلة فوق ظهرها، والنّظرة الساحرة بعينيها البرونزيتين أيضًا، قد كبرت قليلاً عن السّنتين الماضيتين، امتلأ ثدياها بعض الشيء، أصبحا حبّتين كبيرتين من الليمون، وما عادت تلك الطفلة المملّة المزعجة. كان لها، وهي بعمر الثانية عشر قوامٌ متناسق رشيق من كثرة نشاطها ومرحها المنطلِق على سجيتها، ولم يتمكنوا من الجلوس إليها إلاّ في أصيل اليوم التالي، بينما راحت، وفي أول حفلة تعارفية بسيطة في البلدة، تعزف الألحان الشّجية على بُزقٍ تحضّنه بين يديها، بينما الشّيوخ والرجال والأطفال، وحتّى

عابرو الطريق اللذين كانوا في عجلة شديدةمن أمرهم، يتحلّقون في الخيمة وينظرون إلى الفتاة الغجرية، في مشهدٍ ليس بالمألوف كثيرًا في القرية، وقد بدتّ أكبر من عمرها، وانحسرتْ ياقةُ ثوبها المزركش عن طلائعِ صدرٍ مُشبّع بالحياة البسيطة والأمل، تعلوه زخّة من النّمش كحزمةٍ منَ النجوم، وأشعلت أرمندا في داخل نايف صالح لهيبًا ليس من السهولة بمكانٍ إطفاؤه، لا بسبب تلك الطلائع، إنّما لأجل أنّ كمًّا لا بأس به من التَّوقٍ إلى صنع الألحان قد امتلأ سريعًا في داخله، وجسَّد ذلك بأن راح – فيما بعد– يُدرِّبُ أذنيه، اللتين تشبهين أذني فأرٍ كبير، على أن تُصبحا من أشهر الآذان الموسيقية وأقواها.

فقد أخذ يعزفُ على آلةِ بزقٍ بائسة، كانت أرمندا، قد رأفت بحاله المتشوّقة للعزف، وطلبه المَلحّ منها أن تعلّمه شيئًا من تلك الموسيقى، فقامت لكي تتخلّص بذلك من زياراته اليومية الطويلة لها، وجلوسه المعذِب والمكئِب على ركبتيه أمامها فاتحًا فمه لساعات طويلة، مثل كلبٍ مطيع، بأنَ أخرجتها من صندوق الأدوات والكركبة وأهدتها له مع ابتسامةٍ مُحبِّة، وقالت له:

– خذ هذه لك يا نايف، تمرّن عليها إلى أن تصبح عازفًا جيدًا، لكنّني؛ كما هي الأصول، لن أراك قبل أسبوعين من الآن، تمرّن عليها جيدًا، ثم عُد لي لأمتحنك.

– ما هذه؟

– هذه آلتي القديمة، اسمها بُزق، سأعطيها لك على أن تعيدها لي قبل أن نرحل من هنا. ولكن لا تدعني أرى وجهك قبل أسبوعين من

obeikan.com

الآن.

- أسبوعين؟

- أجل، وكنت سأجعلهما أكثر، لكنّي رأفتُ بك.

- أسبوعين، وقتٌ طويل، يا أرمندا، باللّه عليك اجعليها يومين.

وأخرجته من الخيمة، وساقته أمامها كما لو أنّه حيوانٌ مسالم، وهي تربّت على كتفيه وتقول:

- يومين؟ تُريد أن تتعلّم لغة العالم بيومين؟

- لغة العالم؟

- أجل، الموسيقى لغة العالم. هكذا قالت أمّي عندما علمتني. ثم إنّ عليك أن تسمع وتطيع. ومن هذه اللحظة، يجدر بي بصفتي معلمتك ألا أراك أبدًا إلاّ بعد أسبوعين، بعد أن تعتزل الناس وتتمرّن جيدًا.

وأضافت؛ قبل أن تعود إلى الخيمة وهي تُلوّح له بيدها وتحرص على أن يذهب إلى بيته:

- كما قلتُ لك، اعزف من أعماقك يا نايف، ولا تتكاسل. دعني أفاجأ بحجم إبداعك حينما تعود، فعندها سنعزف معًا كفرقةٍ جميلة.

داس نايف صالح على رغباته وعاداته اليومية، مؤجلاً بذلك جولاته المعهودة على حصانِه الخشبي، وقرّر احتمال الفراق المؤلم لأسبوعين

كاملين، ضمّ الآلة إلى صدره وركضَ بها إلى البيتِ في أبهى صورة للفرح، يكاد يسمع دقّات قلبه المتسارعة، وهو يقول لنفسه: "من الآنَ فصاعدًا سيتغيّر كلّ شيء".

كانت أوتارها مُقطّعة، وخشبها البني مُتفسّخًا ومقشّرًا، لكنّها من الحافز بمكان، أن حرَّكت كوامن الإبداع في تلك الأعماق السَّحيقة التي حرص - وكما طلبت أرمندا- أن يكون عزفه نابعًا منها بالتّحديد، وأخرجت وهي بتلك الهيئة من العَطب، مكامن الرِّقة والحسّ الموسيقي الدّفين لديه، بعد أن بذل مزيدًا من الجهد والكدّ وأصلحها بنفسه تحت عريشة فوق سطح بيتهم، وراح يُفجّر الإرهاصات المطمورة في خلجه، يُقطّبً جبينه ويعزف عليها - مغمضًا عينيه- الكثير من النّشاز والصوت الحاد المزعج؛ الأشبه بطنطنة فرقة من النّحلات العملاقة، ما دفع بالأب لتكسيرها مرّةً أُخرى فوق رأسه، وأخذها منه بقوة، وهو يصرخ مستجديًا، ومرآة الحلم تتكسّر أمام عينيه:

- أعدها لي، أتوسّل إليك، إنها لأرمندا الغجرية وليست لي، سأفعل كلّ ما تطلبه مني، لكن أعدها!

ورغم محاولات نايف البائسة وتوسّلاته من خلف الدموع لكي يُعيدها إليه، إلا أنّ الأب قد قذفها في النار أخيرًا حتى آلت إلى مسخٍ متفحّم:

- لقد أصبحت كالمعتوه مثل أولئك الغجر، بعد أن مسّك الجنون مع هذا الشيطان، الذي يمنعك من العمل في الأرض أو حتّى مساعدتي في أعمال الدّكان!

كانت روحه الشّفيفة والضّارعة إليه أن يمدّها بتلك الهبات

الموسيقية، تستلقي إلى جواره في ليالي الصّيف المقمرة، بينما هو يسترخي في فراشه، فوق السّطيحة الخارجية في بيتهم، شاردًا بتفكيره؛ كيف أصبحت "أرمندا" على هذا القدر من الجمال والروعة؟ وتلوح صورتها في خياله وهي تعفق على الأوتار بخفّة ورشاقة؛ يا اللّه ما أجملها وألطفها وهي تنظر إليّ مبتسمة دون الآخرين! ثم يتطلّع إلى النجوم المحدِّقة من بعيد؛ إنّها نجومُ طلائع الصّدر المعذّب، والتي تُومئ له هو بالتَّحديد؛ تمدّه بمزيدٍ من الشَّوق والحنين، وإلى جانب رأسه، مذياع صغير، أخذه كتذكارٍ من جدّته المتوفاة، يعمل بالبطّاريات، يستمع إلى مقدّم البرامج في إذاعةٍ "لندن" البريطانية، يقول: "نترككم مستمعينا، مع هذه المقطوعة الموسيقية الجميلة، ونتمنّى لكم ليلة سعيدة"، ثم يستمع إلى الموسيقى المنسابة في منتصف الليل، لذلك تهمس هذه الروح متسائلة:

- والآن يا نايف صالح الصالح؟

وفي ردِّه على هذا السّؤال بالتَّحديد، يُسبل عينيه بهدوء، زافرًا تنهيدة تخرجُ من أعماقه.

تُضيف هذه الروح التّواقة:

- ماذا عن تعلُّم الموسيقى، والعزف المشترك مع أرمندا، يا نايف صالح؟

ويكذب نايف صالح على نفسِه:

- أجل، في الغد القريب.

وتُلحّ عليه بعد ذلك، دون كلل:

– الموسيقى يا نايف صالح، تعلّم الموسيقى في أسرع وقت واظفر بقلبِ أرمندا الطّيب.

وتخرج هذه الإلحاحات العنيدة إلى الفضاء لتحوّم بين النّجوم نجمة نجمة ثم تعود إلى رأسه فوق الوسادة؛ راسمة ابتسامة هلالية على وجهه المستطيل، مستطيلاً صغيرًا آنذاك، لينام من فوره فوق السّطيحة، بينما نسمات الصيف العليلة تمرُّ بخفةٍ فوق وجهه وعينيه المسبَلتين.

لكنّه الآن، يُتمتم كالمذبوح؛ لا يمكن ذلك! والدّمعة المسكوبة، ثقيلة ومركّزة، كما لو أنّها قطرة زئبق، ما إن أطلّت، حتّى انزلقت وتدحرجت بسرعةٍ على صدغه.

obeikan.com

صدَأ وعناكب

هذه هي المرّة الأولى لي في هذا المقهى، فدائمًا ما أرتاد مقهىً آخر أكثرَ حداثةٍ من حيث التّصميم والأثاث والخدمة، ولا يقتصر فقط على الذكورٍ المتجهّمين كهذا الذي أنا فيه، فدائما ما تأتي فتيات بسيطات المظهر لكن بأناقة عالية ويجلسن إلى الطاولات القريبة من طاولتي، ومع أول هبّةٍ من عطرهن النّاعم أخترع المبررات العفوية والأكاذيب لأدخل فيٍ حديثٍ مسترسلٍ ومرح قد يُسفر عن صداقة جميلة، تنتهي إلى زيارتي فيٍ بيتي من وقتٍ لآخر لأصنع لهن طبقيٍ المفضل؛"الفوتوتشيني" الذي أجيده، فأناً بطبيعة الحال لا أتناوله بمفردي.

اسمه "مقهى لوركا"، قريبًا من بيتي في حي "اللويبدة"، فمالكه قد عاش فترةً من حياته في "اسبانيا"،ومُغرمٌ بشاعرها"فدريكو غارسيا لوركا"، يملأ جدرانه بقصائد مؤطّرة، مترجمة من شعره ومكتوبة بخط اليد؛ فهناك فوق الجدار الأيمن للمدخل، لوحة كبيرة مكتوب عليها بشكلٍ فني ؛

" عندما أموت/ اتركوا الشّرفة مفتوحة"

ولوحة أخرى، إلى جوارها؛ " ورأى ظله يتمدّد مرهقًا/ فوق الأريكة الحريرية البيضاء"

لكنّني وجدتُ نفسي الليلةَ في هذا المكان بالتّحديد، كما لو أنّ ماردًا

قديرًا قد فرك إصبعيه وألقاني هنا مع بعض الدّخان، فبينما ركنت سيارتي بالقرب من "درج الكلحة"؛ الدّرج الشّهير في وسط البلد، ورحت أتنزّه راجلاً على قدمي أتأمّل المارة وواجهات المحال، وصلتُ إليه من شارع فرعي أشبه ما يكون بالزقاق المعبّد. تأمّلته قليلاً، ثم قرّرت الدخولَ؛ أو أنّي دخلت دون أن أُقرّر! هذا ما حدث.

في الخارج مصباح نيون أبيض كمثري الشّكل، ساطع ومثّبت في الأعلى كيفما اتّفق، وعلى ناحية ما من الرصيف، ثلاث طاولات خشبية، وبسطوحٍ من "الفورمايكا" البُنّية المقشّرة.

يُنير الضوء لوحةً حديديةً قديمة وباهتة، ذات طلاء مُتآكل، مكتوبٌ عليها بريشة يدوية، وبخط فارسي، باللون الأخضر: "مقهى الجنرال"، وعندما وصلتُ إليه، وجدتني، تلقائيًا، أنظر إلى ما هو مرسوم فوقها؛ صورة لوجه رجلٍ عسكري يرتدي قبعة وينظر بعينين منتفختين وجادّتين إلى ناحيةٍ ما، عينان محتقنتان وباذنجانيّتان من الأسفل، لكنّ الصدأ، كما لو كانَ ضربًا من الفطريات، قد زحف وتكاثر فوقها، زحف من ناحية الحواف إلى أن وصل إلى القُبّعة العسكرية، التهم نصفها أو أكثر، ثم وصل إلى وجنتي الرجل وأنفه، وحافتي عينيه، وأخيرًا أصبح اللون البُرتقالي المحمر - وعلى شكل لطخات هنا وهناك- هو الطّاغي في كثير منها.

نظرتُ إلى الرجل طويلاً، محاولاً التّعرّف إليه، لكنّني لم أستطع، رغم أنّ شيئًا في عقلي الباطن يجعلني، على نحوٍ ما، أشعر بأنّي أعرفه بشكلٍ جيد، فكّرت إن كان هو الرجل ذاته الذي يسكن في البناية التي أسكنُ فيها، لكنّي خمّنت بعد قليل أنّي على درجة عالية من الغباء؛

فذلك الرجل كثيرًا ما ألتقي به، إنّه صديقي، أعرفه منذ أن سكنت في البناية ذاتها، ومؤخرًا يأتي إليّ كلّ مساء تقريبًا، لكي نتباحث في شؤون قضية تخصّه، ثم خمّنت أخيرًا، أو أنّني جزمت بذلك على نحوٍ شبه مؤكد، إنّه "فيندیش" الألماني الأصل، صاحب الطاحونة!

كان يجلسُ بصمتٍ على كرسي المقهى الخشبي، تحت غيمة رمادية من دخان نرجيلته، يشربُ شاي الأعشاب، يُبقبق من خرطوم النّرجيلة ويتطلّع متمعنًا باتجاه ما، ينفخُ سحابةً كثيفة من الدُّخان، يرفعُ رأسه وينظر إليها، وعلى صوتِ "عبدالحليم" الخافت، كما لو كان قادمًا من البعيد: "سافرت كتير معاه.. كتير كتير معاه"، يخرج الدّخان من صلية الجمرات للتّبغ، ينسلّ ويغوص في الماء عبر هيكل النّرجيلة المعدني، وكما لو أنّ شخصًا يغرق، يُحدث قرقرة في عمق القارورة الزجاجية، أخاله ينصت إليها، تنفجرُ الفقاقيع بدخانٍ أبيض مزرق، يمضي عبر الخرطوم إلى فمه، يملأ رئتيه، ينفثه إلى الأعلى، يصعد الدخان كراقص ساخر، يلتصق بالسّقف ويتفلطح، ومن هناك؛ في الأعلى - واستجابة لقوةٍ شفط خارجية- يزحف مترجرجًا نحو الباب. يأخذ الرجل نفسًا آخر، ينفثُ الدخان، يُتابعه من جديد، ويعود للبقبقة الرّتيبة.

من حينٍ لآخر، أرفع رأسي من الكتاب مُسترقًا النّظر إليه، أواصل التفكير؛ أينَ عساي رأيته من قبل؟ لماذا سأل النّادل عنّي ويتظاهر الآن بأنّه لا يراني؟ وأحيانًا تلتقي عينانا بصدفةٍ عابرة؛ فيكفّ هو، أو أفعل أنا، وأكمل القراءة.

كانت تخرج من شفتيه دمدمات محدّثًا نفسه، وأحيانا يُقلّب يديه

منفعلاً مع ذلك الحديث، وأخيرًا، رشف ما تبقّى من الشّاي، دفعة واحدة، لفّ خرطوم النرجيلة عليها، ونهض متكاسلاً. أعاد رفع بنطاله بكلتا يديه وتوجَّه نحو المدخل.

كان من الهَرم بمكان، رغم صغر سنه بالنّسبة لملامح الشيخوخة المتقدّمة البائنة عليه، أن تحوَّل رأسه إلى كرة، ليست كرة تمامًا، إنّما شكلاً "إهليليجيًا" أبيض. كما لو أنّ العناكب، ودون دراية منه، قد شرنقت رأسه، على وجه السّرعة، بخيوطها البيضاء.

لكنّه لم يخرج، عرّج بهدوءٍ إلى طاولتي، ودون إذن منّي أو أيّة مقدماتٍ تمهيدية لطيفة، سحب كرسيًّا وجلسَ إلى جواري.

الكبرياء المُنكمش

فوق ذلك الكُرسي تذكّر العقيد أيضًا؛ وهو الرجل الأسمر النحيل، معتدل الطول، ذو ساقين منفرجتين قليلاً ،وذراعين طويلتين كذراعي شمبانزي، ومنكبين عريضين بكتف أعلى من آخر، كما لو كانا كفَّتي ميزان تميلُ إحداهما دائما نحو اليسار، في غمرة هذه الدموع المؤلمة، وغمرة الذكريات التي انقضّت كموجة من المدّ البحري المفاجئ، كيف كان في تلك الطفولة البائسة، محاولاً جيّدًا للتّمرد، وإبداء نزوات من البسالة الملفتة! لأنّه كان يركض، مع صديقه ابن مختار القرية، في السّهول والتّلال، صارخًا: "هيييع!" ملوّحًا بسيف خشبي وراكبًا فوق قصبة طويلة، أبقى على أوراقها الأمامية كشعر حصان، وراح كما لو أنّه دون "كي شوت" عصره، يبطشُ بأغصان الأشجار المطلّة من حواف البساتين، ويبتر فروع العوسج وسيقان الغيصلان وسنابل القمح والشّعير؛ يطارده الحصّادون وهم يصرخون خلفه ويشتمونه:

– تعال إلى هنا يا معتوه. تعال يا ابن العاهرة!

لكنّه يُقطّب جبينه، يهمز حصانه الخشبي:

– "هيييع!" الحقوا بي إن كنتم تستطيعون!

ويفلح بالهرب منهم، حسيًّا فقط، مقتحمًا بتلك الأنا الصغيرة، المتمثّلة في فارس مستهتر فوق حصان خشبي، الخضوبَ والجنادل، محاربَ طواحينٍ عنيد، وقائدًا مغوارًا لا تلين له قناة، حمل في عقله

الباطن، دون دراية منه أو تقصّد، طموحاته وأحلامه وهمومه العسكرية إلى قلب وجنبات هذه الكتيبة.

والآن، وفي هذا الصباح بالتّحديد، أشعل علبة كاملة من السجائر، وراح – من جديد- يُلقي باللّوم على المجتمع الكريه الذي كان من حوله؛ لم يأبه أحدٌ بفارسٍ مثله، أو يكترث ويبسط أذنه ليسمع شيئًا من نغماته الرّشيقة.

وعندما ودّعته "أرمندا"، وركبت فوق كومة الأشياء في صندوق شاحنة النقل الصغيرة، قالت له وهي تأخذ منه هدية الوداع وثمن البُزق الذي تكسّر على رأسه؛ خاتمًا ذهبيًا سرقه من أمّه، وهو يركض خلف الشّاحنة يحاول إمساك يدها، التي تتفلّت منه، بحزنٍ عظيم:

– يا له من تذكار جميلٍ منك يا نايف. سأجلب لك آلة جديدة في الصّيف القادم، وأُقدّمها لكَ بعد أن أمتحنك، فتمرّن جيدًا على البُزق.

لم يشأ أن يُخبرها – في لحظاتِ الوداع المؤلمة- أن البُزق قد تكسّر جرّاء الخبطةِ على رأسه وأنّ خشبه قد ألقيّ به في النار، التي اشتعلت بداخله أيضًا، لكنّها لم تعد لتختبر قدراته الموسيقية كما وعدت، لم تعد أبدًا، لا في الصيف القادم ولا في أيّ صيف آخر، وفكّر بأنّ الغجر ما هم إلاّ حلمٌ ووهمٌ عابر، فلقد ذهبت تاركةً في صدره لظى وحممَ بركان الحبّ الأول، السّرمدي العذاب.

وفي هذه اللحظة، بينما يتحوّل إلى تمثال الشّمع، تلاطم سيلٌ كبير من الأفكار في رأسه، لام عائلته المنغلقة على ذاتها، باستثناء أمّه

المغلوبة على أمرها، ودائما هي الأم مغلوبةٌ على أمرها، وهي التي أرخت يدها البيضاء المجعّدة في يده لآخر مرة في حياتها، وهو في الخامسة والعشرين من عمره، بعد أن سامحته - كدأبها المعتاد- منذ زمن بعيد على فعلته بسرقة الخاتم الوحيد الذي كان لديها، وهي تهمسُ له من فراش موتها والحمّى ترجّها رجّة المقدمين على الموت لا محالة:

- لا تستسلم للحياة يا نايف.

تصمت، تزرد ريقها، ثم تقول:

- لا تجعل البؤس يُعشّش في رأسك، تزوج واخلص بعملك في الجيش، بني.

يقول وهو يجهش بالبكاء:

- لا تتركيني الآن، ما زلتُ أنا تلك القطّة التي تقولين عنها.

وبالكاد تفتح فمها وتُشير بيدها إلى ثديها الأيمن:

- اقتلها، حاول أن تخنقها بيديك، فأنا التي أرضعتك من هذا الصّدر يا نايف، أرى بوضوح روح المقاتلين تسري في دمائك.

وقبل أن يحاورها بشأن كيفية قتل تلك القطّة، تُغمض عينيها بسلام؛ تصعد روحها إلى الرفيق الأعلى.

وأخذ، في هذا الصباح الحزين، يشتمهم الآن بالتحديد، ومن خلف دموعه، دموع القهر، وزّع عليهم الشتائم واحدًا واحدًا، وحاول أن يتذكّر إن كان قد نسي أحدًا ما من أولئك الذي أسهموا في زجّه في تلك الكليّة

البغيضة على قلبه في هذه الساعة أكثر من أي وقت مضى، ففي نهاية المطاف، أذعن وانصاع مثل تلك القطة البائسة، التي تموء دائمًا: "أشفقوا علي، "مياوو"، قرّروا عنّي.." لرغبة من حوله من الأقارب النّاصحين، الذين قرّروا عنه، بعد إنهائه الثانوية العامة، واختاروا أن يدخل الكليّة العسكرية:

- الكلية العسكرية يا نايف صالح.

يهمس له أحدهم، ويُضيف آخر نصيحة بصيغةِ سؤالٍ استنكاري:

- ألم تدخل الكليّة العسكرية بعد؟

شيئًا فشيئًا، وبعد أن يبس عودُه، ودخل الكلية العسكرية في الثامنة عشر من عمره، تمكَّن نايف صالح الصالح، أن ينسى ذلك الماضي الطفولي الكئيب، الممتلئ بأصناف القمع وتحطيم مجاديف مراكب الطفولة المتحمّسة، وراح ينخرطُ في الحياة العسكرية الجديدة.

ينهضُ باكرًا مثل عصفور دوري نشيط، يحلقُ ذقنه بمرآة يدوية دائرية، مرآة يدوية لكلّ واحد من المجندين، يُصلح فراشه بنفسه، يُلمّع حذاءه، ثم يركضُ مع زملائه في طابورٍ منتظم وفق صيحات القائد المدويّة: "واح اثنين. واح اثنين. يسارٍ يمين. يسار يمين... معتدل سر"

إلى أن أصبح مع الأيّام، والشهور والسنين القاسية في التدريب العسكري الجيّد، هذا العقيد الجسور المقدام، الذي استطاع وبشكل ما أن يقتل تلك القطّة التي كانت تموء في داخله باستمرار؛ مُحوّلاً إيّاها إلى سِنَّورٍ يجأر غاضبًا في الوجوه الشَّاحبةِ من الرُّتب الصَّغيرة من

obeikan.com

حوله.

لكنّه الآن قابعٌ فوق مكتبِه بذبول، فقد تلبّدت سماؤه بالغيوم، وتكدّرت مياهه الصافية العذبة. تهدّلت كتفاه دفعة واحدة؛ انكمش كبرياؤه وذوى، انطفأ البريقُ في عينيه، كفانوسٍ نضب زيته أخيرًا.

obeikan.com

obeikan.com

خواء الكأس الفارغة

في مقهى "لوركا"، أنا من يذهب ويجلس إلى جوار الحسنوات، لكنّ غريب الأطوار، في هذا المقهى الغامض، هو من جاء وجلس – بدون استئذانٍ– إلى جواري، شبَك يديه فوق الطاولة، تنحنح وسعل عدّة سعلات خفيفة وجافّة، كنت ما أزال كالنعامة؛ أغمر عينيّ داخل الصفحات، تظاهرتُ بأنّني لم أكترث لتطفّله ولَم أُعره أيّ اهتمام، لكنّه ظلّ ينظر ناحيتي كما لو كان يعصر ذهنه وينتوي قراءة شيئًا من أفكاري، أخيرًا رفعتُ رأسي بهدوء ونظرتُ إليه، فتحتُ فمي، وقبل أن أقول أيّ حرف، قال دون مقدّمات:

– ما هو تاريخ اليوم، بني؟

زردتُ ما كنت سأقوله:

– تاريخ اليوم؟

– أجل، تماما، أنا أسألك عن تاريخ اليوم.

– اليوم هو ١/٨.

– أيّ سنة، من فضلك؟

– أيّ سنة؟

– أجل، في أيّ سنة نحن؟ لقد قلتَ اليوم والشهر، لكنّك لم تقل السنة، هل هي غير مهمّة إلى هذا الحد؟

obeikan.com

– بالتأكيد هي مهمّة.

– إذن في أيّ سنة نحن؟

لوهلة نظرت نحو الرُّزنامة الورقية المعلقة، على حوافها بقع صغيرة من طلاء أبيض؛ يبدو أنّ الدّهان قد تكاسل في إزالتها عندما طلى الجدران. لاحظتُ أنّ الرقم المطبوع بخط واضح وكبير في أعلاها هو ٢٠٠٦، كانت، بطبيعة الحال، متأخّرة عدّةً سنوات عن الزمن الطبيعي، ومطبوع على الورقة المقوّاة التي تلتصق عليها الرُّزنامة؛ صورة للملك بزيّ عسكري، يبتسم وسط الجنود المكتظّين من حوله. خمّنت أنّها بقيت كصورة فوتوغرافية للملك، أكثر منها أداة للتاريخ.

– نحن في ٢٠١١، لكن هل تعيش خارج الزمن، لدرجة أنّك لا تعرف ما هي السّنة؟

– أجل، أعيش خارج الزمن.

وبعد ذلك قال أشياء تتعلق بهذا الزمن، وطلب منّي، متوسلاً، ألاّ أكلّف نفسي عناء فهمها وأن آخذها كما هي بالمطلق، فهي عصيّة على الفهم والتطبيق، وكلّها تتمحور في المجمل عن كون الزمن شعورًا داخليًا عارضًا وحسب، قال بأنّه قد بدأ يلاحظ ذلك منذ فترة؛ إنّ الزمن سريعٌ في بعض المرّات، وبطئ في مرّات أخرى، وقال بأنّه لا يدري ما معنى ذلك بالتّحديد؛ فقد كان الزمن بالنسبة إليه سلسًا ومنسابًا فيما مضى، لكنّه بدأ يتغيّر، يطول ويثقل. أردتُ أن أقول له: دعنا من تفاهاتك المستهلكة عن الزمن، وقل لي لماذا جلست دون إذني، إلى جواري؟ لكنّني عدلتُ عن ذلك، احترامًا لسنه.

ولكي أترك له جانب الحديث ليبرّر وجوده على طاولتي، لزمتُ الصمت. ثم قال، متطلّعًا، إلى الرُّزنامة فوق الجدار، ومشيرًا إليها بيده:

– الزمن متوقّف في هذا المقهى، إذن.

– يبدو ذلك.

– أجل متوقّف تمامًا، لم أنتبه أنا الآخر.

وضحك بخفّة – وهو ينظر إليها– ضحكات صغيرة متقطّعة، صمتَ بعدها ونظر إليّ، ثم عاد وتطلّع إلى الرُّزنامة، تأمّلها ببرود، وأخيرًا، وبشكلٍ فجائي، خرجت منه ضحكة قوية فرقعت في سكون المكان، نظر إلينا صبيُ المقهى من خلف الزجاج لبرهة، ابتسم ثم حنى جذعه وأكمل شطف الرصيف، كذلك التفتَ إلينا الرجلان؛ حيوانا الكسلان، بعيون ذابلة، ثم أكملا لعب الزّهر.

استمر الرجل يضحك دون أن يتمالك نفسه، كانت بطنه تهتزّ، ودمعت عيناه، و فكّرت بأنّ اهتزاز البطن دليل الضحكة الحقيقية. وأخيرًا توقّف، وصدر منه – في ذيل الضحكة– صوتٌ كصوت الديك عندما يُنهي صياحه؛ همهمات صفيرية خافتة. وبعد أن عادت ملامح الجديّة إليه، وترهّل وجهه، كما لو أنّه كائنٌ عابس منذ أن ولد، قال:

– ها أنت ترى بأم عينك؛ لا أحد يلتفت إلى الزمن هنا، بطبيعة الحال.

– لا أحد؟

- أجل، ولا حتّى أنا.

- لماذا؟

ابتسم، قلّب يديه، وقال:

- لأن رزنامة حسّان بيك، متوقّفة.

ثم أضاف ممسكًا شعر رأسه الجانبي، فوق أذنه اليمنى:

- لذلك فإن المرء هنا، قد يُصبح عجوزًا أشمط قبل الأوان.

- ربما قد يُصبح كذلك.

- بالتأكيد وليس ربما، خُذ مثلاً هذا الشّيب، كنت أشيب بمعدّل خمس إلى عشر شعرات خلال السنة الواحدة، لكنّ ذلك تغيّر، فمنذ سنتين تقريبًا، أصبح المعدّل يرتفع إلى أضعاف ذلك بكثيرٍ جدًا. فالمفروض بناء على ذلك، أن يكون قد مرّ أكثر من عشر سنوات، وهذا ما لم يحدث في الأساس، لكنّه حدث في رأسي. هذه الخصلة من الشّعر، المفروض بها أن تكون سوداء أكثر ما يمكن ضمن ذلك المعدّل، لكنّك الآن بالكاد ترى شعرة واحدة سوداء، وكلّ ذلك حدث في سنتين أو ثلاث.

- كثيرًا ما يحدث ذلك. يقولون إنّ شعرة واحدة بيضاء، تنقل العدوى لبضع شعرات من حولها.

- لا، لنقل أنّه ليس بالأمر متكرّر الحدوث، لكن ذلك لا يمنع أن يكون مؤشّرًا إلى شيء ما، فتحوُّل شعرك إلى البياض، بالتزامن مع اسوداد حياتك، يقول لك أن تنظر دائما إلى نصف الكأس الملآن،

obeikan.com

المقولة المعروفة بني، لكن المقلق أن يقوم أحدهم وبكلّ صفاقة، كالحكومة مثلاً، بشرب هذا النصف، فتصبح الكأس فارغة، بني.

– بالطبع، قد تفرغ ذات يوم. فلا شيء يبقى على حاله.

– وما هو دورك في هذه الحالة إذن؟ أن تشرد بذهنك وأنت تستمع إلى الخواء المنبعث من كأس فارغة؟ تصفر بها الرياح! طبعا لا، إنّما عليك أن تبحث عن إناءٍ تملىء منه كأسك لتعود إلى سابق عهدها.

– أجل، علينا أن نبحث عن الآنية دائمًا.

– وأين هي الآنية المقصودة، هل لديك معرفة أين يمكن لها أن تكون؟

– في متجر الأدوات المنزلية، كما أعتقد.

– رهيب! متجر الأدوات المنزلية! هذه صورة مختزلة لما كنت أقوله دائمًا، متجر! أجل، إنّها تجارة بحد ذاتها، تجارة رابحة، إنّها في منزلِ كلّ منا؛ منزله الداخلي بالتحديد، يجب أن ينضح داخلك بالمزيد من الطاقة لتملأ به ما فرغ من كؤوس. عليك أن تكون إناء يحاول الآخرين ملء أكوابهم منه.

– من الجميل أن تكون إناء جيدًا. وقد تبادر أنت بعملية الملء، إن كان الآخرون يشعرون بالخجل.

– بطبيعة الحال عليك أن تبادر. لكن دعني أصارحك بشيء أجمل بني، هل ترى أن الأفضلية هي دائمًا للنصف الملآن من الكأس؟

openkan.com

وقبل أن آخذ وقتي بالتفكير، تابع:

– بالطبع لا، فهناك أنصاف فارغة، في بعض الكؤوس، هي الجوانب الملآنة بحدّ ذاتها، إنّها تسمّى (الكؤوس المقلوبة)، خذ مثلاً، أنصاف القادة، بُني.

– الأنصاف شيء سيء في كلّ شيء.

– بالتأكيد، إنّني أبصم لك بأصابعي العشرة على ذلك.

وضغط بأصابع يديه مجتمعة فوق الطاولة، ثم أكمل:

– لكن هل تعرف شخصًا مهمًّا اسمه.. شف.. شي.. "شيفرارا"؟

– تقصد "تشيفارا"؟ القائد الثوري؟

– هو بعينه؛ "شيفارا".

– أجل، قرأت عنه كتابًا ذات مرّة.

– ممتاز، إنّه شخص رائع وذائع الصيت،ولقد ذكرته أنتَ في روايتك. لكن هل تعلم ما يقوله عن أنصاف القادة، بني؟

– ليس بالتحديد.

– أنا أقول لك، إنّه دائمًا ما كان يقول لي عبر اتّصالٍ هاتفي: أنصاف القادة، يا صديقي، هم أشخاص فقدوا نصفهم العلوي، أي من السّرة وما فوق–

وأشار بيده إلى بطنه صاعدًا بها نحو الأعلى، وأكمل:

- فأصبحوا بذلك كائنات غريبة بساقين فقط، يركضون متخبّطين في كلّ مكان، دون هدف!

- ما أصعب الركض والتخبّط دون هدف.

- ليس هذا هو الشيء المقصود بني، قد يكون الركض دون هدف هو الهدف بحدّ ذاته، إنّها الفوضى بني، الفوضى عالم من الذهول والإبتكار، لكنّ التّخبط مع عدم العلم المسبَق بإنعدام الهدف، هو الشيء المؤلم. الهدف غاية الإنطلاقات، حتى وإن كانت عشوائية، بني.

- بالتأكيد التخبّط دون هدف، ليس كالتخبّط الآخر الذي أسميته، هذا أمر مؤكد، الهدف أمر أساسي في ظلّ الفوضى.

- دعني أُخالفك القول بني، الفوضى لا تحجب الهدف، بقدر ما تُعطيك مسارات مختلفة ومتداخلة لكي تسلكها إليه، ثم تجد نفسك قد وصلت، في آخر الأمر، وقد شعرت بحجم الألم والمعاناة لكي تتمسّك به ولا تفلته من يدك! لكنّك وبدون مصباحٍ مثبّت على رأسك-

وأشار بيده على جبهته، وأكمل:

- مثبّت هنا بالتحديد، كعمّال المناجم، بني، لن تسلك الطريق المعتم، وربما تبقى منعدم الهدف، أو تتخبّط في تلك المناجم الرطبة المظلمة.

وبعد لحظة صمت، سلختها وأنا أُفكّر: هل هو مجنون أم شخص عادي؟ وبماذا يمكن أن أردّ عليه؟ بحيث لا يمكنه أخذ رأس الخيط

وسحب الكرار للدخول في موضوعٍ آخر، ووجدت نفسي أشرد بتفكيري، أتابع زياد، من خلف الزجاج، وهو ما زال يرفع بنطاله عن ساقيه، ويشطف البلاط الخارجي للمقهى. ثم قال فجأة:

- هل حاولت ذات مرّة أن تسلك طريقًا معتمة؟

- طريقًا معتمة!

- أجل، طريقًا معتمة.

obeikan.com

الورقة الوحيدة المؤلمة

مكتب العقيد/ الصباح ذاته.

كان نايف بك – كما هي العادة– قد استيقظَ في وقتٍ مُبكّرٍ من صباح ذلك اليوم، لم يكن بحاجة إلى منبهٍ فوق المنضدةً إلى جوارِ رأسه، فمنذ عشرين عامًا وهو يضمر الاستيقاظ بداخله، مستعينًا بساعته "البيولوجية" التي تسعَد بإيقاظه في تمام السّادسة والنصف، تهمسُ في أعماقهِ بصوتٍ نديّ وخافت:

– نايفٍ صالح! نايف بيك! استيقظْ الآن يا نايف. المجد بانتظارك على أُهبة الاستعداد يا نايف بيك!

ورغم نوم العقيد المسترسل والعميق، إلا أنّ نعومة هذا الصوت ورقّته الموسيقية، كانتا كفيلتين بأن تجعلاه يستيقظ؛ كطفلٍ توقظه الملائكة من سريره، يمطّ يديه في الهواء مبتسمًا وسعيدًا فيٍ قرارةِ نفسه.

كان لديه بعض العادات الجيّدة التي واظب على اتّباعها لسنوات طويلة، يعود من عمله في تمام السّاعة الرابعة مساء، يخلع بزّتهً العسكرية ويأخذ حمّامًا ساخنًا لمدةِ خمس دقائق، كانت هناك ساعة فوق الجدار في الحمّام، وساعة في المطبخ، وأخرى في صالة المعيشة، وقبالة السرير، تقريبًا في كلّ غرف وحجرات البيت يوجد ساعة ماثلة للعيان، ثم يخرج منتعشًا، يرتدي روب الحمام الأبيض ليتناول

طعامَ الغداء الذي كانت تعدّه الزوجة المحبّة، وفيما بعد، أصبحت تعدّه الخادمة العجوز، كلتا المرأتين كانتا تعدّان الوجبات بالمقادير العضوية نفسها، لكنّ أطباق الزوجة كانت مغايرة على نحو ما؛ فلطالما ابتسمت الزوجة وفكّرت بزوجها وهي تطهو الطعام، وكانتٍ تدسّ اللقم بيدٍ محبّة وناعمة في فم العقيد، وهو كالطفل المشاغب يقول: "اكتفيت اكتفيت" لكنها تُصر: "لا لا، خذ هذه فقط، من يدي"

ثم يخلد إلى سريره في قيلولة تستمر لساعة واحدة لا أكثر، وبعد أن يستيقظ دون منبه أيضًا، كما لو أنّ يدَ الملاك الحارس تنكزه برفقٍ على كتفه أيضًا، يجد الزوجة وقد انتهت من وضع اللمسات النهائية بينما تندسّ في الفراش إلى جواره، ثم يفكّ إزار الروب ويُضاجعها بشكلٍ آلي دون مقدمات، ليس لأنّه لا يحسن المداعبة الاستباقية، إنّما لأنّ ساعة العصر مخصّصةً للمضاجعة الفعّالة حتّى لو لم يكن لديهما الرغبة الحقيقية لفعل ذلك، حيث يواصل الزوجان من خلالها - مشبّعين بالرجاء والأمل- محاولة الحمل الأول لهما، وقد تأخّر هذا الحمل لأسبابٍ يعلمها اللّه وحده، وكان أثناء ذلك الجماع لا يفكّر بشيءٍ غيرَ وجهِ المولود الصغير وهو مستلقٍ على ظهره، له أنف صغيرة محمرّة كأنفِ والده، يضحك لهما ويكركر ويناغي، فقد قرأ ذلك في كتابٍ حول علم النفس، يتحدّث عن أسرار التركيز وجذب الأشياء من عقالها، يقول الكتاب: فكّر بالشيء كما لو أنّك تسحبه وقد علق بالصنّارة.

وبعد ذلك المجهود المترافق مع التفكير المنهك، يأخذ حمّامًا آخر بشكلٍ سريع، ويذهب إلى الشرفة ليحتسي القهوة مع زوجته، ثم يبدأ بالانكباب على كتبه وأوراقه العسكرية، وطموحاته التي كان يرسمها

منذ بزوغ النجمة الأولى فوق كتفيه، على شكل جداول وأشكال ملونة وخربشات، ليس كتلك الخربشات على الهامش، إنما خربشات ذات قيمة،جديرة بالاهتمام والملاحظة.

وفي ذلك الصباح المشؤوم؛ وضّب فراشه بشكلٍ جيد، كما اعتاد على ذلك منذ أن كان طالبًا في الكليّة العسكرية، وبعدَ وفاة زوجته التي كانت تقوم بذلك نيابة عنه، لم يكن يسمح للخادمة العجوز أن تفعل ذلك أبدًا، إنّ الفراشَ بالنسبة إليه أمرٌ شخصيّ مُقدّس، إنّه الصّومعة وهو الرّاهب، القمرة والقائد، لأنّه المكان الوحيد الذي يقضي فيه عددًا كبيرًامن السّاعات دون أن يتزحزح منه، فهو مُشبع إذن بشيءٍ من هالته الشّخصية، ولطالما فكّر فيه بتلك الأمجاد وتداعياتها قبل أن يُغمض عينيه الضيقتين، وفيه أيضًا بقايا ضحكات ومداعبات زوجته الحبيبة، كم كانت عابرة هذه البقايا! لكنها الآن أوجع ما يمكن! وكان هذا الفراش بحدّ ذاته بوتقة الانصهار لجسديهما معًا، وكم هو مستحيلٌ عزل مادتين متشابهتين انصهرتا معًا! فخلاف تلك المحاولات المدفوعةِ بمشاعر الأبوّة؛ محاولات ساعات العصر وسحب الصنارة، كان الليل بعتمته يشهدُ على حبّ عظيم ملتهب، حبّ مجرّد من أيّة نوايا إنجابية مُسبقة، وعلى الوسادة ما زالت قبلاتهما منثورة كالورود الصغيرة الجميلة، فلا يجب ولا بأيّ شكل من الأشكال أن يتم اختراقُه وبعثرة كلّ ذلك من قبل شخص آخر غريب. كان ذلك الإيمان راسخًا بعقله الباطن، لكن دون تفصيلٍ.

نهض وانتعل خُفّه ودخل إلى دورة المياه، وضع على صدغيه عدّة نقاط من معجون الحلاقة "إرازميك"، غمس الفرشاة بكوبِ ماءٍ دافئ،

وأخذ يوزّع المعجون بشكلٍ دائري على وجهه، حلق ذقنه وشاربه وهو يُدندن من أنفه: "اممممم...مممم امممممم.."، وأكمل الدندنة وهو يقف تحت صنبور المياه السّاخنة: "امممممم..."، وخرش جسده بسعادة وخفّة، وغلغل أصابعه برغوة "الشامبو" في شعر رأسه الجانبي والخلفيّ، وبعنايةٍ وحذر مرّر يده على الشعرات المعدودة الفوقية، وخرج نشيطًا، متورّد الوجه، متدفّئًا بروب الحمام الأبيض ذي الفرو السميك، ورشف قهوته مستمتعًا بتقليب صفحات الجريدة اليومية في الشرفة، كأي رجل هادئ ومهم، وقرأ بعض الأخبار المحلية هنا وهناك، وتناول، بعد ذلك، إفطاره البسيط، شطيرتي الجبنة وزيت الزيتون بالزعتر، وغادر أخيرا في السابعة والنصف ببزته العسكرية.

ولدى وصوله إلى عمله في ذلك الصباح، صباح الأحد، الثاني من تموز، عام ٢٠٠٦، التاريخ الذي لن يُنسى، بطبيعة الحال، ركن نايف بيك سيارته البيضاء "الأوبل أسترا" بعنايةٍ في الموقف الخاص به، دخل رافعًا رأسه - كأيّ قائدٍ عسكريّ مهيبٍ تمكث نجمتان وتاج فوق كل كتف- إلى مكتبه في الكتيبة الخامسة التي يقودها، وكان على بعض الجنود المنتشرين هنا وهناك والحُراس على البوابةِ الرئيسية للمعسكر، أن يقفوا مثل المسامير الفولاذية المدقوقة، ويؤدوا التّحية العسكرية بشكلٍ لائقٍ للعقيد نايف صالح الصالح، وشرع ضبّاط صف وضباط عاديونَ برتبٍ أصغر من رتبته يخبِطون التّحية أيضًا، ابتسموا جميعًا له بينما هو يشيّحُ بوجهه، بشكلٍ مدروس، للمحافظةِ على الوقار والصرامة اللازمة، وشعر بداخله كمْ هو سعيدٌ لأجل ذلكَ! وقال في نفسه: ها أنا اليوم بينكم، في هذه الكتيبة، لكن الله وحده يعلم، في أيّ

لواءٍ، غدا سأكون!

وفي كل مرة كان يتمّ ترفيعه رتبة إضافية، كان يبتسم بينه وبين نفسه، لأن ذلكً من شأنه أن يُقلِّص من عدد الأشخاص الملاعين الذين يؤدي لهم التّحية، سواء رغب بذلك أم لم يرغب.

كان المراسل الشّاب، قد قام بعملهِ جيدًا في مكتب العقيد، فبينما يُدندن - هو الآخر- بنشاطٍ من أنفهِ الأفطس، رفع الستارة المعدنية عن النَّافذة المطلّة على باحاًت الكتيبَة، فتح جزءًا يسيرًا منها، دخلتّ حزم شمس الصباح بيضاء ونقية، كذلك سقسقتّ بعض العصافير فوق شجرة الدُّفلى القريبة من نافذة المكتب، ودخلتّ سقسقاتها - بطبيعةِ الحال- من النَّافذة أيضًا، وصدح هديرٌ خفيف للآليات العسكريةِ في الجوار، ونفضَ المراسلُ الغبارَ عن الأثاث والأيقونات الموضوعة في الخزانة الزجاجية، رتّب الأشياء المبعثرة فوق المكتب؛ مدبس الأوراق، الأوراق بحد ذاتها رصفها فوق بعضها البعض ووضعها مع الملفات جانبًا، الأقلام دسَّها في علبتها الخاصة، ودعت الحاجة ليشتمَ العقيد نايف صالح في سرِّه عدة مرات، مرَّة وهو يُمرّر الخِرقة الرطبة فوق صورته الصَّغيرة على المنضدة، ومرة أُخرى وهو يمسح اللوحة الخشبية المكتوب عليها اسمه فوق المكتب، ليس لشيء، إنما هكذا، كما هي عادة المرؤوسين، أن يشتموا رؤساءهم في داخلهم.

مسح الأرضية والأثاث الخشبي بملمّع جيد، رشّ قليلاً من بخاخ مُلطّف الجو برائحة الحمضيات، أزهار الليمون والبرتقال. وعندما سأل نايف بيك وهو يدخل:

- ما هذا الصباح الرائع؟ ها أنت نشيطٌ جدا هذا اليوم.

ردّ المراسل، بعد شتيمةٍ أُخرى للعقيد في بطنه:

- صباح الخير سيدي، تعليمات سيدي.

تجاهل العقيد نايف صالح الجملة الأخيرة، أكمل بداخله: بالطبع تعليمات أيّها الأبله، وهل يُعقل أن يُترك مكتب العقيد نايف من دون عناية فائقة.

وأشار بإصبعه، وبملامح ممتعضة، إلى الطّاولة الصَّغيرة الزجاجية بين الكرسيين أمام المكتب:

- امسح هذه جيدًا.

وكما المحارب، رفع العقيد أنفه المحمرة الكبيرة، ملأ صدره بنفس عميق من رائحة الحمضيات الفوَّاحة من حوله، وبعثتْ أشعة الشّمس نشاطًا جيدًا في داخله، فقد نام ليلة الأمس بشكلٍ مطمئنٍ وعميق، قرأ في كتابه عدة صفحات، تركه مفتوحًا فوق المنضدة، لم يكن يحب أن يغلق صفحات ذلك الكتاب، كان يسعد برؤيتها مشرّعة أمامه، إن إغلاقه يعني أن جليسه الممتع قد أغلق فمه، وهذا ما لم يكن يحبه العقيد أو يجنح إليه. نهض أخيرًا، غسل أسنانه وارتدى منامته المخططة بالأسود والأبيض، وفي تمام العاشرة، دسّ نفسه في الفراش كحمارٍ وحشي محبٍ ووديع.

والآن في مكتبه المنعش، انتشى لتغريدات عصافير الدّوري المهرولة من الخارج، ابتسم ابتسامة أكبر وهو يغرق في الإنتشاء، جعلتْ فمه يبدو كحذوةِ فرس، دون أن تبين أسنانه، كل ذلك جعله يشعر بكميةٍ

وافرة من الرّضا والسكينة، وكم هو الآن شخصٌ مهمٌ وحيوي! إن الأيام الرائعة على وشك القدوم بلا شك، كم ستكون معطاءة ومليئة بالمفاجأت السّعيدة، يا اللّه، مدني بمزيد من التّواضع لكي أتقوى به على ما سيأتي من مناصب وأمور لا أملك إلاّ أن أُحسد عليها!

وعلى غفلة منه، بينما يقف إلى جوار النافذة، دخلت عليه سكرتيرة أنيقة ورشيقة القوام، تضعُ قليلاً فقط من مساحيق التجميل لأنّها جميلة بطبيعتها العفوية، تتباهى بصدرها الكبير الذي يهتزّ تلقائيًا بينما تدخل عليه، ابتسمت بهدوء وهي تمدّ له البريد وبعض الأوراق الرسمية:

– صباح الخير نايف بيك. تفضل باشا.

كلمة باشا، نبّهته إلى ياقتهِ الحمراء، وإلى االثلاث نجم وتاج على كل كتف، ابتسم لها:

– صباح النور، ما هذا الجمال!

ابتسمت وتلوّن وجهها، وهي تقول:

– أخجلتني نايف بيك، كم أنّك رفيع الذوق!

وبقي يتفرّس في ملامحها، وفكّر بأهمية أن يشحن المرء يومه، ومنذ ساعات الصباح الأولى، بالجمال الأخاذ والدلال والطاقة الإيجابية كهذه التي أمامه الآن، وهي تقول بوجهٍ محمر وقدٍ ملتو:

– أية خدمة أخرى سيدي؟

لكنه ظلّ صامتًا متمعّنًا في وجهها، مستمرًا بالشّحن. وقالت مرة أُخرى:

obeikan.com

– هل تريد خدمة أخرى سيدي؟

كررت العبارة عدة مرات، لكن في المرة الأخيرة، لم يكن صوتها، بل كان صوتا حادًا مزعجًا يخرج من أعلى الأنف:

– أية خدمة أُخرى سيدي؟

نفض العقيد رأسه، ونظر إلى كتفيه، فرأى التاج والنّجمتين بدلا من الثلاث، وأدرك أنه في لحظات خيال وأحلام يقظة مخملية. امتعض لصوت المراسل المزعج، وعندما جلس على كرسي الجلد الفخم ذي المسند الطويل ووضع قبعته العسكرية على المكتب أمامه، قال له بامتعاض:

– أجل. أحضر لي القهوة بسرعة، واغرب عن وجهي.

كان يحتسي القهوة مرتين في الصباح، مرةبفنجانٍ صغير في البيت، وأخرى في المكتب، لكي يتسنى له، بينما يتلذّذ ً باحتسائها، التفكير بشكلٍ أكملَ وأنضج في ما تراءى له من هواجس وتجليات عظيمة، والتخطيط الجيد لما ينوي الوصول إليه بعد أن يستمر في التّرفع رتبة بعد رتبة، ومنصبًا بعد آخر.

وشرع يفتح المغلف الموضوع أمامه، ويقرأ الورقة الوحيدة التي بداخله، لم يضعه المراسل ضمن الأوراق والمغلفات التي رتَّبها في الحامل فوق بعضها البعض، كان مغلفًا محكم الإغلاق، مختوم بـ "سرّي وشخصي"، وموضوع بثبات ووضوحٍ فوق المكتب، فما بداخله كتاب رسمي وصل هذا الصباح من رئيس ً هيئة الأركان، ليس كتاب ترفيعه إلى رتبةِ عميد، إنما إقالته من القوات المسلحة منذ تاريخه،

مُرفقًا بعبارات لطيفة وأنيقة مملوءة بالامتنان والشكر الجزيل لما قام به العقيد نايف صالح من تفانٍ في خدمة الجيش طوال نيّف وعشرين عامًا منصرمة:

"... هذا ونتمنى لك دوام الصحة والعافية، في ظلّ حياتك المدنية الجديدة".

obeikan.com

obeikan.com

الإنسان دجاجة كبيرة محترمة

فكّرتُ قليلاً، ثم خطرت لي بعض الطرق التي كانت معتمة عندما سلكتها ذات يوم، فالزّقاق الموصل إلى بيتي لا يوجد فيه إضاءة، كسر الأطفال مصباح الإنارة، منذ أكثر من شهر، وهم يتنافسون على إصابته بالحجارة، وفي الحقيقة أنا من أشعل فيهم حماسَ المنافسة لإظهار قدراتهم في الرماية، وبذلك لا يتجمّعون بأصواتهم المزعجة كالقطط المكبوتة عند مدخل بيتي، ولا يُعيقون تقدّم حسناوات "لوركا". قلت:

– لا أذكر بالتّحديد، ربما الطريق إلى المقهى يتخلّلها بعض العتمة، والطريق إلى–

قاطعني:

– ليس هذا ما قصدته بني، هل حاول أحدهم إطفاء النّور عليك وتركك تتخبّط في الظلام؟

– ربما، لا أذكر أيضًا.

– بما أنك لا تذكر، فلم يحدث لك ذلك إذن، لكنّه حدث لي، بني، فلقد كان اليوم، ٨/١/٢٠١١ هو موعد تدشين الحزب العظيم.

– أها، تدشين الحزب، تهانيّ إذن.

– تهانيك على ماذا؟ ها أنا أجلس معك، لم يحدث شيء من ذلك، لكنني، بسبب من الظلمة، أرجأت الأمر، ولا تستطيع أن تقول

obeikan.com

أنني عدلت عن تدشينه.

- أجل، من الجيد أنك لم تعدل.

- ومن الجيد أنني لن أتهاون في المضي قدما لتحقيق ذلك بني، فإرجاء الأمور إلى شعارٍ آخر، لا يعني أبدا العدول عن تنفيذها، فأنا ماضٍ، وبكل عزم، حتى لو حاول العُقاب آكل السمك، منعي من ذلك.

وأخيرا فضَّلت الصمت على أن أردّ بأي شيء حيال العقاب آكل السمك، فقد بدا أنه لن يتوقف مهما اقتضبتُ بالرد، واكتفيتُ بهزّ رأسي متضامنًا مع أطروحاته الغريبة ومصابيح السّبل المعتمة وما إلى ذلك، وربما عرف أنني لا أجد في نفسي الرغبة الكافية، لكي أدخل معه في عصف ذهني حول تجاربه ومسلّماته فيما يتعلّق بنظرية الكؤوس المشروبةً والآنية والرّكض بلا وجهة وغيرها.

أدرك ذلك، وصرف نظرًا عن محاولةِ إقحامي في نقاشاته، فعلى ما يبدو ليس هذا هو الشّيء الذي يُريدني لَأجله. ثم عدل عن سؤاله؛ قال وهو يمطّ رقبته باتجاهي:

- لا عليك من ذلك. ماذا تقرأ، من فضلك؟

رفعت له ظهر الكتاب ولم أتكلّم. قرأ العنوان، تمعّن به بشكلٍ جيد، ابتسم، وعلَّق:

- عنوان غريب! لكنه جميل جدًا.

تنحنحتُ أخيرًا، محاولا بلباقة، أن أُعيد وجهي إلى داخل الرواية،

openkan.com

موصلاً له رسالة مفادها أنني لا أرحّب بوجوده معي فوق الطاولة، وعلى الرغم من عملي، وأنا الآن في الثلاثين من عمري، في صحيفة محلية، كصحفي متطفل، بعينين عسليتين، في كثير من المرات علًى مدى بضع سنوات من حياتي، إلا أنني لا أحب هذاً النوع من النّاس أبدًا، ولا تنطلي علي أساليب أولئك الذين يحاولون أن يكونوا لطفاء ووادعين بينما يتطفّلون على الغُرباء.

لكنه تجاهل تلك الرّسالة، وسرعان ما أردف لكي يُظهر لي أنه يعرف تماما طائر الدُّراج:

– مسكين هذا الطائر، أنا أعرفه تمامًا، لنقل أنه مخلوق بجناحين، لكنهما من العبث بمكان، جناحان بائسان، فلا هو يطير، ولا هو يستخدمهما كقوائم للمشي!

ثم رفرف بيديه؛ وهو يُضيف:

– الإنسان كذلك بني، دجاجة كبيرة، محترمة أيضًا، لنقل إن الإنسان هنا أقرب ما يكون إلى ذلك، فمهما حاول أن يصنع لنفسه جناحَين مليئين بالرّيش الطويل، فإن الحكومة بمقصّها، وهي التي تُشبه حشرة أبو مقص، تقوم بقصّهما على وجه السرعة–

وقصّ بإصبعيه، السّبابه والوسطى، الفراغ أمامه، وأكمل:

– إنها لا ترغب بأكثر من البعوض، أو الهسهس، وبقية الحشرات الطائرة.

أخيرًا، فكّرت بأن وقتي الآن، والذي اجتهدتُ أن يكون تلك العشية،

obeikan.com

للقراءة وحسب، قد بدأ يتحوّل إلى قطع القماش تلك، وأن الأمرَ أصبح مملاً ومثيرًا للاستفزاز، لذا قرّرت أن أترك المقهى، أن أنهضَ وأتجه، نائيًا بنفسي، إلى أيّ مكانٍ آخر لا يوجد فيه مُتطفّلون غريبو أطوار، يجلسون، في آخر الليل، إلى طاولات غيرهم دون إذنٍ منهم، يُشبكون أيديهم فوقها، ثم يبدأون بشرح معادلاتهم حول زحفٍ الشّيب الأبيض ونظرية الكؤوس الفارغة والملآنة، ثم يسألونهم ماذا يقرأون من فضلهم، وبعد ذلك يُرفرفون بأيديهم، ويُضيفون أشياء غريبة، عن كون الإنسان دجاجة كبيرة محترمة في هذه الدنيا!

فكّرت أن آخذ قهوتي في كوبٍ ورقي وأجلس في سيارتي الصغيرة، أشعل الإنارة فوق رأسي، وأكمل قراءة الرواية التي بحوزتي، أو أن أعود إلى البيت، أستلقي فوق السرير، أستمر في القراءة إلى أن أغمض عينيّ وأنام.

قلت وأنا أهم بالنهوض وتركه بمفرده كما كان قبل قليل:

- بالفعل، الإنسان دجاجة محترمة، بق بق باق.

نقنقتُ في وجهه بحنقٍ شديد، لكنَّه وما أن رآني أهم بالمغادرة، حتى أمسكني من يدي:

- من فضلك، بني، يبدو أنك لست في مزاجٍ جيد، أرجوك اجلس قليلاً.

اعتدت في عملي أن أُعير لغة الجسد اهتمامًا أكبر من الكلام المنطوق، أن أقرأ الأشخاص، وأبني على ما تقوله ملامح وتعابير وجوههم، لا على ما يقولون من كلمات مجردة. وفي تلك اللحظة، رأيت

شيئًا ما وراء عينيه، رأيتهما تتوسَّلان إلـيّ، انهارتا أمامي وتوسّلتا كطفلتين يتيمتين.

وكان بوسعي أيضًا، في ذلك الحين، قبل أن أنهمك في علاقتي معه، أن أستخدم حسّي الصّحفي بشكلٍ جيد، لأرى فيهما عينا ديك بذيل منتوف، ذيل ديكٍ خسرَ مصارعة داميةً، خسرَ أيضًا الرّيشات الزّاهيةً المعقوفة، رجلٌ وحيد عيناه تتوسلان قول أيّ شيء، كانت عيناه من تلك الأعين التي تستجدي الخلاص والرأفة، لكن بخشوع.

كانت يده تُطبق على يدي مثل ملزمة الحداد، شعرت بأنه قد وظّف قواه الداخلية وجمعها كلّها في يده لكي يمنعني من الذهاب، كان يريدني بشدة أن أبقى، وقبل أن أقول حرفًا واحدًا، أو أدعم رأيه فيما ذهب إليه؛ بأنّ الإنسان بالفعل دجاجة كبيرة أو ما شابه، نهضَ بعد أن تركني قد جلست، وقال:

- أرجوك لا تذهب، أحتاج إليك، سوف تُسدي لي خدمةً، معروفًا لن أنساه لك. انتظرني قليلاً، بني، من فضلك.

قلبتُ شفتي السفلى:

- على أية حال، سأجلس كما كنتُ أنوي، لنصف ساعة فقط، وبعدها سأخرج.

ثم نهض مسرعا، وأضاف وهو يُغادر طاولتي، ويشير إلي بيده:

- هذا جيد، اقرأ في كتابك بني ريثما آتيك. يبدو كتابًا جيدًا جدًا. الإنسان دجاجة كبيرة في هذه الدنيا، هذا هو بالتّحديد! لقد

أعجبني العنوان بشدة. لا تُغادر إلى أن أعود إليك، من فضلك، لن أتأخر.

obeikan.com

إششش! اخرس أيها العقيد

بعد أنْ أنهى العقيد قراءة الورقة التي وضعت وحيدة أمامه، لم يكن الكرسي الدّوار، ما بدأ يدور به، إنما جُدران المكتب راحتْ تركض من حوله وتتسارع.

تحوّل الباب إلى أبواب كثيرة جدًا، النَّافذة الوحيدة، بما فيها من سماء وأشجار وهواء بالكاد شعر بدخوله إليه، كانت تركض هي الأُخرى وتدور من حوله بضبابية لولبية، كما لو كانت تلاعبه "طاق طاق طاقيه... رن رن يا جرس"! الجرس؛ الذي دقّ الآن بالفعل.

شرعَ الهواء النقي يتسللُ ببطءٍ ويقفزُ هاربًا من تلك النَّافذة، راح العقيد، يختنق بهدوءٍ جافٍ ومُحرِق، شعر بمجموعة من الأيادي الغليظة تتوضَّع حول حنجرته وتضغط بكل ما أُتيح لها من قوة، أغمض عينيه لكي لا يذهب في دوارٍ مريع وهو يرى الأشياء من حوله كالأشباح المستفزّة، فكَّ الأزرار العلوية لبزته العسكرية الكابحة لعنقه؛ ما هذا الذي أمامه، ما الذي جاءهُ للتو؟ خبط بيديه فوق المكتب: "لا يمكن ذلك"! وراح يضغط ويكزّ، بحزنٍ متناه، على أسنانه الخلفية.

نظرَ العقيد في أرجاء المكتب من حوله، نظرة غائرة في عمقِ كلّ شيء فيه؛ بالمكتبة التي على يمينه بما فيها من كتبٍ ومجلات عسكرية ودروع، الكنب الذي طالما جلس عليه الرفاق وأطلقوا النكات والضحكات والكلام المعسول في حق العقيد، الصور المعلقة فوق

الجدران، الصوت المسموع من النافذة، هذا الصوت – بكل تنويعاته الموسيقية– كان الجزء المؤلم في هذا المكتب، ولقد تحول هذ الأخير إلى مركب صغير متهالك، يبتعد عن جسم السفينة؛ الكتيبة الخامسة، ولا يملك العقيد إلاّ أن يلوح تلويحة الوداع الأخيرة في جنح الليل. لماذا يشعر – الآن بالتحديد– وكأن هذه الأشياء بدأت تؤخذ من لحمه وكيانه؟ إنه كلب بوليسيّ تمَّ الاستغناء عن خدماته قبل الأوان، وقد أطلقوا رصاصةً في منتصف خطمهِ الطويل.

والآن، ما الذي يمكن أن يفعله بين جدران بيته في حياته المدنية؟ ما الذي يمكن أن يفعله هذا الحيوان البوليسي المدرّب وسط زمرةٍ من الحيوانات الأليفة؟

أخرج العقيد، من الجرار الأخير لمكتبه، ألبوم صوره الخاصة، كان ألبومًا كبيرًا قياسًا بألبومات الصور الشائعة، رآه ذات مرة في واجهة محلٍ للتصوير، عاد في اليوم التالي وابتاع اثنين، واحدًا تركه في المكتبِ لصور الأنا العسكرية، وهي الأهم، والآخر أخذه إلى البيت ليُجمل فيه صوره العائلية المنتشرة في ألبومات صغيرة رديئة، وكان يكتب على ظهر كل صورة؛ التاريخ والمكان والمناسبة، وبعض الشروحات الخفيفة اللازمة، ثم يضعها سعيدًا بمكانها المخصص.

وراح الآن، يقلَّب صفحاته بين يديه بأنفاس مكبوتة؛ هذه يوم تخريجه من الكلية العسكرية، كان أنفه المحمر دائمًا، أصغرَ بعض الشيء، لأنّه كان نحيلاً، وكان يُردد خلف الضّابط ذي الصوت المدوي: "أقسم باللّه العظيم، أن أحافظ على هذا العلم مرفوعًا عاليًا".

وهذه الصورة؛ التي يحتفظ بأُخرى مثلها مكبّرة ومعلّقة في صدر

obeikan.com

بيته، وهو يُصافح الملك لدى تخرجه من دروة الأركان.

وتلك أيامَ كان قافزًا جيدًا من ارتفاعات شاهقة، كان يتردّد في أن يقفز من باب الطائرة، لكنّ ركلة سريعة على قفاه من المدرب تجعله يُحلِّق ويتخبّط في الفضاء مثل سلحفاة قُلبت على ظهرها.

وهذه الصورة، لم تكن له بالتحّديد، كانت للموكب الملكي، يظهر فيها مجموعة من الضبّاط، من ضمنهم نايف الصالح بكل وضوح، عندما كان برتبةٍ صغيرة وسط تشكيلة الحرس الخاص، وهو يركض في وسط البلد، في شارع الحريّة، إلى جانب سيارة الملك أثناء خروج موكبه للتّلويح باليد في مناسبةٍ وطنية.

ما إن رأى نايف صالح، الصورة مُكبّرة للموكب الملكي في الصفحات الأولى للجرائد المحلية، حتى سلخها من الصحيفة، واحتفظ بها ضمن ألبوم صوره.

لم يحتمل تقليبَ المواجع مع تلك الصور،فوضع الألبوم جانبًا ليضعه مع جملة الأغراض التي سيأخذها معه إلى البيت، بلع غصّته ونظر، مرة إضافية، إلى الورقة المروّسة بشعارِ الجيش أمامه؛ كتاب إقالته، قرأه أربع عشرة مرة، في كل مرة كانت تطفو صفحة مالحة من الدموع فوق عينيه، في كل مرة أيضًا كان يُشعلُ سيجارة إضافية، يمجها بنهمٍ وتوتر، إلى أن يحترق عقبها الأصفر، ثم يشعل منها واحدة أخرى.

إن الأشياء العسكرية المجتمعة من حوله، كما لو كانت أشباحًا تتماهى من خلف الدخان وهي تنظر إليه، فقد بدأ الآن بالفعل مأزقٌ جديدٌ في كيانه ومعنوياته.

فكّر مُتسائلاً وحزينًا مثل حيوانٍ شاعرٍ بالأسى الصامت: ما هذا الذي بين يديه في هذه الساعة؟ كتابُ إقالتهٍ وإخراجه على نحو مفاجئ من حياة الجيش التي لم يعش أبدًا سواها!

للمرة الخامسة عشر، قرأ العقيد الورقة الموضوعة بين يديه، وهرس، بقوةٍ، عقب السيجارة في المنفضة.

راوده شعور بالغثيان. أطلَّت الخيبة على شكل دمعة مالحة من عينيه. أراد أن يصرخ لكنّ صوته كان غائرًا في جوفه، ذلك الجوف العميق مثل بئرٍ مهجورة؛ البئر المهجورة المظلمة، التي يُسمع صوت الماء الغائر فيهًا، كما لو كان همهمات لقوارض رطبة في القاع. الهدوء المطبق من حوله وضع إصبعه على فمه، أشار للعقيد أن يخرس؛

- إششش! اخرس الآن أيّها العقيد.

obeikan.com

العقيد يستلّ سيفه

منزل العقيد نايف صالح

٩:٣٠ ص

عندما عاد من عملهِ مساء ذلك اليوم، استلقى فوق الأريكة في غرفته المعتمة، لم يخلع بزته العسكرية أو حذاءه ذا السّاق الطويلة. فعند دخوله إلى الغرفة، ضغط زر الإنارة، لكنّ الضوء السّاطع صرخ في وجهه:

- من أنتَ أيّها النكرة؟

وضع العقيد يده أمام عينيه لتفادي وميض هذه الشتيمة المباشرة.

قال الضوء:

- لا تُرني وجهك إذن قبل أن تجلي الظلم عن كيانك المترهل، أيّها العقيد.

ضغط الزر مرة أُخرى؛ فضّل ضوء نهاية النَّهار الخافت المستكين المتسلل من خلف ستائر النافذة، على هذه الإنارة القوية المزعجة.

كانت فوق المنضدة - أمام الأريكة- مجموعة من الكتب الموضوعةِ بنسقٍ غير مرتّب، أحدها مقلوب على وجهه، ومفتوح على صفحةٍ محددة وصلَ إليها ليلة الأمس فقط، يحمل عنوان: "قادة عسكريون عظماءٌ"، رمق الكتاب بنظرةِ لامبالاة، حدّق به طويلا إلى أن أمسكه وقلبه بين

obeikan.com

يديه، وفجأة راح يُمزّق أوراقه، كما لو كان ينتفُ دجاجة بغضب، أخيرا قذفه بقوةٍ في عرض الحائط، التصق به لبرهة، ثم سقط أرضًا.

وشرع يُدخّن فوق الأريكة، استمرّ بنفخ الدخان من فمه ومنخريه إلى الأعلى، وبدَّدت الظلمة ذلك النّور الرَّكيك، ورانت فوق رأسه رويدًا رويدًا. وامتلأت المِنفضة بأعقاب السجائر المحترقة حتى آخرها.

وعندما أطلَّت الخادمة العجوز من الباب، مدّت يدها لتُشعل الضوء، وقد رأت العقيد جالسًا في جوٍ كئيبٍ من العتمة، لكن صوتًا مكلومًا خرج من شفتيه:

- لا تشعليه.

أعادت يدها بسرعة من فوق الجدار. قالت بعطف - وهي بالكاد تراه- كشبحٍ يجلس في الظلام، وبيده نقطة حمراء، رأس السيجارة:

- حسنًا. هل أُحضر لك العشاء نايف بيك؟

- لا أريد عشاء.

وقفتْ لحظة تفرك يديها ببعضهما البعض، قالت:

- هل من شيء أقدمه لك نايف بيك؟

- قلت لكِ لا أريد أي شيء. اخرجي الآن واقفلي الباب خلفك.

رويدًا رويدًا، أيضًا، طلع ضُوءُ النهار، اقتحمت حزمةٌ من أشعة الشمس النافذة ودخلت خلال الشق بين الستارتين، مستقرةً على وجه العقيد الذي راح في غفوةٍ مداهِمة من شدة التعب وإرهاق السهر، بعد

أن جافاه النّعاس حتى ساعة متأخرة من الليل، وتجلّت الغُرفة مضاءة بوهج الصباح الباكر بهدوءٍ وسكينة. قبالة الأريكة سرير مزدوج، وعلى جانبيه منضدتان صغيرتان، فوق كل واحدة مصباح أنيق يعمل بسحب الخيط. في الركن شماعة لتعليق الثياب، عسكرية في غالبيتها. فوق أرفف مكتبة حائط، أيقونات عسكرية صغيرة، دمية دبابة، مدفع معدني صغير، قذيفتا رشاش عيار ٥٠٠، فارغتان وموضوعتان بنسقٍ وعناية.

على المنضدة الصغيرة أمام الأريكة، في مكان الكتاب المفتوح، امتلأت المنفضة بالرماد وأعقاب السجائر، فوق الجدران توزّعت صور العقيد المؤطرة بخشبٍ أنيق، وهو في بزّات ورتب عسكرية مختلفة.

غرّد عصفوران فوق حبل الغسيل القصير في شرفته، ثم طارا بشكل متلاحق إلى شأنهما. وبعد أن زقّت حمامة رمادية على بدلته العسكرية الأخرى المعلّقة بمشجب على الحبل، بلطخة بنية مصفرة، رفرفت بسرعة إلى شأنها أيضًا. وتدريجيًا فاضت الشّوارع بالزّحام المعتاد وضجيج السيارات وأبواقها المتنوعة، وبالنداء الآلي لتجّار الخردة والأشياء المستعملة وهم يتجولون في سياراتهم بين البيوت يطلبون شراء أي شيء قديم أو تالف، وصدحت الأصوات الموسيقية البدائية لشاحنات بيع اسطوانات الغاز، وأصوات الباعة الحادة المنطلقة من سماعات مكتومة لشاحنات صغيرة تبيعُ الخضار والفواكه، وارتفع كذلك وطغى بشكل أعم، هديرُ ودويّ حفارات الضغط "الهيدروليكي" اليدوية، التابعة لأمانة العاصمة، والتي تحفر، على رصيف ما، وفي نفس المكان للمرة العاشرة على التوالي، وامتلأت المدينة كما هو

معهود، ببقية الضّوضاء المنبعثة من الحركة الصباحية المعروفة.

وليس بسببِ ذلك الإزعاج اليومي، أو وميض حزم الشّمس المقتحِمة والمتناثرة فوق عينيه، إنما بسببٍ من ساعته "البيولوجية" المعتادَة، والتي راحت، في تمام السّاعة السادسة صباحًا، تُناديه من الأعماق، من جوارحه مجتمعة، نداء مشوّهًا ومزعجًا هذه المرة:

– نايف! يا نايف. استيقظ الآن يا نايف صالح!

وخلا النداء، بعد أن تأخّر عن موعده الأصلي ساعة من الوقت، من كلمة بيك، فقد تقلّصت مقطوعةُ الإيقاظ الصباحية إلى شيء باهت وعقيم، وهي التي طالما ترافقت، على نحوٍ رائع، بالتّذكير بالأمجادً المرتقبة.

فتح عينيه المحمرّتين متعبًا وبائسًا كمن نام على سكْرة. خرج أخيرًا من غرفته إلى الشُّرفة الصغيرة، كان التلفاز ما زال على محطة الأفلام الوثائقية التي يحبّ متابعتها، لطالما تابع البرامج التي تدور حول حيوانات الأنهار وطيورها، دجاجات الماء والدرّاج، القندس النهري بالتحديد. يُحب العقيد أن يُشاهد الأخير وهو يقضم الأشجار بأسنانه الكبيرة، ويجرّها عبر التّيار ليبني بيته على شكلِ سدٍّ من الأخشاب المتداخلة، حابسًا بذلك جزءًا لا بأس به من مياه النّهر.

فذات مرّة دخل على الضّباط الأصغر رتبة في إحدى محاضراته التي كان يُلقيها في بعض المدارس العسكرية، لم يتفوه بكلمة واحدة بعد التّحية، كان مثالاً للآلة الصامتة، أطفأ الأنوار وضغط زر التّشغيل في جهاز العرض المتصل بالحاسوب، ومن ثم سُمع صوتَ خريرٍ وجريان

مياه متدفقة، ولم يكن هناك غير قندس ذكر، يواصل السّباحة – ضد التّيار– نحو حافةِ النهر.

لقد كان القُندس بالنّسبة للعقيد نايف، مثالاً رائعًا في العمل الدؤوب المخلص، مثالاً للربط والضّبط، فمنذ ساعات الصّباح الأولى يتّجه نحو جذوع الأشجار، يشتمها بأنفه المدبَّب عدة مرات، ثم يشرع في قضمها دون كللٍ أو تعب، وبعد أن تهوي على صفحة الماء، يستعين بماء النّهر، وهنا يكمن الذكاء، استخدام التّيار لصالحه، رغم أنه يسبح ضده من وقتٍ لآخر، لكي يأخذها نحو الركن الذي يبنى فيه بيته المتواضع.

رشف في الشّرفة سيجارة إضافية، لمح اللطخة البُنيّة المصفرة على حافةِ البدلة، تأملها بعينين كسلانتين ثم تجاهلها ونظر من شرفته، في الطابق الرابع، إلى المدى الصباحي، لكنه لم يرَ أيّ شيء منه، كل ما استطاع رؤيته هو سديم معتم وقرمزي، تغبَّشت الرُؤية قليلاً لديه، نزّت دمعة من عينه، فكّر بأن الأمر قد نحا منحى الجد، وقد أتى هذا اليوم الذي تجنّب التّفكير فيه مجرد تفكير، إنه ماثلٌ أمامه، ها هو العقيد نايف الصالح قد تقاعد أخيرًا من عمله، ولم يكن التقاعد بحدّ ذاته، وفي سن مبكرة، هو المعضلة، بقدر ما كانت حياته العسكرية تأخذ جلّ اهتمامه وكيانه، وهكذا يتم الإستغناء عنه دون أيّة مقدمات؛ نتمنى لك حياة مدنية سعيدة.

عاد إلى الأريكة، وإلى جانبها، كان ألبوم الصور، يُطلّ من حافة الحقيبة التي جلبها معه من المكتب، أمسكه وقلّبه بهدوءٍ مستفيض، كم كانت هذه الصورة مُضحكة جدًا بالنسبةِ إليه، التقطتْ له ورفاقه في

خليج العقبة، على ظهر قارب للبحرية الملكية، ولا يملك إلا أن يبتسم ويُقهقه عندما يتطلع إليها، لكنه الآن يُريد أن يبكي حيال ذلك، أخذت له عندما أصبح ضفدعًا بشريًا جيدًا، يُجدّف بفخذيه الرّشيقين، يرتدي لباسَ الغطسِ ثم يقفز إلى الخلفِ كما لو كان أسدَ بحرٍ يغوص إلى أعماق الماء، وفي الأيام الأولى، من تلك الدّورة، كان قد لحق بسمكةِ "دولفين" فضية، يُريد مداعبة رأسها بيده، كما كان يُشاهد ذلك في البرامج الوثائقية، لكنّ البحرية الإسرائيلية أوقفته، قادته إلى قيادة غفر السواحل، وبصعوبة تم إطلاق سراحه وإعادته إلى فريق الغطّاسين.

وقبل ذلك بيوم، وأثناء التمرين أيضًا، أطبقت سمكة كبيرة بفكّيها على مؤخرته، قال له المدرب الأمريكي حينها:

- هه! احذر يا نايف صالح! العدو يأتيك من كلّ الجهات تقريبًا، لا سيما من خلفك.

ردَّ نايف صالح بسعادة غامرة:

- لا بأس من هذه الناحية، بحرٌ واحدٌ بيننا وبين العدو، لكنه ميّت، لا تعيش فيه أسماكٌ أو حتى طحالب.

عندما عاد إلى "عمّان" نهاية دورته التدريبية، بدلاً من أن يجد عبارات الترحيب والثناء مزخرفة بانتظاره، وجد كتابَ تنبيه ملقى على المكتب أمامه، وتحذيرًا شديدَ اللهجة إن عاد لملاحقةِ الدّلافين، في مياه الدول المجاورة، من جديد.

أحضرتِ العجوزُ، المستيقظة باكرًا –كالعادة– فنجان قهوةِ الصباح

للعقيد، وقفت وتلكّأت قليلاً وهي تعصر يديها لرؤيته على تلك الحالة، أرادت أن تتساءل ما الذي حلّ بسعادة الأمس، لكنها انصرفت والكلامُ يتحرك في فمها دون أن تتمكّن من قول أيّ شيء له، ازدردته وصمتت.

لملم العقيد أذيال كآبته الصباحية، وضع الصور من يده جانبًا، طلب صديقه أمين المرزوق؛ الذي يسكن في الدور الثالث من البناية نفسها:

مسح الصديق عينيه لكي يُلقي بالنّعاس بعيدًا عنهما، تنحنح بقوةٍ في محاولةٍ منه لكي يزن أداء نطقه للكلام:

- ماذا هناك؟ الوقت جدًا مبكِّر، هل أنت بخير عزيزي؟

- لا، لستُ بخير، إنني أموت. هل بوسعك أن تحضر إلي الآن، أكاد أختنق.

- أجل، لا عليك، ها أنا قادم.

نهض أمين المرزوق، الشّاب الأعزب، ذو السادسة والثلاثين من عمره، من حضن المرأة الدافئ والتي نامت عارية بين يديه ليلة الأمس، وبسبب ذقنه الحاد، كان رأسه أقرب إلى المخروط، تناول ساقه من حافةِ السرير، ثبّتها إلى ركبته اليسرى، ثم ارتدى ثيابه بأقصى سرعةٍ ممكنة، لم يأخذ ذلك منه وقتًا لأنّه لم يكن يرتدي ثيابًا في الأساس، قال:

- لا تغادري قبل أن أعود، لن أُفوّت مضاجعة الصباح من أجلِ نايف بيك وتقلبّات مزاجه.

وأومأت بيدها من شدة النُّعاس دون أن تفتح فمها.

خرج من باب بيته وصعد، مدفوعًا بمشاعره الإنسانية النبيلة، إلى شقةِ صديقه بأقصى سرعة استطاعها، كان رأسه يميل إلى ناحية ما، بينما ينخفض ويرتفع وهو يصعد السلالم، فساقه مصنوعة من البلاستيك المقوّى بلون اللحم، فقدها جراء التهابٍ "الغرغرينا" بسبب مرض السكر الوراثي الذي يعاني منه، والذي تفاقم معه بفعل ضغوط الحياة اليومية والعمل في المدرسة والمواجهةِ المكبوتة مع الطلبة والمدير، وفي أيام الحرّ الشديدة، عندما لا يرغب بإعطاء التلاميذ درس ذلك اليوم، يجلس على الكرسي راجعًا بظهره إلى الوراء، ومسندًا قدميه على أحد المقاعد، ومتأملاً النافذة إلى جواره، ثم يسأله الطلبة بكل جدّية: "هل تذوب ساقك يا أستاذ"؟. بينما يسمح لهم في بعض المرات، أن يرفعوا بنطاله القماش الفضفاض، ويتحسّسونها بأيديهم صعودًا وهبوطًا.

فتحتِ العجوزُ الباب، وأشارت بيدها إلى مكان وجود العقيد نايف، نحّاها أمين جانبًا ودخل إليه، رآه بوجه شاحبٍ ومعتم، إن الحزن يحيل الإنسان إلى كينونةِ بؤسٍ وأسى، لذلكً كان العقيد مثالاً لهذه الكينونة التي تقف على ساقين في الشُّرفة، يتنفس بصعوبةٍ من هواء الصباح العليل، يرتدي بزّته العسكرية وحذاءه الأسود اللامعً:

– صباح الخير. ماذا هناك نايف بيك؟ ها أنت لم تذهب إلى عملك بعد.

– لا، لم أذهب، لكنه لا يهن عليّ خلع هذه البزة، إنها مصنوعة

من جلدي، من كل خلية في كياني.

لم تكن البزّة مصنوعة تمامًا من جلده، لكنها من شيء آخر متعلّق بالعقيد، لم يستطع بأي حالٍ من الأحوال وعلى الإطلاق أن يبوح به، أو أن الأفكار لم تسعفه لذلك، فقد كانت مصنوعة من أناه العميقة، تلك الأنا التي سُلبت منه في ذلك الصّباح، أنا على شكل بزةٍ عسكرية، مرصّعة بالنّياشين والأوسمة والتيجان.

ومن هذه الشُّرفة التي بدت له وكأنها مُعلّقة في الفراغ، رأى الأشياء في الأسفل بالغة الصغر، ورأى نفسه يسقط متخبّطًا في الهواء، إلى أن ارتطم بالقاع.

نبهته ضحكة المعلم أمين:

– لا تخلعها إذن، بالتأكيد لن يجبرك أحد على خلع ثوبك الجلدي، فأنت لست أفعى بطبيعة الحال.

صعد من القاع متمسكًا بدرابزين الشّرفة، استند عليه بيديه. عاد ووقف بها من جديد، استدار برأسه فقط، ونظر العقيد نظرة عميقة باتّجاه صديقه، عاد وتطلّع إلى المدى:

– بصقوني من عملي يا أمين!

اقترب الصديق، مُتطلعًا، من ناحية الجنب، في وجه نايف بيك، تناول الأخير علبة السجائر من جيبه، أشعل واحدة، ونفخ الدّخان إلى الأعلى، أكمل زارًّا عينيه باتّجاه طرف السماء:

– الصراصير تصفر في رأسي.

وحرّك أصابعه، ضمّها وفتحها، وقال:

- هكذا تصفُر من حلوقها.

ولمعت دمعة على حافةِ عيني نايف بيك، جاهد واقفًا بكل صلابة ألاّ تنزلق فوق خده، لكنها كانت من الثقل بمكان أن تدحرجت، وتلتها واحدة أخرى على عجل، قال أمين:

- هل هذا كل ما في الأمر؟ صراصير تنقنق؟ قلقت عليك، اعتقدت أنها ديناصورات..! ما هو صوت الديناصور بالمناسبة؟

- لا بد أنك شربت كثيرا ليلة الأمس! هل هناك خطورة أكثر من اخراج سمكة من الماء؟

ضحك المعلم أمين، قال:

- دعك من أفلامك الوثائقية يا صديقي.

ثم جلس على كرسي بلاستيكي موضوع في الشرفة، تناول سيجارة من علبة نايف بيك، وأردف وهو ينفخ الدخان:

- سأتحدث معك الآن بكل صراحة، هل تعلم بأنني سعيد لذلك الخبر؟

- سعيد؟

- أجل. سعيد.

قال ذلك متناولاً فنجان قهوة من فوق صينية صغيرة دخلت بها العجوز إليهما، رشف منه ووضع الفنجان على حافة الشرفة، وتابع:

obeikan.com

- بل سعيد جدًا، فلطالما قلت لك أن تتحرر من هذه القيود التي تحيط نفسك بها، لقد كنت دائمًا، رغم ما تملكه من قدرات هائلة، كالقزّة، رهين عملك.

وأشار بطرف إصبعه السبابة، ليوحي بحجم القزة. قال العقيد:

- كالقزة؟

- أجل تلفّ نفسها بالشرنقة، ألم نشاهدها معًا ذلك اليوم في برنامجك المفضل.

- فعلا لقد كنتُ كالقزة!

- لا يجب عليك أن تحزن نايف بيك، فبوسعك الآن أن تمزّق تلك الشرنقة من حولك، تفتح جناحيك وتنطلق نحو الحياة كما يجب.

- أيّ أجنحة تقول عنها؟ لا بد أنك ترى أنها منتوفة الآن!

- لا أرى ذلك، على العكس تمامًا، أرى أن الزّغب قد بدأ ينمو مكان الريش المنتوف الذي تقول عنه، فأنت ما زلت في ريعان عطائك، بوسعك أن تصبح رجلاً مهمًا جدًا في هذا المجتمع، رجلاً سياسيًا على سبيل المثال.

- سياسيًا؟

- بالتأكيد، لا تحتاج لمن يذكرك بذلك، فهل نسيت أمر الصالونات السياسية التي طالما عقدتها هنا، وتحدّثت فيها بكل شاردة وواردة، محللاً الأوضاع الراهنة، وواضعًا حلولاً ناجعة لها، ولاعنًا بعض السّاسة الجاهلين ومن يحذون حذوهم من أنصار الحكومة الفاشلة؟

وبعد لحظة صمت من كلاهما. تابع المعلم:

- هل نسيت كلّ ذلك؟

- لا، لم أنس كل ذلك.

- لا تحزن إذن، يا صديقي نايف، فما هذه إلاّ بداية مرحلة جديدة مهمة من حياتك.

- مرحلة جديدة مهمة؟

خطا المعلم خطوتين، استدار حول العقيد، عاد واتّكأ على حافة الشرفة المعدنية، قال متطلعًا إلى السماء:

- كما أقول لك، مرحلة جديدة مهمة، يُبنى عليها أشياء كثيرة، إنك تنسى روح القندس التي بداخلك،وتؤمن بها أيها العقيد، وتنسى العبارات الجميلة التي تنقلها دائمًا من برامج الوثائقيات التي تُشاهدها؛ لا تنتف الزغب الصغير المزعج، لأنه سبيل الطيران الوشيك! إني أرى أنك لست أقل شأنًا من وزير أو محافظ، أو نائبٍ في البرلمان، لا يليق بك إلاّ منصبًا جيدًا، فلا يجب أن تقلل من شأنكً أبدًا نايف بيك.

زرّ العقيد عينيه مفكرًا، ثم قال أخيرًا:

- من كان يأتي لهذه الصالونات، هل بوسعك أن تتذكر؟

- كُثر، لا أستطيع أن أتذكرهم جميعًا، فأحيانًا يأتي ضيوفٌ مع الضيوف، كان المكان يمتلئ بأناسٍ جدد.

- ربما هذه الصالونات هي سبب ما أنا فيه، فقد حذرني خالد بيك ذات مرة أن أستمر في عقدها.

صمت برهة، ثم قال منفعلاً بعد أن شرب جرعة كبيرة من زجاجة بيرة ثالثة:

- لكنني، والله تعالى يعلم، إن كنت قد نويت في الماضي أن أتوقف عن ذلك، فإنني منذ اللحظة، سأستل سيفي، وأبدأ معركتي الجديدة.

قال أمين ملوحًا بقبضته في الهواء:

- أجل. استل سيفك قبل أن يصدأ.

وقال نايف بيك بعد أن شعر ببعض الدوار، ووجد نفسه لا يستطيع الوقوف، وجلس على كرسي خشبي في الشرفة:

- ليس سيفي وحسب، وإنما العتاد بكامله، لا عودة عن ذلك.

- أجل. العتاد والتّرس، والخوذة أيضًا.

ومرّت لحظات صمت خالية من أي كلمة تُذكر. أخيرًا، تراجع معلم التربية الوطنية إلى الخلف، جلس مفكرًا كيف عساه أن يُخفّف عمليًا من وقع هذه الصّدمة على صديقه، قال:

- انتظرني قليلاً نايف بيك.

نزل أمين المرزوق إلى شقته، أمسك الفتاة التي ترقد في سريره من كتفيها، هزّها لكي تستيقظ، وهي تترنح كالمخمورة: "لماذا لا تتركني

أنام"؟ لكنه طلب منها أن تصعد في الحال إلى شقّة العقيد نايف بيك؛ فثمة عملاً مهمًا بانتظارها، ومن هناك سيدفع لها العقيد بدل أتعاب هذا اليوم وأيضًا أتعاب تلك الليلة السّابقة في بيته:

– تعرفين عملك جيدًا في مثل هذه الحالة، لا أريده أن ينسى يومه هذا فحسب، إنما حياته بأكملها.

وضربها على مؤخرتها وهي تهمّ بالذهاب متكاسلة. وقال:

– دعيه يرى هذه ولا عليك من الباقي.

obeikan.com

سمكة السّلمون المُترقّبة

ما إن فتح الباب حتى نهضت القطة، وذهبت بهدوءٍ غير مفزوعة، خرج مسرعًا من المقهى، ومضى قدر استطاعته ما بين الهرولة والمشي السريع المتقافز، ليوحي لي بأنه في عجلةٍ من أمره، وارب قدميه بين رغوة الصّابون التي يشطفها زياد في الخارج، ربت على كتفِ الأخير مبتسمًا له ومضى.

رأيته من خلف زجاج الباب، على ضوء مصباح "النيون"، ينبعثُ ضبابٌ أبيض من أنفاسه، يقف بمعطفهِ المترهّل في منتصفِ الشارع، كما لو كان ممثلاً مونودراميًا بدورٍ عبَثي على خشبةِ مسرح، ملوحًا بيديه الاثنتين كنايةً عن رفضهِ لشيءٍ ما في هذا الوجود، لكنه كان يُلوّح لأولِ سيارةِ أجرة ظهرت أَمامه، ولم تقف، فهناك فتاة تجلس في الخلف، بالكاد يظهر وجهها من زجاج النافذة، بعينين جريئتين واسعتين، وشعرٍ أسود فوضوي. نظر إليّ من الخارج، ابتسم وأومأ بيده أن أبقى. كان معطفه الفضفاض يرفِل من حوله، لم تصدر عني أية استجابة، عاد والتفت إلى سيارةٍ أُخرى قادمة. رفرف منفعلاً بيده اليُمنى، توقّفت إلى جانبه تمامًا وصعد فيها، بقي ينظر إليّ مبتسمًا من النّافذة، انطلقت سيارة الأُجرة، ظلّ رأسه يستدير تلقائيًا نحوي، كالبومة، ويُشير بيده، إلى آخرِ لحظة، أن أنتظر.

انتهى زياد من شطف الباحة الخارجية، الرجلان لا يزالان يقذفان حجري النرد فوق طاولة الزهر، مرّت أكثر من نصف ساعة؛ أربعون

دقيقة. انتهى "عبدالحليم" من السّفر مع حبيبته الافتراضية، وبدأت "أم كلثوم" بالانتظار: "أنا بانتظارك خليت؛إيدي على خدي وعدّيت؛ بالثانية غيابك ولا جيت...". انهمكتُ فيها بمواصلة قراءة الرواية؛ "ما الإنسان سوى درّاج كبير في هذه الدنيا"؛ ذلك العنوان الذي أعجبه جدًا، للكاتبة الألمانية "هيرتا موللر"، وهو في الأصل مثل "روماني"، للدلالة على عجز الإنسان تجاه مصيره. يعجبني أسلوب الروائية، جمل قصيرة وصعبة، فكرت بأنها لا تحشو الأسطر بالرّيش أبدًا، كل جملة في مكانها، وكلماتها مدروسة وفعالة، بداخلي رغبة عارمة لمعرفة مصير البطل "فينديش"، فقد غدت الحياة - بالنسبة له- في القرية الرومانية البائدة، وكأنها قد توقّفت في صورةٍ فوتوغرافية محزنة.

من وقتٍ لآخر أنظر تلقائيًا، ناحية الباب، لا أكبح نفسي من التفكير بصانع المعادلات المتعلقة بالشيب ومصابيح اليد؛ لماذا جلس إلى طاولتي في هذا المقهى البائس؟ إنه "فينديش" بشكلٍ أو بآخر، عرفتُ ذلك من تلقاء نفسي، العينان الخريفيتان، والمشية المتقوسة ذاتها.

وعندما فكّرت بأنني لا أجلس كأيّ يوم عادي في المقهى وحسب، إنما عكّر ذلك، كوني كالمعتوه، وبقرارٍ داخلّي دون أن أحسم الأمر، أنتظر رجلاً كان يرفرف بيديه قبل قليل كدجاجة، طالبًا مني، ولعله وجّه لي أمرًا، أن أنتظره، وغادر دون أن يسمع مني تأكيدًا حقيقيًا لذلك، وقد لا يعود، فربما كان من أولئك المصابين بداءِ أن ينتظرهم أحدٌ ما بينما لا يأتون إليه أبدا.

هممت بالمغادرة والعودة إلى بيتي المتواضع لأنام جيدًا، وأنهض إلى عملي صباح اليوم التالي، لكنّ جلبة ما اقتحمت المكان، نهضت

القطة وابتعدت بعد أن كانت قد عادت ووقفت عند الباب من جديد، كان هو بالتّحديد، ينظر إليَّ مبتسمًا بينما يدخل بسرعة نحوي، كان مُحمّلاً تحت يده اليسرى - وقد ضمّها إلى صدره- برزمةٍ من الملفات والأوراق والمظاريف، سحب الكرسي الخشبيّ بيده الأُخرى، جلس وبسطَ حمولته على الطّاولة أمامي، كما لو كنتُ، ذلك المحامي، الذي أُحضِر له كل شيء متعلّق بالقضية؛ القضية العادلة، التي سيبدأ على الفور المرافعة عنها.

وراح - رغم برودة الطقس في الخارج- يمسح بمنديلٍ ورقي قطرات العرق المتفصّدة عن جبهته ويلهث، وينظر بطرف عينه، من حينٍ لآخر، إلى كتابي الذي وضعته جانبًا، ويتأمل عنوانه بسرورٍ بائن على وجهه، كانت جبهته ندية كبابِ المقهى الزجاجي، وكان متعبًا بسبب كرشه المندلق، ومعطفه الأخضر الثقيل. يبدو أنه قد قطع المسافة ركضًا إلى هنا. سأل وهو منهمك:

- لقد أنهيتَ قراءة الكتاب إذًا؟

- لا. ليس بعد.

كما لو أن الجواب قد أقلقه، لأنه امتعض، وقرّر أن يقوم -بدوره- بتشجيعي على قراءته:

- لا تتكاسل؛ اقرأ بنهم، هذا العنوان من أصدق العناوين، بني، لكن عمّاذا يدور؟

- إنه يحكي قصة "فينديش"، ربّ عائلة، يعيش في قرية نائية في "رومانيا" عهد "شاوشسكي"، وقد توقف الزمن لديه، ويحاول

جاهدًا – كبقية أبناء قوميته من سكان القرية- العودة إلى بلده الأصلي "ألمانيا".

– هل هناك ما يمنعه من العودة؟

– رجل الشرطة الفاسد يتباطأ، ويُلمّح لمضاجعة ابنته، كما درجت عادته في التعامل مع بقية الأشخاص طالبي الهجرة، لإعطاءه الأوراق المنشودة.

– هل وافق؟

– يُقدم له أكياس الدقيق كرشوة من الطاحونة التي يديرها، بدلاً من ذلك!

– نعم، هذا جيد، فرغم أن الأمر برمته ليس مقبولاً، لكنه أفضل من مطلب الشرطي الفاسد.

خيّمت لحظة صمت، ورحت، وأنا أرشف قهوتي، أجد نفسي أدخل بحوارٍ هادئ معه، كأي شخص اعتدتُ أن أجلس إليه، فقد راح يُشاركني الحديثً عن أمور أحبها؛ الحًديث عن الروايات وشخوصها.قال وهو يدفع لي ما بحوزته من أشياء:

– آمل أن يكتفي بملء فمه بالدّقيق، وألّا يضاجعها ذلك الحقير. إن بيتي قريب من هنا، لكني تأخرت قليلاً، فالسائق لم ينتظرني، قال بأنه ذاهب ليقلّ فتاة ليل بانتظاره، فهي تُعطيه أضعاف ما سيأخذ مني. والآن إليكَ، بني.

– ما هذا سيّد "فنديش"- أقصد سيد... لا بد أني نسيتُ

اسمك!

– لم أُعرّفك باسمي، أنا سليم؛ سليم بيك.

ولم ينظر إليّ، انهمك تمامًا، ببسط الأشياء وتصنيفها أمامه، ورحت أنظر إلى وجههِ وذقنه الحليق النّاعم، أتفحّصه، وأنا لست واثقا، إن كان يبدو عليه ما يُومئ إلى خبلٍ ما، أو شيءٍ من هذا القبيل.

دسست خرطوم النّرجيلة في فمي، وما زلت أتابعه بعينَي، نفخت سحابة كثيفة إلى الأعلى:

– أهلاً سليم بيك. لكن ما هذا؟

ردَّ دون أن ينظر إليّ، لأنّه ما زال يبحثُ عن شيءٍ ما في تلك الكومة:

– مُذكّرات، وأوراق، ومستندات، وكل شيء يلزمك، بني.

– يلزمني لماذا؟

هذه اللحظة بالتّحديد، توقف عن النَّبش، ونظرَ إليّ بعينين عميقتين؛ عيني سمكة "سلمون" تترقّب:

– لإظهار الحقيقة.

– أيّ حقيقة؟

– الحقيقة الواضحة كالشّمس.

obeikan.com

الزوجة تتألّم

انتهى العقيد نايف الصالح من شروده محدّقًا في الأُفق، كان رأسه يصعد سريعًا، ويدور في دوامةٍ لولبيةٍ صاخبة، قال:

– أجل، التّرس والخوذة وكل شيء. أؤكد لك ذلك.

وانتظر أيّ تعليق من صديقه، فلم يسمع شيئًا، والتفت إلى الوراء باحثًا عنه، لكن لم يجده، نادى بصوتٍ خافت:

– أمين!

وعندما جاهد وهو يدخل ممسكًا بحافة الباب إلى الغرفة، وجد فتاة بيضاء رقيقة الملامح، بدلاً منه،تستلقي شبه عارية فوق السّرير ومغمضة عينيها بسلام، تتابع نومها بهدوء وسكينة لأنّها لم تنم جيدًا ليلة الأمس.

أطلّت الخادمة العجوز من المطبخ لتأخذ فنجاني القهوة والزجاجات الفارغة من الشرفة، لكنها اندهشت بعد أن رأت الفتاة، فكرت بأنها تشاهد ذلك لأول مرة في بيت العقيد، وحزمت أمرها بعدم التّدخل بطبيعة الحال، أسرعت إلى غرفتها وأغلقت الباب على نفسها.

فرك العقيد عينيه ليتأكد إن كان يرى بوضوح أم أنه غباش السّكرة والأرق! وأن مَن أمامه ليس صديقه أمين المرزوق يأخذ غفوة كالمعتاد. عند ذلك، ولأنّها تملك مؤخرة جميلة، كسلاحٍ أبيض يُعوّل

obeikan.com

عليه، وبحسب وصية المعلم، فقد استدارت الفتاةُ بغنجٍ ودلال، امتشقت سلاحها، وأظهرت تلك المؤخرة بشكلٍ واضح وصريحٍ، بحيث جعلتها هي المتقدّمة في تلك التّداولات، وتنهّدت من أعماقها المشتعلة.

أحسّ نايف بيك بتيارٍ من الحرارة يصعد من رأس إصبع قدمه الكبير إلى أعلى جبهته، تغبّشت الرؤية لديه، إن كان قد سقط قبل قليل من فوق شرفة عالية جدًا إلى الهاوية، فلا يعني ذلك أنه سقط في غرفة نوم أحدهمٍ، وتساءل: كيف دخلت الآن إلى فراشي؟ إنه سريري كما أرى! ونزّت قطيرات عرق صغيرة وعديدة من هذه الجبهة المفلطحة والبارزة للأمام،وأوشك لعابه أن يسيل لالتهام الوليمة المباركة، التي هبطت للتّو من السّماء، وأشبه ما تكون بفطيرةَ العسل والزبدة.

اقترب العقيد نايف أكثر؛ لنر إن كانت حقيقية أم وهمًا! مطّ جسده وتحسسها بخوفٍ بإصبعه السّبابة، وتأكد أنها ماثلة بصورة مادية أمامه، لقد غاصَ إصبعه في لحمها الطري، كما لو أنه يغرسه في قطعة من "المارشملو" الأبيض، ثم ألقى نظرة مختلسة على الجدار، رأى زوجته المحبّة تنظر في عينيه بالتحديد، رأى بنادق اللوم والعتب الشّديد تُصوّب نحوه، أدار وجهه وحاول التظاهر بأنه لم ير تلك النظرات الكسيرة المنداحة كالموج إليه، لكنها قطعت عليه سبيل التجاهل، مدّت يدها من إطار الصورة، نكزته على كتفه، نكزة تذكير بتلك الأيام الجميلة والحُب الذي مضى، ومستوضحة منه في الوقتِ ذاته:

- ما الذي أراه أمامي الآن يا نايف؟ إن هذا الأمر لا يُصدّق أبدًا! أترتكب الخيانة في وضح النهار؟ ودون أدنى اعتبارٍ لوجودي هنا!

يا ليتني مِت قبل ذلك يا نايف!

ردَّ نايف صالح فاغرًا فاه، ملتفتًا إليها:

- ماذا؟ لكنك الآن ميتة، يا زوجتي الحبيبة!

أضافت بأسى مرير:

- ميتة! وا أسفي على حُبنا يا نايف! وا أسفي على تلك السنين التي أمضيتها برفقتك وتحت جناحك! أتقول الآن بأنني ميتة؟ أتنفي وجودي في حياتك يا زوجي العزيز؟ اعتقدتُ أنني كذلك تحت التراب فقط!

- إنك كذلك، حية ترزقين في قلبي، يا زوجتي الحبيبة.

وتدحرجت دمعة من عيني الزوجة المتألمة، وهي تنظر إلى زوجها، يكادُ يبدأ بخيانتها فوق فراش الزوجية الدافئ، ذلك الفراش الذي شهد أعنف لحظات الجذب وسحب الصّنارة، ولحظات الحب الليلي الملتهب، وهزّت رأسها وهي تعتصرُ يديها، اللتين لم تكونا ظاهرتين في إطار الصورة، وفكرت، وقد اكتسبت بالضرورة، بعض الحكمة وبُعد النّظر من ذهابها إلى العالم الآخر، بأن الحب لا يفنى بل يتحوّل من شخص لآخر، وتساءلت مع نفسها: ما الذي حلّ بزوجها بعد أن تركته في كامل ريعان شبابه، وصعدت إلى السماء، يكافح في العسكرية كأصلب ما يكون؟ وقالت بآسى:

- لماذا الآن إذن، تطعن تلك الذكريات الجميلة؟ لماذا تبدأ في وخزي بالإبر السّامة في قبري؟ ماذا صنعتُ لك لتفعل بي كل هذا

يا زوجي الحبيب؟

ونظر إلى يديه إن كان يحمل فيهما أية إبر سامة:

- أين هي الإبر السامة يا عزيزتي؟ لا بد أنك مصابة بالهذيان، فأنا لا أقوم بوخزك بأية إبر!

ثم تذكّر، متطلعًا إلى الصورة فوق الجدار، وفي تلك اللحظة الحاسمة وظروف ذلك الصباح، هذه الزوجة التي مضتِ إلى جوار ربّها مع جنينها، قبل عشر سنوات، فبعد أن غمزت الصنارة بتلك السمكة إثر محاولاتهما العديدة وزيارة الأطباء، ماتت مريضةً بتسمّم الولادة، وكانا قد تزوجا بحفلٍ مهيب، يليق برجل عسكري يحب زوجته حدّ الإدمان، وقد أمضى الوقت، بعد رحيلها، وحيدًا لا تخطر بباله امرأة بعدها، متفرغًا لحياته العسكرية، لأمجاده وتجلياتها، وطالما أخلص ووفّى لهذه الزوجة في حياته الرّخية، وها هو لن يخونها في ظلّ هذه الظروف المواتية من حوله.

هزّ رأسه، ثم اقترب العقيد من الفتاةِ ببطءٍ وهدوء، وحاول، بدافعٍ من واجبه الإنساني، أن يضع الغطاء عليها، لكي تنام قريرة العين، إلى أن تستيقظ ويعرف منها سبب وجودها فوق سريره بالتّحديد. لكنها نحَّت الغطاء جانبًا، حدّقت به باستغراب؛ ماذا يفعل هذا بحق الجحيم؟ هل بعثني أمين إلى رجلٍ معتوه؟ ثم تمالكت نفسها وهمستِ بغنج:

- لا تتظاهر بالغباء أيها الضابط، فلستُ نائمة، مثلما ترى.

وانكمشتِ إليه وهي تتلوى، تواصل التّحديق في عينيه؛ لنر بعض

الحيل البسيطة مع هذا الرجل! ثم مدّت يديها إلى ظهرها من كل جانب، لتخلع حمالة الصدر الخانقة بسببِ ضخامة حجمِه، وهي تعضُّ على شفتها السّفلى، وتقذف الآهات الساخنة آهة، تلو الأُخرى.

هدَّأ العقيد من روعها، وربت بحنوٍ على كتفها:

- لستِ نائمة! إنك بلهاء إذن، لماذا تُغمضين عينيكِ إن لم تكوني نائمة؟

لكنها بدلاً من أن تجب، فضلت الإيماءات الموحية على الحديث غير المجدي، جعلت حمالة الصّدر مستقرة فوق ثدييها دون الأربطة، فأي حركة صغيرة من العقيد قد تكشف الكنز بصورة مفاجئة، ثم اقتربت بجسدها منه، ومدَّت يدها نحو شفته السّفلى لكي تتمحّصها بإصبعها الرقيق، وردّت على سؤاله بالصّمت المتواصل، وزفرت، من جديد، بمجموعة من الزفرات المشتعلة، التي ترفع الصدر، علاوة على ارتفاعه، إلى الأعلى وتبرزه.

ثم أمسكتّ يده برفق، واستخدمتها، وهي تنظر إلى عينيه، لكي تزيل بها حمالة الصدر بحركة خفيفة، فبرز الثديان منتصبان بمرح وحيوية، ولا شعوريا، وبهيجانٍ هادئٍ غير مسيطرٍ عليه، وكما لو كانَت قطعة من مغناطيسٍ كبير، التصق بها العقيد نايف الصالح، عجن ثدييها وقبّل شفتيها بشغف وتهوّر، واستخدم يديه ورجليه وضمّها إليه بتهور فأصبحا كعنكبوتينً التصقا ببعضهما البعض، واندفع "الإدرينالين" في دّمه بغزارة قوية، ثم لعق حلمة أذنها، اقشعر جسدها الأبيض المتورّد، وارتجفت مرتعشة وهو يمرر يده، قليلة الخبرة، متخبطًا فوق

جسدها ليجلب لها الدفء بدلاً من تلك الرعشات المفرطة، وتسلّقت يده ذاتها، وقد اكتسبت بعض الخبرة الآن، بروز نهديها المكتنزين، وهبطت إلى بطنها من جديد ،وبدقائق معدودة، كان البركان قد قذف حممه المشتعلة، وهدأ الغليان.

وأخيرًا، وهي ما زالت تجلس على فخذيه، كما لو أنه حصانٌ جيد، ورأسه فوق كتفها الأيمن، جاءت منه نظرة سريعة إلى الحائط، فوجد تلك العينان تواصلان التّحديق فيه بعتاب مستفيض وجارح، وأشاح بوجهه، لكنّ اليد اليمنى امتدت إليه، مرةً أخرى، من إطار الصورة، مسحتَ جبينه المتعرق، كما كانت تفعل في الأيام الماضية، المليئة بالحب والنّعيم، لذا فقد سكن فجأة وتجمّد، ومدّ يده مسرعًا ليمسك بتلك اليد، تلك اليد التي طالما كانت تدسّ اللقمة الأخيرة في فمه، لكنه أمسك الهواء.

وتناهى إلى سمع الفتاة بكاءٌ شجي خرج دفقة واحدة، يا لخطأه الذي لا يُغتفر بانتهاك قُدسية الفراش وحرمته! وتطلّعت إلى عينيه باستغراب، متسائلة بخوفٍ مُستتر على نحو ما:

- لماذا تبكي يا مجنون؟

وأعادت العبارة لكن بفزع هذه المرة، وحاولت أن تُبعد وجهه لكي لا يُبللها بتلك الدموع الغزيرة ًالتي راحت تخرج مالحة من كل مكانٍ في وجهه، ومن أنفه أيضًا، ودونما سبب بكت الفتاة من هول المشهد:

- ابتعد عني يا مجنون، لماذا تبكي الآن؟

ولما كان قد فعل ما فعل، وأقدم على ممارسة الجنس معها تحت

تأثير من عقله اللاواعي، لذلك السبب الرئيسي فقط، ألا وهو البحث الطارئ عن علاج لبعض الأنا المصابة مؤخرًا، في شيءٍ ما على شاكلة مضاجعة، فإن تلك الحلول قد انحسرت على وجه السرعة، ولم تُفلح في شيءٍ يذكر، إنما حدث النّقيض من ذلك.

فإن كانت هذه الأمور، تُحدث بعض التأثير لدى صديقه، ذي الساق المبتورة، المدمن عليها، فإن مردّ ذلك بسيط وواضح، إذ أن الصديق يعاني من بعض عقدِ النّقص بسبب افتقاره لجزء رئيسي في جسده، أما هذه الأنا التي أُخذت من العقيد صباح ذلك اليوم، فهي أكبر من ذلك بكثير، إنها أنا معنوية متضخمة، تحتاج إلى رد اعتبار على الشاكلة ذاتها.

وأخيرًا استند ووقف متماسكًا، ارتدى بنطاله وهو يتمالك نفسه، رفع السّحاب وشبك الزر في عروته، ثم قال موجهًا سبابته في وجهها، وبأمرٍ عسكري صارم:

- تفضلي وانقلعي من غرفة نومي أولاً، ثم من بيتي أيتها العاهرة!

obeikan.com

obeikan.com

العقيد يدخل إلى حلبة الملاكمة

القيادة العامة للقوات المسلحة

١٠:٠٠ ص

عاد العقيد المحال إلى التقاعد مؤخرًا، من رحلةِ نقاهة إلى العقبة، بخيباتِ أملٍ إضافية، ففي تلك الرحلة التي اقترحها له صديقه أمين، جرع كلَ ماً وقع تحت يديه من زجاجات "العرق" و"البيرة"، وما إن نزل صباحًا، واستلقى قليلاً فوق رمال الشاطئ، ليداعب أنفه بالنسيم المحمّل برائحة "اليود" المنعشة، ونظر إلى المياه الداكنة في المدى أمامه، حتى مرّت بباله ذكرى الأيّام الجميلة التي خلت، أيام كان ما يزال طالبًا في الكلية العسكرية، كانت الأحلام، آنذاك، في طور التّشكل والنضوج، وتلك الأيّام من أسعد أيّامه على الإطلاق.

على الشاطئ، أوغلت الذكريات في حضورها، فهناك في عرض البحر، في تلك الناحية التي راح ينظر إليها بحزنٍ مكتوم، وقبل سنين كثيرة مضت، قفزوا جميعًا إلى الخلفِ واحدًا تلوٍ الآخر، رافعين أرجلهم إلى الأعلى، بينما خبطوا الماء برؤوسهم الكبيرة، وغاصوا وعلى ظهورهم أسطوانات "الأوكسجين"، مُلوّحين بزعانف أقدامهم، كما لو كانوا أسماكًا بسيقانٍ نحيلة، في أغرب دورة ضفادع بشرية محلية عرفها الجيش، فقد شذًّ نايف صالح - الضابط الرشيق اليافع آنذاك- عن سرب الغطّاسين المنتظم، ولم يتقيّد بتعليمات المدرّب،

وكل ذلك بسبب من طبيعته المتمردة منذ أيام الحصان الخشبي، وبتر فروع "العوسج" في الطفولة، وبسببٍ وجيه من روحه المتطلعة لكل ما هو غريب وملفت، فقد جدّف بزعنفتيه بأقصى ما لديه من طاقة، لكي يلحق بـ"دولفين" صغير كان يأخذ جولة في الأعماق، راح يصرخ به، من خلف قناع التّنفس:

- تعال إلى هنا أيّها "الدولفين" الجميل، إنني إنسان مثلما ترى.

لكن "الدُّولفين" ضرب صفحًا عن تلك الدعوة، استدار برأسه، وسبح بعيدا عنه متجاهلاً نداءه البريء. أردف نايف صالح:

- أيّها "الدّولفين" الصّغير! تمهَّل إذن لصديقك الإنسان. أم إنك تفعل ذلك في التلفاز فقط؟

كان قلب الحيوان الصغير، يرتعش مثل عصفور رهيف، مُسك باليد، هاربًا من الوحش الذي خلفه، الوحش الذي يُلوِّح بيديه بينما يُطلق فقاعات غزيرة فوق رأسه، لأن نايف صالح راح يتنفس بسرعة جرّاء الجهد المبذول، وأسرع "الدولفين" ودخل من بين شجيرات بحرية متشابكة، لكنّ "الضفدع" المتمرّس، لم يثنه ذلك عن التَّقدم ببسالة لافتة، فقد دخل خلفه بكل قوة، وخرج أخضر، مليئًا بالطحالب والأعشاب المائية والعوالق التي أزعج قيلولتها، وصرخ به من جديد:

- هه! أيّها "الدولفين" الصّغير، إن الذي خلفك هو نايف، نايف صالح ولا أحد سواه، فاثبت مكانك الآن وقبِّل رأسي مثلما يفعلُ "الدلافين" الطيبون.

غير أن "الدولفين" المطارَد استرخى أخيرًا، وصرخ به من بعيد، صرخة إنسانية، خرجت إلى الماء على شكل فقاعة كبيرة من حلقه:

– قبّل مؤخرتي يا نايف صالح، أفضل لك.

وانتهت المطاردة أخيرًا على هذا الحال من طلب تقبيل المؤخرة، وتنفّس "الدّولفين" الصّغير الصّعداء، لأن شيئًا ما ضخمًا، كان لنايف صالح بالمرصاد، ما إن تجلّى حتى تبيّن أنه غواصة صغيرة تُضيء ضوءًا قويًا في وجهه، خرج إليه غواصان اثنان مدجّجان بالسلاح، قاداه إلى الدورية البحرية في خفر السواحل: "ماذا تفعل في المياه الإسرائيلية، خبيبي؟". أراد أن يصرخ في وجوههم؛ ماذا تقولون؟ إن هذه ليست بالمياه الإقليمية الإسرائيلية، إنها مياه عربية! لكنه فكَّر بأن ذلك لن يُجدي نفعًا في هذا الوقت بالذات؛فما زال طالبًا في الكلية العسكرية، وليرجئ كل شيء من تلك النّزّعات والثورات، إلى أن يُصبح قائدًا لهيئة الأركان المشتركة.

جرت عملية التنسيق وإعادته إلى فريق الغواصين المتدربين، همس له الضابط الإسرائيلي قبل أن يعود: "خبيبي.. أنت مخبول! لا يوجود "دلافين" في هذا الخليج!". وأوضح له إن ما كان يطارده، ما هو إلاّ سمكة فضيّة ضخمة بعض الشيء، وقد نمت على أنفها حدبة كبيرة.

كل هذه الأشجان والتّداعيات العاطفية، جعلته ينأى بنفسهِ في رحلته تلك، عن الشّاطئ الحزين، وانقلبت الأيام التّرفيهية كما هو المفروض، إلى وقت عصيبٍ مُقلق، وراح في غرفته في الفندق، يفترش الأرض ويستند إلى حافةِ السّرير، يفتح ويشرب في صحةِ الذكريات العسكرية

المقتحِمة، المزيد من الزجاجات الخضراء، ومن فرط سكرته وقع على وجهه، نام بعمقٍ فوق السّجادة إلى صباح اليوم التّالي.

استيقظ العقيد صباحًا وقد نام على سكرة، بعينين حمراوين ومنتفختين، وقد داهمه مفعول الكحول العكسي من الكآبة والتّعاسة، تلفّت حوله كحيوانٍ بائس مريض؛ أين أنا الآن، يا رب العباد؟ أين تلك الزوجة المحبة؟

يا لهشاشته في هذه اللحظة، لماذا لم يتزوج بعدها وينجب الكثير من الأولاد، ذكورًا وإناثًا، لو أنّ له ابنة صغيرة، شعرها طويل وكستنائي كشعرِ أمها، لكانت بين يديه، تمدّه بمزيد من الحنان والألفه! لو أنه أنجبَ ولدًا واحدًا فقط! ولدًا يعانده بجبينٍ مقطّب، يحمل نصف طموحه فقط، لكي لا يتعذّب في الحياة من بعدٍ أبيه، ولدًا بدأ يراهق الآن، صوته يتحشرج، يحاول أن يختلي في غرفةٍ بمفرده لكي يتحدث مع صديقاته همسًا على الهاتف.

لو- والمغفرة من اللّه- أن زوجته لم تمت، لو أرجأت ذهابها الأبدي إلى أن يأتي أجَلُه متزامنًا مع أجلها، فيأخذ بيدها ويمضيان معًا، إنه يحتاجها الآن أكثر بكثير من أي وقت مضى. ياه، لقد مرّ على وفاتها أكثر من عشر سنوات، لماذا وكأنها بالأمس فقط قد رحلت!

إن نايف بيك لم يعد بيك بعد الآن، تحوّلت النجوم فوق كتفيه إلى ثقوبٍ سوداء، انفجرت أخيرًا، ماتت وذوت في الفضاء. إنه الآن نايف صرفٌ، مثل أيّة قطعة أثاث من حوله، بل إنه وبشكلٍ أصدق، إحدى أرجل هذه القطع، رجل مكسورة ومهشّمة على أقل تقدير.

obeikan.com

وبعد عدة أيّام من عودته من العقبة، توجّه العقيد نايف الصالح إلى قيادة القوات المسلحة، قادته خطواته الواثقة نحو مكتب قائده السّابق، العميد الركن خالد جواد، ورغم وجود ثلاث نجمات وتاج لصقهن فوق كل كتف من كتفيه، إلا أن ذلك لم يثر في نفس نايفٍ بيك، العقيد المتقاعد، أي شعور بالخوف أو الرهبة كما هو الحال فيما مضى، دخل عليه وكأنما يدخل على حلبة للملاكمة، مُسرّحًا يديه الضخمتين، ليلوّحا على كل جانب مثل مجدافين، رافعًا رأسه إلى الأعلى ينظر من فوق أنفه إلى العميد الجالس خلف مكتبه. وقف أمامه متسمّرًا، وراح يحدّق فيه طويلاً، تلك التحديقات السابقة للكلام الخطير، كما لو كان سيوجه له شعاعًا قاتلاً من عينيه؛ ماذا يمكن له أن يشُبه هذا الرجل؟ إنه يشبه شيئًا ما أعرفه بالتأكيد! لكنه، وبسببٍ من فيض الغضب في صدره، لم يوفّق في الوصول إلى شيء ما. ودون تحية صباح أو ما شابه، قال بعد ذلك التّحديق:

- أرى أنك تنعم بمكتبٍ جميل، أيها العميل. أقصد أيها العميد.

obeikan.com

ضفدع يجلس مادًّا ساقيه

وضعت خرطوم النّرجيلة من يدي على الطاولة. لقد جلب إليّ التّشويش بعض الشيء، قلت بغضب، حاولت كتمه:

- هه! ومن قال - بحق الجحيم- إني أُريد أن أُظهر الحقيقة الواضحة كالشّمس.

تجاهل سؤالي المتعلق بإظهار الحقيقة الواضحة كالشّمس، كما لو أنّه لم يسمعه، وانهمك في بعثرةِ الأوراق هنا وهناك، رغم أنني عرفت فيما بعد، أنه يحفظها عن ظهر قلب، شكلاً ومضمونًا، كما لو كانت مُرتبة في خزائن ذاكرته. فتحَ صفحة مهترئة، بسطها على الطَّاولة أمامه، وبحركةٍ من يده ملّس ثنياتها، نظر فيها طويلاً متمتمًا بشفتيه، دسّ يده في جيبٍ معطفه من الداخل، أخرج قلمَ حبر جاف، نزع الغطاء بفمه وراح يشطِب بعض الجمل والسطور على الورقة، ويعدّل بعضها، ثم طواها وفتح أُخرى مكتوبا فيها بشكلٍ عشوائي، كرر كيّها بيده أيضًا، قرأ منها وكتب عليها بعض الكلمات، ثم طواها على الفور.

قال رجل؛ كان قد دخل وجلس إلى طاولة لاعبي النرد القريبة منا:

- الصندوق الأسود مرة أخرى سليم بيك! إيه، يبدو أنّ روح القتال ما زالت فيك.

ثم ضحك واهتزّت بطنه، سحب من خرطوم نرجيتله، وعاد ليتابع قذف حجري النرد، على طاولةِ الزهر، قبالة صديقيه.

هزّ العقيد رأسه مبتسمًا في وجهه، واكتفى بذلك الرّد، لكنه كان قد امتعض منه أشد امتعاض، شتمه فيما بيننا: "لما لا تُغلق فمك أيها الفقمة"؟ ثم قال لي: "ألا يشبهها؟ ألا يشبه الفقمة؟ لنقل ذكر الفقمة، أنظر إليه جيدًا".

كان وجه الرجل منتفخًا بشكلٍ ما، ومتّجهًا نحو الأمام أكثر ما يمكن من ناحية الأنف الأفطس والفم، وشفتاه في وضع الزّم دائمًا، وفوقهما عدة شعيرات طويلة لشارب غير منتظم. لم أستطع أن أمنع نفسي من الضحك، وضحك معي هو الآخر، وكأن ذلك ما كان يبحث عنه، انفراج أساريري وإبعاد التزمّت والجمود الواضح في وجهي. ثم قال لي:

- يبيعُ سراويل داخلية وجوارب على بسطةٍ في وسط البلد.

وعاد ينغمس بما كان يعمل به، ورحت ألقي نظرات سريعة وماسحة على قصاصات صغيرة، يخرجها من حوزته، ثم يُلقيها جانبًا دون أن يطويها، حتى إنّ بعض الأشياء، كانت مكتوبة على مناديل ورقية وعلب سجائر مبعوجة، وقطعًا من الجرائد أيضًا، ذاب الحبر عنها. تفحّص كل شيء تقريبًا بعناية وصبر، إلى أن أخرجَ أخيرًا، دفتر أجندة بغلاف قاسٍ أسود وأحمر وقال:

- هذا هو الجُزء المهم، بني، كل شيء مكتوبٌ هنا. فهذه قضيتي، ولن أتخلّى عنها، مهما حدث.

سحبت نفسًا من نرجيلتي:

- جيد أن كل شيء مكتوبٌ هنا، بالفعل رائع.

obeikan.com

- أجل رائع. ستجد على الهوامش، بعضًا من الجمل المفيدة عن الكأس نصف الملآنة بني، قد تُفيدك في عملك في الصحيفة، فمثلا؛ إن كأس اللبن نصف الملآنة، تختلف تمامًا عن كأس الماء. فاللبن قد يتخمّر في ظروف السخونة ويملأ النصف الآخر، أما الماء؛ فقد يتعفن وينتن، وقس على ذلك في كثير من الأمور، بني.

ولكنني سرعان ما قطعت عليه استرساله في نظرية الكأس نصف الملآنة، وأضفت بعد أن زفرت الدخان من فمي ومنخري:

- ولكن دعني أُخبرك بشيءٍ مهم، سليم بيك؛ أنا صحفي بسيط، أكتب بعض التحقيقات والمقالات عن أمورٍ اجتماعية وما إلى ذلك من المهاترات، لكنني لم أعد محاميًا بطبيعة الحال، كان ذلك فيما مضى، لو جئتَ إليّ قبل سنتين ربما، عندما كنتُ ذلك المحامي الأبله، لكنت ترافعتُ لك، على جثتي، في القضية.

نظرَ إليّ مرة أُخرى بتلك العينين، عيني "السلمون" المترقبتين تحت الماء، كانتا أعمق هذه المرة:

- أعرف أنك لست محاميًا.

- وإذن؟

- وإذن لن تترافع لي على جثتك. كل ما عليك فعله، هو أن تكتب بعض المقالات.

- مقالات؟

- بالتأكيد، دائما ما كنت أقرأ قصصك ومقالاتك في

obeikan.com

الجريدة، مقالات جيدة، أنا أحبها بالفعل.

- شكرا على الإطراء والمجاملة، سليم بيك، ثم إن مقالاتي لا تكتب على هذه الشاكلة، فأنا أختار ما أكتب، وليس غيري!

جمع كل شيء منثورًا على الطاولة أمامي ورتّبه، وضع القُصاصات وقطع الجرائد والصور والمناديل الورقية، والأوراق الأخرى داخل الدفتر الأسود، ودفعه أمامي بعناية، واقترب برأسه مني، ثم همس كأنما يطلعني على سر:

- لقد قرأت روايتك الأخيرة؛ والتي تدور حول عقيدٍ متقاعد من الجيش، كانت في غاية الرّوعة بني، لقد مسّت شيئًا ما فيّ داخلي، فلا يجب عليك أن تُفكر أنها محض مجاملة، لا، هذه حقيقة الأمر، أنا معجب جدا بك، وبلا شك ستُعجبك جدًا هذه المذكرات، بني.

رجع برأسه إلى الخلف وسألني، بثقة، متطلعًا إلى عينيّ:

- هل أنا على حق، ألم تكن رواية رائعة عن ذلك المتقاعد؟

هززت رأسي، ولم أجد لديّ الفضول الملح للإجابة عن سؤاله عن مدى روعة روايتي السّابقة، لكنه قد عاد إلى وشوشتي:

- هذه الأوراق، طينٌ خام لمقالات رائعة بني، وأنا لا أملي عليك ما تكتب، فلا مانع أن تُضيف لها بعضًا من آراءك. وإن كنت، وأنا لا أظنّك، ذلك الدُرّاج الكبير، العاجز عن الطيران بجناحيه، تخشى الكتابة السياسية، فأخبرني قبل كل شيء.

- لا، لستُ أخاف الكتابة السياسية.

- هذا جيد. جيد جدًا، فلماذا الخوف، إن أسوأ ما يحدث هو الموت، وإن كان سيحدث فعلاً، فسينزل عليك، أينما كنت، كسهمٍ محكم التصويب من السماء، ولا شيء سيمنعه من ذلك، بني.

ورفع يده وأنزلها، ليوضح لي، أثناء حديثه، كيفية هبوط السهم المسرع من الأعلى.

خيّم الصمت علينا، رشفت من فنجان القهوة، وسحبت من نرجيلتي نفسًا آخرَ طويلاً، لمعت الجمراتّ فوقها، نظرت بطرف عينيٍ إليه، دون أن أستدير برأسي، كان قد هدأ وجلس على الكرسي، سمينًا ومتهدلاً، تكاد رأسه الكبيرة أن تكون فوق كتفيه بلا رقبة، وسترته الكتانية الخضراء، تجعل منه تمساحا حزينا يجلسُ مادًّا ساقيه للأمام، على كرسيّ من خشب.

قلَّبت صفحات الدفتر الأسود بصمت، قرأت عدة جمل عاطفية مليئة بالغضب حيال بعض الأشخاص الذين أوردهم في المذكرات، ثم دفعته إليه، وقلت وأنا أنفخ دخان النرجيلة إلى الأعلى:

- دعك من هذا الهُراء سليم بيك.

- هُراء!

صاح في وجهي، خبط يده فوق الطّاولة، ثم التفتَ حوله، وقال بغضبٍ مكتوم وبصوتٍ خافت:

- هراء! أتقول بأنّ هذه الأشياء هراء؟

عضّ على شفته السُّفلى، وعيناه تكادان تدمعان، نظر إلى الدخان

المنساب من فمي بلا مبالاة، ثم ناحية الرجال في المقهى، عاد ونظر نحوي، شعر بإهمالي الأخرس الفظيع لكلّ هذه الأشياءِ القيّمة بالنسبة إليه، كما لو كانت مثل تلك الغيمة المليئة بـ"ثاني أُكسيد الكربون" والقاذورات التي نفختها للتو وبتلذذ إلى الهواء، ربما شعر بأنه كان يراهن على جواد "سلحفاوي"، بالكاد يرفع قوائمه ليركض، وشرع بلملمةِ كلّ شيءٍ منً أمامي، كما لو كان "إوزة" تستخدم جناحيها، وتلمّ صيصانها لتأخذهم على الفور إليها.

أدركت أنّي – على ما يبدو– قد تورطت وقلت للتو، شيئًا لم يتوجب عليّ قوله. أمسكت يده، كانت كلحاءِ شجرة صنوبر، وضغطتُ عليها:

– أعتذر منك سليم بيك، لم أقصدً قول ذلك، لكن دعني أقرأها وأنظر في الأمر.

لم يقلً شيئًا، لكنّ روعه قد هدأ واستكان، أمسك فنجانه ورشف من قهوته ببطء كمن رضخ أخيرًا لقسوة القدر الحتمية.

أكمل زياد – صبي المقهى– قلب الكراسي فوق الطاولات، بقيَ سليم بيك مُرتخيًا فوق كرسيه، ينظرُ شاردًا باتّجاهِ ما، السّاعة البيضاء على جدار المقهى أصبحت بُنية اللون، الأبخرةً والغبار المتراكم فوقها، جعلاها دبقة وصفراء، الوقت كذلك دبق. حاول زياد أن يأخذ فنجان القهوة الذي فرغ أمامه بهدوء، لكنّه أمسك يده لكي يدعه، فسليم بيك، على ما يبدو، يشرب الثّمالة أيضًا.

استمر كلانا بالصمت، كانت جميع الأصوات المحيطة بنا؛ أصوات السيارات في الشَّارع الخارجي؛ "أم كلثوم"؛ ضرب أحجار النّرد فوق

obeikan.com

الخَشب؛ بقبقات النّراجيل المتتالية والرّتيبة، والصرخات القادمة من جوفه، الجوف الذي كان يتمزَّق بهدوء، جوف "السلمون" وهو يبلع الطُعم، يبلعه بألم بالغ، جميعها كانت تصلُ إلينا وترتدّ، كما لو كانت تصطدم بدرعٍ شفَّافٍ من حولنا.

obeikan.com

obeikan.com

العقيد يبصق مرتين

وقفَ العميد وقد اعتراه الذّهول مما قاله ضيفه للتو، ترك رزمة الأوراق التي كان يقرأها ويمضي عليها، لكنه مدّ يده ببرود، ليصافح نايف بيك:

– أهلاً بك أيها العقيد، سُررت بمجيئك.

وأبقى العقيد يده مسدولة إلى جانبه، وقال:

– أنا لم أُسر، ولا داعي لتلويث يدي. لكن اسمح لي ألا أُلقي بالاً إلى رتبتك هذا اليوم، لأنني سأبصق كلمتين في أذنك وأخرج.

امتلأ العميد بالغضب، لكنه تمالك نفسه بما فيه الكفاية، مراعيًا أن زائره يمرّ بمرحلة عصيبة إثر إنهاء خدماته مؤخرًا، وطلب منه أن يقول، مختصرًا وعلى عجل، ما جاء من أجله. قال العقيد:

– إنّك منذ اللحظة الأولى لنجاحاتي وتميّزي، وسطوع نجمي، وأنت تراقبني وتتربّص بي، أنا أعلم ذلك.

ونظر إليه العميد خالد جواد بغرابة، بعد أن جلس ووضع ساقًا على ساق، وطلب إليه أن يجلس ويتحدّث بدلاً من الاستمرار في الوقوف كأيّ شخص غريب، لكن نايف صالح أردف، بالنبرة الهادئة ذاتها:

– لا، لا عليك، لن أجلس، لأنّه يتحتّم علي أن أبقى واقفًا في مثل هذه المواقف، لكي أتمكّن من شتمك وصفعك على قفاك.

obeikan.com

ولأن خالد بيك ما زال ينظر إليه ببرود المستغرِب، أردف نايف صالح وهو يتقدّم إليه:

- هل تعتقد بأنّي لا أعلم أيّ شيء عن تلك الصّفقات التي تجريها من تحت المكتب أيّها الخنزير؟

أصيب العميد بالذهول الصامت، وهو يُتابع ما يقوله العقيد نايف صالح:

- وهل تعتقد بأنّي لا أعلم تلك الصّلات التي تجمعك - أنت وقوادك- بسارقي "الدلافين" المائية، إنّك دمية قميئة يا رجل، دمية يحركونها بتلك الخيوط في الأعلى.

وحرك يديه، منفعلاً، ليريه كيفية تحريك الخيوط من الأعلى، ونزّ العرق من جبهة خالدبيك، وملأت الضوضاءُ رأسه، لأجل أن مشاريع يومه التي خطّط لإنجازها منذ الصباح، قد تبوء بالفشل بسبب هذا الضّيف الذي لا يدري ما يقول. وراح العقيد يكمل حديثه:

- اسمع أيّها النّذل الحقير، مثلما قلت لك قبل قليل، لقد تربَّصت بي، أرسلت عيونك إلى صالوناتي السياسية، وكتبت عنّي الكثير من التقارير بخطك الأنيق!

وتساءل العميد بغضب، عن هذا الهُراء الذي يتحدث عنه نايف بيك بفم ملآن، وما إن كان قد جُنّ أم لا؟ وما هذه التقارير التي يتحدّث عنها؟ وهمس نايف صالح بكل ثقة:

- التقارير أيّها العميد؟ ألا تعرف ما هي التقارير؟ كل ما كنتُ

أقوله في صالوناتي، أو حتى أهمسُ لك به، كصديقٍ مخدوع، من طموح وهواجس تُقلقني، كان يذهب على شكلِ تقارير فوريةٍ ومضخّمة إلى القيادة، أليس كذلك؟

وقال خالد بيك بضحكةٍ خفيفة:

– أنا من فعل ذلك؟ من قال لك؟ إنك تشتمني وتتهمني جزافًا أيها العقيد، ثم إنني–

وضحك نايف صالح أيضًا، وقد قاطعه على الفور:

– أنت تقول لي نكتة موفَّقة أيّها الجنرال؛ جزافًا؟ ومن ثم تسأل ببراءةٍ عن مدى صحة هذه الأقوال! هذا جميل جدًا أيّها الخنزير المتعفن.

وصرخ دفعة واحدة:

– نعم، أنت من فعل ذلك، وبكل دناءة.

– إنّك في مكتبي وتتجاوز حدود اللياقة نايف بيك!

– حدود اللياقة؟ حدود؟ لقد نسيت هذه الكلمة يا صديقي! سأتجاوز كل شيء.

وأردف الأخير، وهو يتمشّى في المكتب جيئة وذهابًا، يُلوّح بيديه المنفعلتين، المجذافين،وقد تحوّلتا بسبب ذراعيه الطويلتين، إلى منجنيقين:

– لقد كنتَ عدوًا حقيقيًا لنجاحاتي أيّها الوغد، ليس لنجاحاتي

وحسب، بل عدوًا خسيسًا، خائنًا لشعبك وأمّتك، من أولئك الذي يختبئون في الجُحور الرطبة-

وأشار بيديه ليُبيّن كيفية الاختباء والاندساس في مثل هذه الجحور، وأكمل:

- ومن هناك؛ من فوهة تلك الجحور، وعندما تسنح الفرصة، يُباغتون الشّخص بلدغةٍ سريعة!

وأُسقط في يد خالدبيك بسببٍ من هذه الورطة في بداية نهار بائس كما يظهر، وفكَّر في كيفية التعاطي مع هذا الزميل القديم، المشحون بما لا يحمد عُقباه، وقد لفظه الصباح إليه دونما سابق إنذار، بينما العقيد، كان منهمكًا بإكمال حديثه:

- لكنك، وفي تلك الجحور، ستؤول إلى فأرٍ حقيقي في نهاية المطاف، فأرٍ حقيقي تصطاده العُقبان آكلة السمك، أيّها الجنرال.

وزمّ العقيد شفتيه بانفعال، ومطّ فمه المزموم ووضع إصبعيه السّبابة على رأسه كأذنيين ليريه كيف هو شكل الفأر الحقيقي، ثم تذكّر بشكل سريع الشيء الذي لم يتذكره قبل قليل، إنّه يشبه الفأر الأمريكي ذا الرأس الكبيرة. ومن ثم لوَّح بإصبعه في وجه العميد:

- وهل تعلم ما أنا فاعلٌ بك، أيّها الفأر الحقيقي، هل لديك أدنى فكرة أم أنّك تُخمّن الآن؟

لكنّ العميد، كان قد عاد إلى كرسيه برباطة جأش، محاولاً - قدر استطاعته- أن يُعيد الأمور إلى نصابها، أو يطلب تدخلاً من خارج

obeikan.com

المكتب، ليس لأنّه لا حول له ولا قوة، وإنّما بسبب الوضع المحزن للعقيد نايف؛ رفيق السلاح القديم، وقد ظن للحظة أنّه قد فقد عقله، وأردف العقيد موضحًا ما الذي ينوي عمله:

- ها أنذا، سأبدأ بتجاوز تلك الحدود الآن فقط، وأردّ لك الجميل بكلّ تأكيد.

ومن مكانه تفجّر آخر الأمر - ليس بشعاع مستقيم قاتل- وإنّما قذف بصقة محترمة، ضغطها بكميةِ هواءٍ كافيةً من شدقيه لتصل كلّ تلك المسافة إلى وجه خالدبيك، وقبل أن يخرج الأخير من خلف مكتبه إليه؛ كان العقيد، قد اختصر عليه المسافة، وجذبه من ياقته بشدة، ووجه البصقة الثانية، لأن واحدة لا تكفي لتفريغ كلّ تلك الأحقاد الدفينة، وتوزّعت فوق وجه العميد بشكلٍ أفضل من الأولى، وانقضّ عليه مثل ثورٍ هائج تملّكه الغضب، وبعد ذلك العراك الفظيع وتبادل اللكمات؛ وجد نايف صالح الصالح نفسه محبوسًا في سجنٍ خاص، في مخفر الشرطة العسكرية.

obeikan.com

المساس بأمن الدولة

فكّرت وأنا أجلس الآن - في ساعة متأخرة من الليل- برفقة غريب أطوار؛ أجزم أنني أعرفه، لكنني لا أدري كيف اهتدى إليّ، وسأل النّادل عنّي بينما هذه هي المرة الأولى لي في المقهى! وها هو يطفح - كما يبدو من حواراته وأوراقه ودفتر المذكّرات- بالمسوّغات اللازمة للبدء في أخذ الأمور على محمل الجد، ما كان بوسعي إنكار نظرية الصدفة، وأنّ الفرصة قد أتت إليّ الآن، زحفًا على قوائمها الأربعة، ومتوسّلة كما لو كانت مذعنة تمامًا إليّ، فأنا - ومنذ أن خضت غمار العمل في الصحيفة- منهمكٌ بالبحث عن مادةٍ تُلبّي طموحي وطموح متابعيني من القرّاء.

لطالما فكّرت أن الأمور لا توضع في نصابها بالشّكل الصحيح دون قلم يعمل كأداة لمحاربة قوى الشّر والظلال، وهذه الأداة ما هي إلاّ السَّلاح بشكلٍ أو بآخر، وفكّرت بأنّ كوني محاميًا - في السابق- يُدافع بشراسةٍ عن المظلومين، ربما لا يفيد أكثر من كوني صحفيًا الآن، أدافع عن المَظلمات ضمن إطار أوسع وأعمّ، وخطر ببالي أنّ المحاماة والصحافة، وجهان لعملة واحدة، لا يعدو الفرق في مجمله أكثر من اختلافٍ واضح في النهج وآليات المرافعة وأدوات السلاح، فالصحافة تُعنى بقضايا شعوب أو مجتمعات بأكملها، وليس أفرادًا يأتون إلى مكتب المحاماة ببعض الإغراءات المالية، وفكّرت على نحوٍ ما أنني ما زلت لغاية الآن ذلك المحامي الجيّد، فما الذي يمنع أن أترافع بين

الحين والآخر بقضايا محدّدة؟ وفكّرت أيضًا بصديقي الضابط الذي يسكن في الدور الأسفل منّي في البناية، فلقد طلب منّي، مؤخرًا، أن أترافع له في قضيةٍ تخصه، وقد تحمّست لها بشكلٍ منقطع النّظير، حتى أنني وافقت علىً ذلك، معتبرًا أنّها مرافعة طارئةً لأحد الأصدقاء، وبدأت الأمور تسير على نحوٍ جيد، وغدًا بالتّحديد سنذهب إلى جلسةٍ أُخرى في العاشرة والنصفً صباحًا، سنقف أمام القاضي، نسرد له حججنا ضد شخصٍ مجهولٍ ومبهم، ثم نعود في جلسة أخرى، وهكذا دواليك، إلى أن يبتً في القضية. المحاماة شيء رائع، ميدان الشرفاء في حقيقة الأمر.

وها هو أحدهم يأتي إليّ صدفة في آخر الليل، يسأل عنّي صبي المقهى، فيبدو أنّه قد قارن بين صوري في الصحف والمجلات، لا سيما بأنني دائمًا وأبدًا أتقلّد الحقيبة الجلدية البنية، وبين وجهي الآن في المقهى، وقد بدأتُ أتثاءب بكسلٍ ملحوظ، ثم راح يخبرني عن رأيه في روايتي حول ذلك المتقاعد العسكري، ولا أدري كيف استطاع قراءتها،وأخذ يُمرّر لي بعض المذكرات والمعلومات المتعلقة به، متضرعا من قرارةِ نفسه أن أشرع بكتابة بعض المقالات والتحقيقات ونشرها بأسرع وقتٍ ممكن، لقد بدأ يختنق ويتبدد، وأوشكت الأمطار العاتية، أن تتشكل فًي جداول متلاطمة وعنيفة، وقد تجرفه معها دون رحمةٍ تذكر.

وأنا، كما هي العادة، منذ أن كنت ذلك المحامي الأبله بعينه، لا أحتمل تقريع نفسي ولومها إن أنا رفضت ذلك، والآن بالتّحديد، قد اعتلتني موجة من الإقدام الذي لا رجعة عنه.

رشفت من فنجان القهوة، وأخذتُ نفسًا طويلاً من نرجيلتي، خرج الدخان على شكل غيمة بيضاء كثيفة، ورحت أُقلب صفحات الصندوق الأسود، وأقرأ منه بتركيز عال، وبعد برهة أغلقته وسألت سليم بيك:

– لماذا تريدني إذن أن أنشر مذكراتك وأوراقك؟ لماذا لا تنشرها أنت بنفسك؟

– أكتب أنا؟ أنا ميت كما ترى، ثم إنني لا أجيد الكتابة مثلما تفعل أنت!

أخذ رشفة من القهوة، وأكمل، ملوّحًا بيده:

– ثم إنني لا أرغب أن يكون الأمر شخصيًا، لنقل إنني أريد أن يرى العالم حجم المأساة البشعة التي مررت بها، وكيف آلت الأمور بي، وبغيري، إلى هذا النحو، دون أن يُعرف من أنا، بطبيعة الحال.

– قال لي صبي المقهى أنك الأمين العام للحزب، لكنه لم يخبرني أي حزب؛ لماذا يقولون عنك ذلك؟

– لأنني الأمين العام للحزب. لكن كما قلت لك، كان من المفروض به أن يدشّن اليوم، لكن الأنذال تآمروا عليه. فأنا، ومع بعض الرّفاق المخلصين من المتقاعدين العسكريين،كذلك العقيد المتقاعد الذي كتبتَ عنه في روايتك، فأنا أعرفه تمام المعرفة، لأنه يأتي إلى هذا المقهى من وقت لآخر، وقد أتى ليلة الأمس فقط، برفقة رجلٍ غامض، جميعنا نعملً على تشكيلِ حزبٍ سياسي، نحاول أن نصلَ إلى تشكيل الحكومة في أقرب وقت، وهذا ليس بالهدف المبتغى بحد ذاته، إنما هذه الحكومة الحالية فاسدة بشكلٍ لا يمكنك تصوره، حبة طماطم

obeikan.com

متعفنة ومبعوجة-

وصنع كرة صغيرة بيده ليوضح لي ما يقول، وأكمل:

- أنـت تعرف شكل حبة الطماطم حينما تتعفن، يعلوها طبقة بيضاء مخضرة ورمادية، تخرج لها رائحة، ويطير من حولها "الهسهس". هذه الحكومة المتعفنة، تداري رائحتها المنتنة عن النّاس بالتزييف الإعلامي، لكن ليس لها أيّ شأن في إدارة البلاد، بدليلِ أنها تتهاوى. هؤلاء لصوص، بني، لصوص في ثياب أنيقة ومحتفى بهم.

- يجب ألاّ يحتفى باللصوص.

- أجل، هذا هو الأساس، ثم ما الذي يمنع من تشكيلنا للحكومة والبدء بخدمة أمتنا وشعبنا على أكمل وجه؟ إننا نتمتع بثقل جيد، وعلى درجة عالية من الكفاءة والمسؤولية، وماذا تعتقد غير ذلك؟ الضبط والربط وروح الإقدام، من أساس العمل الحزبي، ولا ينقصنا شيء من هذا كما تعلم.

- أجل الضبط والربط.

- وإن كانوا قد استغنوا عن خدماتنا، واعتقدوا أننا ذهبنا أدراج الرياح كحفنةِ غبار، فإننا قادرين على استعادة هيبتنا بشكلٍ لا بأس فيه، ليس فيناَ كؤوس فارغة أو نصف ممتلئة، بني. بوسعناً أن نتكاتف في فيلقٍ واحد، فيلق المنضبطين والمنربطين والعاملين بجد، ثم نصفع الحكومة على قفاها، بيدٍ واحدة، ملقنينها بذلك درسًا، لن تنساه بإذن الله.

obeikan.com

– أجل يجب على الحكومة، ألا تنسى الصفعات على القفا.

– بالتأكيد، وحتى لو حاولت غضّ الطرف عن تلك الصفعات، والتظاهر بالقوة والكبرياء وبأن شيئًا لم ينخسها في مؤخرتها، فإنه يتوجب علينا أن نواصل الحزّ برقبتها ما دمنا أحياء، حتى نطيحُ بها أرضًا. فهذه الحكومة المعيّنة بغير انتخاب، مثال لسوء الإدارة المستشري، كالبرص، في جسد الدولة، بني.

– جيد أنك تؤمن بذلك.

أخذ خرطوم النرجيلة مني، سحب منه نفسًا طويلاً، ثم أطلق زفرة دخان إلى الأعلى، وقال:

– لا أؤمن وحسب، إنما أمارس إيماني بشكلٍ عملي، فأنا لا أجلس كالمغلوب على أمره، منزويًا داخل قوقعتي، صامتًا أو باكيًا كالنساء الحزينات، وهن دائما حزينات بطبيعة الحال، لكنني أقدم بكل ما أوتيت من قوة، مزيحًا الحمل الثقيل عن عاتق المواطنين جراء خضوعهم، من حيث لا يرغبون أبدًا، لأمر هذه الحكومة، التي لا تتوانى عن مصّ دمائهم بينما تحقنهم بالإبر المخدرة.

– هذا أسوأ ما يمكن، مص الدماء،والحقن بالإبر المخدرة.

– ليس تمامًا، إنما هناك ما هو أسوأ منه، بني؛ الوهم المتغلغل في أدمغة البعض، بأن هذا الحال هو أفضل ما يمكن، لأن الدعاية الإعلامية، التي هي كملطف الجو، تزيل رائحة العفن الكريهة، وتظهر الحكومة في موقف المتصدي العظيم للفاسدين والأوغاد، والذين هم في الأساس، عبارة عن نتاج فقس البيوض في حاضنة هذه الحكومة،

بطبيعة الحال بني.

– أجل، أؤيدك فيما تقول. البيضة من الدجاجة، والدجاجة من البيضة. لا شك في ذلك أبدا.

والتفت برأسه، نظر إلى ناحية الرجال الثلاثة على الطاولة القريبة منا، ثم قال مشيرًا بعينيه إليهم:

– أنظر إلى ذكر الفقمة، لقد أنهوا خدماته وهو شابٌّ يافع برتبةِ رائد، ثم ها هو يبيع السراويل الداخلية الرجالية أمام الجامع الحسيني، وأظن أنه يدرس مشروع حمّالات الصدر ناحية مدخل النساء. وذلك الذي إلى جوارِه ناحية اليمين، المقدّم علي بيك، لا يعرف شيئًا منذ التقاعد غير تاكسي الأجرة الذي يعمل عليه، وطاولة الزهر التي أمامه، وبماذا يتحدث بني، إنه كالدّمية لا يتحدث، فهو مصاب بالذهول منذ ذلك اليوم، ولا يتفوه بكلمات أكثر من "شيش بيش.. ويك ودو...".

وبدا أنّ هذا الرجل، لا يتوقّف أبدا عن التّحدث،"ماسورة" كلام وانكسرت في وجهي، والأفكار تتداعى له، كما لو كانت تملأ رأسه حدّ الطفح، وبعد لحظةِ صمت، قال:

– وما هو المخرج المناسب للدولة – في حال قرر أحدهم أن يقول شيئًا حيال هذه الأمور وغيرها؟ إنه المساس بأمن الدولة، وكأن الدولة امرأة ليلٍ عاهرة، وأنت، بكلامك، تمّسها على مؤخرتها بينما هي تدّعي الشّرفً.

– بالتأكيد، لا يجب أن تؤخذ الأمور على هذا النحو. إن الشرف

لا يمكث في المؤخرات.

ضحك فجأة متطلعًا إلى عينيّ، ثم قال بعد أن عادت قسماته إلى الجمود، مرة أخرى:

- اسمح لي أن أقول لك بأنها تؤخذ على هذا النّحو بني، وعلى نحوٍ أشدّ فظاعة منه.

obeikan.com

obeikan.com

لوحة الكلاج العملاقة

فوق الأريكة في غرفة الجلوس المعتمة في شقته؛ وجدها العقيد، فرصة سانحة لتأمل الحال والخلوة إلى النّفس وماذا عليه أن يفعل، وكيف يتصرَّف حيال ما آلتِ إليه الأمور مؤخرًا، لا سيما بأنّ علبة الدواء تلك، أقراص المهدّئ، ليست بحوزته الآن، وعليه أن يوجّه تفكيره نحو الأفضل، بدلاً من الغرق في متاهات الأفكار السّلبية وما ينحو نحوها.

وفكّر مليًا بما قاله أمين المرزوق في ذلك الصباح، وتساءل في نفسه عن مكان وجود السيف الذي عليه أن يستلّه، وإن كان عليه أن يستله فعلاً أم يغضّ الطرف عن ذلك؟ مقتنعًا بما وصل إليه الحال كغيره من المتقاعدين العسكريين، ويمضي الحياة على هذا النّسق إلى أن يتوفاه الله، لكن الحلّ الأخير المتخاذل لم يرق له إطلاقًا، ولم يستطع، على أي وجه من الأوجه، أن يتخيّل هيئته، وهو جاثم فوق الأريكة في البيت، يرتدي منامة مخططة بالأبيض والأسود، يُدخّن ويتابع التلفاز كأي شيء جامد من حوله، ومرد ذلك إلى عقله اللاواعي، وليس لأي شيء آخر، إن السلطة والنفوذ وإصدار الأوامر، وإن كانت محدودة إبّان حياة الجيش والكتيبة الخامسة، قد ترسبت، كما تترسب طبقات الجير عبر العصور، في ذلك اللاوعي بشكلٍ متين وقوي على مدى السّنين المنصرمة، إنها الآن صخور صلدة لا تخلخل فيها، أنا عُليا من الضخامةِ بمكان.

وفكر من جديد بأشياءٍ من شأن القيام بها أن يُعيد إلى تلك الأنا،

شيئًا من الطموح والأحلام التي انهارت قبل أن تُبنى في الأصل.

لقد أكد أمين المرزوق بأنه شاهد، بأم عينه، زغبًا يكبر فوق أجنحته، إن ذلك لا يحتمل إلاً معنى واحدًا؛ الطيران الوشيك.

وعلى نحو تلقائي، وجد نفسه عسكريًا يرتدي تلك البزة المرصّعة بالأوسمة والنياشين والرّتب على كتفيه، وفوق جبهته القبعة ذات الشعار، يمضي في أروقة وساحات الكتيبة الخامسة، وما أن يشاهده الضباط والجنود، يتوقفون على فورهم، ويضربون التحية الصامتة للعقيد.

وأثناء ذلك الشرود، لمعت عينا نايف صالح، هبط الإلهام عليه فاردًا جناحيه على هيئة عصفور صغير أزرق وحلقة بيضاء شفّافة ومضيئة فوق رأسه، وسقسق هامسًا في أذنه بأن الانتخابات البرلمانية قد اقتربت، وأن ترشيح نفسه كنائبٍ عن منطقته، من شأنه أن يُعيد شيئًا من تلك الهيبة والوقار اللذين تبخرا مؤخرًا، لا سيما، وأن الحال قد يصل به عقب ذلك إلى أبعد من هذا بكثير، فلا يليق به غير أن يكون وزيرًا في الحكومة، أو عينًا من الأعيان، ومن بعد ذلك يتدبر أموره وعلاقاته مع الأشخاص المهمين، ككبار مسؤولي الديوان الملكي، أو كبار الضباط في جهاز المخابرات، لكي يرسو به المطاف أخيرا إلى دولة رئيس وزراء أفخم، لا أحد يدري أو يتكهّن بالأمر، وما الذي ينقصه حيال ذلك، إن وجهه العسكري المستطيل، قالب "الكاتو"، بذلك الأنف المحمر فوقه، حبة "الكرز" الضخمة، حريّ بالمثول أمام الكاميرات وشاشات التلفزة المختلفة، إنه من أجدر الناس على تولي

هكذا مناصب، إن نجاحاته ستتوالى من هذه اللحظة فصاعدًا، حنكته أيضًا ورأيه السديد، أبدًا لا يستحقان أقل من ذلك التقدير.

ولم يخامره أدنى شك، لاعتداده القوي والمتين في نفسه، بمدى مصداقية ذلك، وعلى هذه الهواجس والتّداعيات، نفضَ رأسه، لهذه الفكرة التي سقطت فوقه مثل ريشةٍ خفيفة، لكنها مُلهمة بأقصى ما يكون الإلهام.

حمل العقيد، طائر السّعد الصَّغير الذي زوده بهذه الأفكار، برفقٍ بين يديه، وقبّله قبلة حنونة على جناحيه الناعمين، وطيّره بعدٍ ذلك من النّافذة وهو يتطلع منها، ليحمل هذا الإلهام بدوره، أفكارًا أُخرى لكل أولئك المتقاعدين الثائرين، المنهمكين بالتفكير طيلة الليل بقضايا الكرامة الملحة، والبحث المستمر عن النفس في حياة مدنية جديدة. وصرخ بأعلى صوته:

– لم لا؟ فالمجد لك يا نايف الصالح!

وعاد إلى التفكير من جديد، فمن منصبه القادم، سيوجه البصقة تلو الأخرى لأولئك المتربّصين به، وبالتحديد، خالدبيك، إنه من جملة الأشخاص الذي يبرعون بتسلّق الظهور والأكتاف، إنهم لا يرون في أكتاف الناس أكثر من مجرد درجات للسلالم، ظهور على هيئة سلالم، ومن ثمّ، وبأبشع أنواع النذالة والخسة، لا يكتفون بالدّوس عليها، إنما يوجّهون طعنات قوية من الخلف لهذه الظهور الخيّرة المعطاءة، إن ظهر العقيد نايف الصالح، على ضآلته، واحدٌ من جملة هذه الظهور المتسلسمة، ولقد داسه خالدبيك في طريق تسلقه أكثر من مرة لكي

يصعد إلى الأعلى، لذلك سيعمل على الإطاحة به إلى أبشع مراتب الدونية التي يستحقها بجدارة، وتلقينه بعض الدروس الجيدة في القيم والأخلاق، والعصامية في تسلّق سلم المناصب، بطبيعة الحال.

وابتسم العقيد المتقاعد، بينه وبين نفسه، واثقًا ومطمئنًا لهذه التّجليات التي لا تخطر إلا لعبقريّ وقياديّ مثله، لكنه نفض رأسه ممتعضًا، موبّخًا روحه الإنتقامية، كيف عثرت به في مزلق آخر؟ جعلته، كأي سنجابٍ لعينٍ، يُفكّر أولاً بأحقاده الشخصية قبلً تلك الهموم الإنسانية الجسيمةً؛ المتعلقة بأبناءِ شعبه الطيبين، والتي ما فتأت تحزُّ قلبه الواهن، زيادة على ما فيه من أحزان.

قطّب العقيد جبينه وفكّر من جديد، ومن منصبه القادم، كنائبٍ قدير في البرلمان، سيقضي على ظاهرة البطالة المتفشّية بين الشّبان، سيحسّن من الوضع الإقتصادي للبلد، سيُنشئ التحالفات والكتل، سيخطب مزيدًا من الخطابات الملتهبة بشأن الأحوال المتردية، وما آلت إليه الأوضاع من جديد، سيعمل على تنفيذ جملة من هذه السينات المستقبلية، ولن ينسى بطبيعة الحال، سارقي "الدلافين" المائية، الذين أخفوا عنه ذلك "الدولفين" الصّغير أيضًا، إن تلك الكذبة حول السمكة الفضية ذات الحدبة في أنفها، لم تنطلِ عليه، ولن تنطلِ يومًا، وحتما سيتطرق بالتفصيل لكل القضايا التي طالما تناولها بإسهابٍ في صالوناته السياسية، وما إلى ذلك من هواجس ما فتئت تُؤرقه، وتجعل من نومه الهادئ جحيمًا لا يحتمل.

جرتِ الأمور على هذا النّسق، وفكّر العقيد، مليًا، وقرر بأنه سيوكل

openkan.com

إلـى صديقه، والـذي أشعل شرارة الفكرة من قبل، رئاسةَ المهمة، مهمة الترتيب الجيد للحملة الانتخابية، وبناء خيمة المقر وتجهيزها بالمعدات اللازمة، وطباعة الملصقات والمنشورات الدعائية ولصقها باحكام فـوق جـذوع الأشـجـار،وأعـمـدة الكهرباء والـهاتف وأسـوار المدارسً والمؤسسات الرسمية وأبـواب البيوت والمحال ولوحات الإعلانات وشواخص المرور وما إلى ذلك من الأماكن التي ستؤول في نهاية الأمر، إلى لوحةِ كلاج كبيرة.

obeikan.com

العقيد يمسح العرَق عن خطم البغل

حزم العقيد أمره وأمتعته أيضًا، وأخذ صديقه المعلم أمين المرزوق، والذي توافق أن كان مجازًا في العطلة الصيفية للمدرسة، وطالما لا زوجة لديه أو أطفال، وبدلاً من أن يقضي الإجازة متسكّعًا مع زملائه المعلمين وطلبته في صالات "البليياردو" والمقاهي، وجدها فرصة مواتية ليأخذ تلك الإجازة في نزهة مع نايف بيك، وذهبا على جناح الريح إلى بلدة الأخير في الجنوب، وكانت تلك هي الزيارة الثالثة للعقيد بعد أن خرج منها قبل أكثر من خمسة وعشرين عامًا، كانت الأولى عندما ذهب، ليشارك في دفن وتقبّل التعازي في والدته التي قضتِ إلى ربّها، والثانية لتقبل التعازي بوفاة والده أيضًا، بعد سنة واحدة من وفاة الأم.

عندما وصلا إلى البلدة، كان البؤس ما زال يجثم هناك، ولأن هذا البؤس هو أحد الأركان المهمة في تلك الدائرة، فقد كانت ما تزال تدور هناك أيضًا. كل شيء تقريبا مثلما رحل عنه، كانت الأشجار تستمني، تبخ هبّات من غبار الطلع المخضر، فهذه الأشجار الحرجية في الأحراش الصغيرة المنتشرة على بعض التلال المحيطة بالقرية قد تناقصت بفعل القطع المتكرر واستخدام أخشابها في التدفئة، لذلك تحاول جاهدة - بفطرتها الأزلية- أن تواصل التّلقيح وتعويض ذلك النقص في أعدادها. ولا زالت أشجار "الحور" الباسقة على أطراف الأودية، كما هي، غير أن جذوعها تضخّمت وهرمت أكثر، ومات بعضها

لجفاف عيون الماء من حولها.

ولا زالت البيوت المنتشرة هنا وهناك، تحمل دائمًا فوق ظُهورها أعمدة من الأسمنت، لم يكتمل البناء عليها بعد، بانتظار الفرج ليكتمل الطابق الثاني لأحد الأبناء ليتزوج ويسكن فيه.

الطُرقات تمامًا كما هي منذ أمد بعيد، مليئة بالحفر والنتوءات، وفي الربيع تنبتُ فيها الأعشاب والشّجيرات أيّنما اتّفق، غير معبّدة في كثير من النواحي، وتعبرها الأفاعي، بشكلٍ جانبي، في قيض الظهيرة المحرق.

الأطفال يلعبون بالملاعب الترابية، مثل زواحف نشيطة ومغبرة، حفاة أو تطير أحذيتهم المتوارثة، مع كل ركلة للكرة المفشوشة، وبنصف ثياب في أغلب الأحيان. وما زالوا، أثناء حصص التربية الفنية، لا يرسمون الأحلام، ولا أيّ شيء آخر، حتّى أنّهم لم يتعرّفوا إلى الألوان بعد، إنّما يخرجون كالخراف، نحو الأعشاب المنتشرة في كنفات المدرسة.

ولأنّ الألفة من عدم الكلفة، ولكي يزيل العقيد نايف هذه الكلفة ويكون بذلك أقرب ما يمكن من الأهالي والقرويين، ارتدى ثوبًا أبيض، وكوفية حمراء على رأسه، وصرف الزّي ذاته لمرافقه المعلم أمين المرزوق الذي بدا فيه - لشدةِ نحول كتفيه- كثوبٍ مُعلّق على مشجبين.

وهو الشخص البارع بهذا الشأن، إذ طالما نجح به إبان الكتيبة الخامسة، فلم يكن جنودُه يشعرون بالفوقية من قبل هذا العقيد الرائع بالنسبة لهم، فكانت الرّتب فوق كتفيه تتساوى وتتماهى مع رتب كل

obeikan.com

الجنود والضّباط الأصغر، واعتاد عندما ينزل إلى الميدان لكي يجتمع بهم، أن يربت مبتسمًا على ظهورهم وأكتافهم، وأفخاذهم إن كانوا في وضعية الجلوس من حوله، وقد يُخبرهم ببعض النكات المضحكة، وغالبا ما تكون نكاتًا من النوع الذي يصلح للكبار فقط، ولا ضير لو أضاف أحدهم نكتة أخرى من الطراز ذاته، ولم يكن ذلك، وهو ما يبدو لهم، نوعًا من التّواضع، الذي هو غير موجود عند القادة في الأساس، إنما كان نكهة أخرى من السّلطة، نكهة حاذقة لذيذة ومبطنة ضمن الأطعمة، لا يستلذ بتذوقها إلاّ المحترفين فيها.

وراحا منذ اليوم الاول، يتجوّلان في الحقول والبساتين، يستنشقان الهواء العليل، ويُلقيان التحية على الفلاحين وهم يحرثون الأرض بالمحاريث التي تجرُّها الدواب، وراحا يشربان الشاي المغلي على النار في الهواءِ الطلق مع زمرة منهم، ولم يُبدِ أيّ منهما امتعاضا لأجل أن الأكواب كانت متّسخة ودبقة، بل على العكس من ذلك، شرب العقيد وصديقه رغمًا عنهما، كوبين من الشاي الساخن، وهما يبتسمان ويمدحان جودته، فقد قال العقيد رافعا الكوب الزجاجي بيده وناظرا إليه يترقرق تحت ضوء الشمس:

– ياه، منذ مدة لم أتذوق مثل هذا الشاي.

ووجد الصديق أمين نفسه مضطرا لإبداء رأيه أيضا، فقال:

– صدقت نايف بيك، إنه من نوعية الشاي–

وقاطعه قائلا:

- المغموس بالمحبة.

- أجل، المحبة.

ثم قرعا الكوبين ببعضهما البعض، نخب تلك المحبة، محبة الفلاحين المعطائين، واللذين سيتحولون لاحقا إلى أرقام محببة في قوائم التصويت.

وفيما بعد، ربتَ العقيد على مؤخرة البغل المتعب الذي يجرّ المحراث، ومسح بكوفيته العرق عن رقبته ورأسه، وكاد أن يمسح له أنفه، لولا أنّ البغل المنزعج حاول عضّ يد نايف بيك الممتدة إلى خطمه، وضحك المعلم أمين والفلاحون، وعلّق العقيد على ذلك قائلاً:

- علينا أن نعتني بهذه البغال المباركة، كما لو كانت أبناءنا، أيّها الأصدقاء.

وأمضيا معهم وقتًا جيدًا وممتعًا في العراء، سلخ فيه العقيد نايف صالح ساعة كاملة، يُخبرهم عن مغامراته أيّام كان في القوات المسلحة، وكيف أنّه تعرّض لتدريبات قاسية إبان دورة الصاعقة، لم يكن ليتحمّلها هذا البغل بعينه، وضحك الفلاحون وهم يُدخّنون ويشربون المزيد من الشّاي، لكنه، وعندما همّوا بتركه، بعد انقضاء وقت الاستراحة، والقيام إلى أعمالهم قبل أن يشتدّ قيض الظهيرة، ضحك بوجهٍ مشوّه، وتفصّد العرق عن جبهته، وقال:

- في الواقع، يعني، كما تعلمون، اقتربت الانتخابات، وأريد أن أترشّح هذه المرة، سأكون صوتكم الحر، يا أصدقائي.

وهزّ الفلاحون رؤوسهم الملفوفة بالكوفيات، وابتسموا في وجه العقيد، رشفوا آخر رشفة من الشاي، ثم نهضوا يسوقون البغل، ويضعون عليه حوامل المحراث ليكملوا حراثة الأرض، ونفضَ البغل رأسه من الطفيليات التي تحكه، وعطسَ، تمامًا، في وجه العقيد، عندما كان الأخير يتحدّث إليهم وهو يمسك لجامه متوددًا إليه.

ومسح العقيد قطرات البصاق عن وجهه، وتوسّل إليهم، ضارعًا بصوتٍ ركيك:

- يعني، كلّي أملٌ أن تقوموا بإعطائي أصواتكم وأصوات ذويكم، أيّها الأصدقاء!

إلا أنّ الفلاحين الصّامتين من شدة الإعياء، مضوا غير عابئين إلى أعمالهم المستمرة، ابتسموا ولوّحوا له بأيديهم، وقال أحدهم:

- سننظر في الموضوع، لكن - وكما ترى- لدينا الآن ما هو أهم من انتخاباتك، نايف بيك.

obeikan.com

obeikan.com

العقيد يُطلق الوعود

صيف/٢٠٠٧

الجنوب

استطاع العقيد أخيرًا، أن يلتقي بأخيه الوحيد، "سلمان صالح الصالح"، الذي عاد مؤخرًا من رحلة سفر على شاحنته للنقل التجاري، كان قريب الشّبه بالعقيد، أطول قَليلاً، لكن أنفه بدت أصغر بعض الشيء. وقف العقيد نايف أمام فناء البيت متطلعًا إلى أخيه ريثما يركن الشّاحنة.

تأمله الأخ برهة من خلف زجاج النافذة، وبعد أن استقرت الشاحنة، أسرع العقيد للقائه، وهو يقفز من باب المقصورة المرتفع عن الأرض، وصرخ فيه:

- أخي العزيز، نوارة قلبي، يا أهلاً وسهلاً، وأخيرًا التقيت بك، كيف الحال إذن؟

قال الأخ ببرود:

- بخير. على أحسن حال.

وعانقه أمام البيت، عناقًا باردًا وشاحبًا، رغم أنّ العقيد حاول - من كلّ قلبه- أن يكون أحرّ من ذلك قدر المستطاع، لكن الأخ كان منهكًا لأقصى حد من سفرته الأخيرة، حتى أنّه كان ينظر لأخيه القادم من

الزّمن السّحيق، من مسافة الآف الكيلومترات، من خلف عينين شبه مغمضتين من وهج الشّمس المسلّط عليهما، وأفلت كتفيه من قبضتي العقيد، وقال له:

- ادخل وتصرف كما لو أنّك في بيتك في "عمّان". سأنام قليلاً. فغدًا يجب أن أسافر.

ونام الأخ منذ تلك العشية في الأصيل إلى التاسعة من صباح اليوم التالي، ولم يزعج ذلك العقيد أبدًا، فقد قدّر أنّ الأخ متعبٌ من سفره الطويل، وجاء الليل ونام هو الآخر على فرشة متواضعة في غرفة استقبال الضيوف، بعد أن تأخر الوقت ويئس من استيقاظ أخيه، فقد أدخلت ابنة الأخ الصغيرة، له ولصديقه أمين؛ بطانيتين خفيفتين وركضت لأمّها.

وصباحًا، في التاسعة والنصف، وأثناء تناول طعام الإفطار، تثاءب العقيد عدّة مرات، لأنه لم يستطع النوم، في هذا المكان الجديد، لكثرة الحشرات القارصة المتسللة من النافذة ذات الشباك الممزقة، فقد أَمضى الليلة يُصغي لطنطنة البعوضة المتجولة حوله ثم يصفع وجهه من وقتٍ لآخر. ورشف من شايه، وقال كاسرًا حاجز الصمت:

- كان اللّه في عونك، أخي العزيز، يبدو أنك تسافر كثيرًا، لقد كنت منهكًا بما فيه الكفاية، وآمل أن تكون قد نمت بشكلٍ جيد.

هزّ الأخ العزيز رأسه، وأكمل مضغ وبلع لقمة كبيرة كان قد دسّها بفمه، وشرب خلفها من شايه:

- أجل، نمتُ بشكل جيد.

قال العقيد:

– هذا يسعدني حقًا، ولا بد أنك تتساءل عن سبب زيارتي لك وللبلدة، فأنا أحمل لك أخبارًا سعيدة، يا أخي.

ونظر الأخير إليه، وقال:

– وافقت أخيرًا، على تقسيم الأرض؟

وتذكّر العقيد مسألة الأرض المتوارثة، والعالقة بينه وبين الأخ وبعض الأقرباء منذ موت الأب، وقال:

– لا، لن أقتسمها معك، لكنني سأعطيها لك بالكامل، وبطيب خاطر. فقد آن الأوان لكي نضع حدًا لتلك التفاهات بيننا أيها الأخ.

توقف الأخ عن المضغ برهة، عاد وأكمل تناول طعامه، وقال:

– لا أريد غير حصّتي، أما إن أردت أن تبيع حصتك، فسأدفع لك ثمنها بالكامل.

وابتسم العقيد متفهمًا، وقال:

– لا عليك، لن نعد إلى تلك الأمور من الآن فصاعدًا، افعل بها ما يحلو لك، وسيكون لك ما تريد. لكنني أحمل إليك أخبارًا سارة أكثر من ذلك، أيها الأخ العزيز. فأخوك نايف بيك، سيترشح هذه المرة للانتخابات النيابية.

مضغ الأخ آخر لقمة، بعد أن أوقفها قليلاً في الطريق إلى فمه، بلعها بسرعة وتناول خلفها جرعة ماء، أنهى تناول طعام الإفطار بكل هدوء،

وعبَر خبر الترشيح أذنيه دون أن يسبب أي تغير في ملامح وجهه، ورجع إلى الوراء قليلاً عن تلك الجلسة حول المائدة الأرضية. قال وهو يُشعل سيجارة، ويتكئ إلى الحائط:

- سمعتُ ذلك من بعضهم وأنا قادم إلى البلدة. لكنني أسافر دائمًا مثلما ترى، ولم آبه يومًا لمثل هذه التفاهات التي لا جدوى منها، وعدا عن ذلك، إنك لم تفكر حتى في طلب رأيي في الموضوع، فأنا دائمًا مثلما كنت، نكرة حقيرة بالنسبة إليك. لكن لا يهم. أتمنى لك التوفيق.

انفعل العقيد، وحزن بداخله فور سماعه هذه المعاتبة السريعة من أخيه الصغير، نهض من فوق المائدة، وتقدم نحوه، أمسكه من كتفيه، قال:

- لا، ما الذي تقوله؟ نكرة؟ لست نكرة، أنت كل شيء بالنسبة لي أيها الأخ، لا يملك أحدنا غير الآخر، أرجوك لا تقل مثل هذا الكلام مرة أخرى، لقد أوجعت قلبي!

ووضع يده على قلبه متألمًا، ولمعت دمعة على حافة عينه، وراح العقيد يهز الأخ من كتفيه، دون أن يفلح الأخير في إفلات نفسه من تلك الورطة. وأردف العقيد منفعلاً وبصوت يغلب عليه الشّجن الواضح:

- سامحني، بالله عليك، أتوسل إليك أن تصفح عني، وهأنذا سأقبل رأسك.

ثم ألصق شفتيه بقبلةٍ طويلة على رأسه كما لو كان يمتصّ منه الغذاء، وأكمل:

- لم يخطر ببالي أن آخذ رأيك في هذا الأمر، لأنني مُقدم عليه لا محالة، وبكل جوارحي. ثم إنك، ومما لا شك فيه، لا تملك إلا أن تفرح إذا ما رأيت أخاك في منصب محترم، هذا سيسعدنا جميعًا، يا أخي، سامحني أرجوك، بالله عليك.

وحزن المعلم "أمين" لذلك المشهد الدرامي الذي يفطر القلب بينما يعرض مباشرة أمامه، وطلب، متوسلاً، من الأخ أن يسامح أخاه الأكبر، على تقصيره في حقه:

- لماذا لا تسامحه؟ أرجوك من كل قلبي أنا الآخر. فأنا أعرف العقيد منذ زمن، إن له قلبًا أطيب من أي قلب عرفته في حياتي. إنه الطيبة بحد ذاتها. أخوك طيبة تمشي على ساقين!

وإنهاء لذلك الموقف الذي يبدو أن فصوله ستطول، صفح الأخ عن أخيه، تعانقا وتبادلا القبل على الوجنتين مع بعضهما البعض، واستعدّ الأخ أخيرًا، للذهاب في رحلةِ سفرٍ جديدة، أخذ علبة ماء من الزوجة، وعند الباب، ودّع أخيه العقيد المتقاعد بعناقٍ أقل برودة، وتفهّم العقيد مشاغله وأسفاره الملحة، وفكّر أن يجد عملاً مناسبًا لهذا الأخ الأصغر، إن قدّر الله له أن يُصبح نائبًا في البرلمان، وبعد برهة سريعة وخاطفة من التفكير، سأله إن كان بإمكانه أن يكون سائقه الخاص، على سيارته "المرسيدس" فيما بعد فوزه في الانتخابات، وهزّ الأخ رأسه غير عابئ بهذه الإغراءات المسبقة، وودعه صاعدًا إلى الشاحنة.

خرج العقيد بعد ذلك مع رفيقه، ليتمكنا من إيجاد مجموعة صغيرة، من أقاربه الذين لم يروه منذ زمنٍ بعيدٍ أيضًا، بالكاد استدل على

بيوتهم، وأخبرهم بضرورة العمل معه فيما يتعلق بشأن الانتخابات، لكنهم تجاهلوه كما يتجاهلون صرصارًا ليليًا يهرول إلى شأنه في سهرة صيفية، وتهكموا عليه، وهو يواصل إقناعهم بضرورة السعي معه إلى أهالي القرية، بيتًا بيتًا، ومجلسًا مجلسًا، ونجح أخيرًا في تليين جانبهم، بعد أن دسّ في جيوبهم حزمًا من النقود، فقد أوكلوا أمرهم إلى اللّه، ولم يجدوا بدًّا من عدم التخلي عن قريبهم كما أكدوا، وبأنهم لم يُعدموا المروءة ليفعلوا ذلك لا قدر اللّه.

وخلال ذلك السعي، وتأكيدًا على حسن النية والالتزام بما يعد، وبناء على أوامر العقيد، أخرج الصديق أمين المرزوق، دفترًا صغيرًا من جيب ثوبه وقلمًا جافًا، وبدأ يُسجل الملاحظات بكل جديةٍ واهتمام، وكعربونٍ بهلواني تقليدي، أمسك العقيد شاربه، الذي استطال بعد التقاعد، بطرفي إصبعيه السبابة والإبهام، وضرب بيده على صدره أكثر من عشرين مرة في كل بيتٍ يزورونه، ويلتقون فيه بالأهالي كجزءٍ من ذلك العربون أيضًا، واضطر فيما بعد، وبسببٍ من التعب المضني من كثرة الكلام والضرب على الصدر والقَسم بالشرف، إلى الاقتصار، بصمتٍ قدسي، على الإمساك بالشارب فقط، أو الإشارة بالإصبع إلى العينٍ الأولى قبل الثانية، في وجه كل من يسأله مطلبًا أو خدمة مستقبلية.

حتى أنه وعد، ضمن وعوده الجماعية المتحمسّة، بأن يُخصص منحًا حكومية جيدة، لإكمال بيوت الطابق الثاني لغالبية الأهالي في القرية، التي يشرعون ببنائها لتكون بيتًا للابن البكر لكي يتزوج به، والتي مضى أكثر من عشر سنوات على بعضها، وهي ما زالت، لشح

الموارد، مثل عيون الأشباح، مجرد غرف مظلمة، بنوافذ بدون زجاج، أو أن معظمها بقي أعمدة من الحديد الصدئ والإسمنت المتآكل، وقد غدت مكانًا مناسبًا لأعشاش الحمام وعصافير الدوري، يُبنى عليها ببطءٍ وهدوء، بمعدل طوبة واحدة لكل أسبوع.

وتأكيداً لذلك، وعلى مسمع من الناس، طلب من رفيقه أن يأخذ جولة على الأهالي، ويُسجّل أعداد هذه البيوت وما الذي تحتاج إليه، إن كان سقفًا أو قصارة أو طوبًا أو نوافذ وأبواب لإكمال البناء.

obeikan.com

obeikan.com

المختار يغضب

وذات نهار، ذهب العقيد ومسؤول حملته الانتخابية، إلى صديقِ طفولته القديم، أخبروه بأنه قد أصبح، بعد وفاة أبيه، مختارًا للقرية، وما إن وجداه في فناء بيته الأنيق بالنّسبة للبيوت الأخرى، يتناول حبّات عنب من القطوف النّاضجة المتدلية من العريشة، بكرش متزنٍ رهيب، يُطوّقه بحزامٍ جلدي أسود فوق ثوبه الرمادي، حتى حدّق المختار بضيفه، طويلاً وباستغراب، وأخيرًا صرخ:

- "خشمون"؟

- "تيس" الجبال؟

وتعانقا، وعصر العقيد عينيه، وذرف عدة دمعات على كتف المختار صقر السّالم، وربتا على ظهر بعضهما البعض بالتناوب:

- لقد مرّ زمن طويل يا رجل، زمن طويل يا نايف صالح!

- أجل يا "صقر السّالم"، لقد مرّ زمن طويل جدًا، أين أنت يا رجل كل هذه السّنين؟

أبعد المختار نايف صالح عن كتفه، تفرَّس به، ثم أعاده وربت على كتفيه من جديد:

- أنا هنا، كما كنت دائمًا، لكنك أنت الذي ذهب، ثم إنك لم تتغير كثيرا يا نايف صالح، الأنف الكبيرة ذاتها يا نايف صالح.

obeikan.com

– أجل أعرف أنّي المسؤول عن كل ذلك البعد، لكنك أنت أيضًا، يا صديقي، لم تتغيّر، أنف "التيس" المفلطحة هي هي، والفم الواسع كما هو، اللهم أضفى عليه شارباك الغليظان بعض التّعديل.

وقهقه الاثنان بودٍ ودون كُلفة، وقهقه معهما أمين المرزوق متضامنًا، ووجدها فرصة سانحة لخلع ساقه الصناعية ووضعها جانبا، ودعاهما المختار للجلوس فوق كرسيين من "القش" تحت شجرة "التين" الكبيرة، وقطف لهما قطفين من العنب، وغسلهما من صنبور مياهٍ خارجي، وبعد أن أكل العقيد بتلذّذ، أضاف مغتبطًا لصديقه:

– هل تذكر تلك الأيّام؟ زمن طويل أيّها المختار!

ودسّ المختار يده إلى رقبته من الخلف وهرش جلدة رأسه مُغمضًا إحدى عينيه، كان شعره طويلاً، مائلاً إلى الرمادي، يتدلى على كتفيه من تحت الكوفية:

– وكيف لا أذكر أيّها العقيد؟ لقد كنت طفلاً شقّيًا يا رجل.

وضحك العقيد، سعيدًا في داخله، بهذا الإطراء، الذي قد يترتّب عليه مساعدة المختار له في حملته النيابية، وذكّره بشخصيته المتقمَّصة آنذاك:

– أتذكر حينما كنتَ تعوي كالذئاب أيّها المختار؟ ثم تضربك أمّك على قفاك مجددًا.

وزرَّ المختار عينيه الصّغيرتين، تحت حاجبين أُبريّين، ورماديين أيضًا، في محاولة منه لتذكر تلك الأيّام السّالفة، ومدّ سبابته منتصرًا

في وجه العقيد:

- أجل! وأنت ماذا كنت تفعل؟ كنتَ تموء، يا رجل، تموء مثل قطّة مسكينة، هل ما زلت تموء يا نايف صالح؟

ومن جديد، ضحك الاثنان معًا، وقذف العقيد حبّة عنبٍ في فمه وقال بعد أن مضغها:

- قد أعود للمواء، عن قريب، أيّها المختار، لا أحد يعلم. لكنك، كنت ترقص أيضًا مثل حمارٍ سعيد، عندما تسرق البيض من تحت دجاجات الحارة، وتصطاد به الديوك التي كانت تنقضّ عليك دائما وتنقرك في قفاك، أيّها المختار، هئ هئ..

واهتز بطن المختار وهو يضحك ، وارتخت ملامح وجهه الجادة، وأصبح طفلاً صغيرًا مُحمرّ الخد، في تلك اللحظة، ومدّ سبابته من جديد في وجه العقيد:

- وأنت لم تتوانَ عن سرقة ثمار "الدراق" من بستان الجامع، إلى أن أمسكك الشيخ ذات يوم، ورحت تتلقى الصفعات من عصاه، عن مؤخرتك. ويقول لك هذا مال المسلمين، ثم يقطفها ويأخذها هو بعد ذلك.

وواصل الاثنان الضحك بصوتٍ عالٍ، وخبط الأكفّ ببعضها البعض، وضحك معهما المعلم أمين المرزوق ببلادة، وشعر العقيد بالارتياح الداخلي من دعابة المختار تلك، وذكريات الأيّام الجميلة الفائتة إبان كانا عضوين صغيرين في مجتمع قريتهما، يلعبان مع الأصدقاء، كانوا شلة ظريفة، المختار "صقر السّالم"، الذي ترك الدراسة وعمل مع

الأب في تربية ثلاث أبقار وثور، والأخ "سلمان" الذي تزوّج بعمرٍ صغير بعد أن عمل سائقا على إحدى آليات البلدية بعامين فقط، ثمّ تقاعد ليعمل على شاحنة للنقل التّجاري، كانوا يلهون جميعهم، دون كللٍ أو ملل بين السّهول وفوقَ الجبال، إلى أن تفرّقوا كل إلى شأنه.

ودون مقدمات، قال العقيد نايف:

– لقد تقاعدت، مؤخرا، برتبة عقيد من عملي في الجيش.

– تقاعدت؟ يا لسرعة هذه الأيّام!

– أجل، يا صديقي، يا لسرعتها!

قال المختار:

– لقد رأيتك عندما التحقت به، وهأنذا التقيك بعد الخروج منه. كان الله في عونك عزيزي نايف.

– لقد كنتُ ضابطًا مثاليًا، وجيدًا جدًا، وكنتُ مرشحًا لكي أترفع إلى رتبٍ أكبر، لكن، وعلاوة على أنهم لا يريدون أشخاصًا مثلي، فالمتربصين كثر.

– أجل، أحسنت القول، المتربصين كثر.

– تماما، وأنت تعلم أيضًا، مدى كفاءتي، وتعلم أنني كنتُ أكفأ ما أكون لكي أستمر في عملي.

– نعم، أنت من الكفاءة بمكان نايف بيك. أجل، هذا صحيح، أتذكّر ذلك منذ الطفولة وإبان مرحلة الحصان الخشبي، كان حصانك أسرع من حصاني، لكن ماذا يمكن أَن يفعل الإنسان؟ ما باليد حيلة.

وربت على كتف صديقه مواسيًا وهو يضيف:

– لا بد أنك انخرطت في وظيفة أخرى، وظيفة تستحق العمل فيها، نايف بيك.

وضع العقيد قبضة يده على فمه، تنحنح عدة مرات، قال:

– في الحقيقة، ليس بعد، إنني أتريث.

– تتريث إذن.

– أجل، أتريث. لقد عُرض علي كثير من الوظائف المهمة في سلك الدولة، لكنني أتحفظ على العمل مع هذه الحكومة، كما تعلم.

قال المختار متعجبًا:

– لم أكن أعلم أنك تتحفظ! لكن لا بأس، الآن قد عرفت. التحفظ شيء جيد.

– نعم، لكنني الآن أُقدم على عملٍ عظيم جدًا، وأسأل اللّه أن يوفقني فيه.

– أها، عمل عظيم؟ جيد أيها العقيد. وأنا بدوري أسأل اللّه لك التوفيق في عملك العظيم.

وفي هذا الجوّ من الألفة والوئام، وجد العقيد أنّ اللحظة المناسبة قد حانت، وأكدّ له الصديق أمين ذلك بعد أن غمزه بعينه ليبدأ الحديث،فتنهّد وأصبغَ شيئًا من الجدّية المطلوبة على ايماءاته، قذف قطف العنب الفارغ إلى الفناء الترابي خلفه، خبط على فخذِ المختار

الجالس إلى جواره، وأضاف في ذلك الجو من المرح:

- إذن، متى نبدأ الحملة يا صقر السّالم؟

لكنّ المختار توقف فجأة عن الابتسام والتودّد، أمسك يد العقيد ورفعها عن فخذه بسرعة، وقال:

- أيّة حملة؟

- حملة ترشحي للانتخابات النيابية.

- أها، الانتخابات النيابية!

وكان المختار صقر السّالم، قد لاحظ، تلك الأيّام، أن البلدة قد بدأت تمتلئ بالقادمين الجُدد، القادمين الجدد مرهفي المشاعر، المشحونين بالذكريات السعيدة عن طفولاتهم في هذه البلدة، مسالمين ووادعين كالحملان، يلقون السّلام على كل من يجدونه في الشارع، ويقرصون بحسٍ إنساني لطيف خدودَ الأطفالِ، ويقدمون لهم الحلوى وبعض القطع المعدنية، ويحملون الهدايا والأُعطيات السّخية، كالمدافئ وبعض الأغطية والمراوح الكهربائية، بحسب فصول السنة، إلى كل بيتٍ من بيوت هذه القرية العزيزة الغالية على قلوبهم، ثم يشرعون، بكلِ أسى، في طرح وجهة نظرهم عن آمالهم وتطلعاتهم العظيمة فيما يتعلق بشأن البلدة ومستقبلها الذي بات مرهونًا ومعلقًا بالكلابيب الحادة على أكتافهم؛ الكلابيب التي تحزّها وتدميها، لكنّهم، إن قدّر الله لهم دخول مجلس النواب، سيحملون هذا المستقبل، دون أيّ كللٍ أو ملل، على تلك الأكتاف المدماة، وفوق رؤوسهم بإذن الله تعالى.

obeikan.com

وبعد أن حكّ المختار ذقنه أضاف:

- أولاً: أنا المختار صقر السّالم، وليس صقر السالم فقط. ثانيًا: لا شأن لي، أيّها العقيد، بحملة انتخابك. فأنا محايد، مثلما تعلم.

وعدّل المختار وضع كوفيته على رأسه، وأمسك عصاه المعقوفة، ووقف متهيّئًا للمغادرة:

- كنتُ سأدعوك للدخول أيّها العقيد، إلا أنني في عجلة من أمري للالتقاء برئيس البلدية وبعض الأعضاء، للحديث بشأن داخلي للبلدة.

وأضاف وهو يُغادر:

- إلى اللقاء الآن أيّها العقيد، استدر وعد إلى حيث أتيت، لا أحد بمن في ذلك أقرباؤك، يذكر اسمك حتى!

ثم توقف بعد أن ابتعد قليلاً، استدار وأردف، والعقيد صامتًا ينظر إليه:

- الليالي حالكة وضوء المصباح واهن، أيّها العقيد. ولا ريش على الأجنحة لكي تطير معك.

بقي فم العقيد فاغرًا، لهذه الحِكم التي تخرج الآن من فم المختار، وتذكر كيف كان في صغره، يسمع المختار الأب يردّد مثل هذه الكلمات الغريبة،كلما أنّب أحدًا من القرية. أراد أن يقول له شيئًا عن الزّعب الذي يكبر، والذي أكّد له وجوده من قبل صديقه أمين، لكن المختار أضاف من بعيد:

- لكنني قد أفيدك بنصيحة أيّها العقيد، إن أنت أصرّيت على

موقفك في الترشّح، الناس هنا تفضّل "الكنافة" النّاعمة على الخشنة، فلا تُكثر من الأخيرة. إلى اللقاء.

obeikan.com

تفاهة مُبهمة

الجمعة: ٧/كانون الثاني/ ٢٠١١

مقهى الجنرال. ١٠:٠٠ليلاً

فوجئ العقيد عندما دخل إلى المقهى في السّاعة العاشرة من هذه الليلة، بخلوه، على غير العادة، من الزبائن. كما لو أنّه يدخل إلى مكانٍ في مدينة خائفة من "الطاعون"، لا أحد تقريبًا في الدّاخل. الشارع معتمٌ وخالٍ أو يكاد من المارة والسيارات والقطط.

لم يكن ينوي الذّهاب إلى عمله المعتاد، فمنذ مدة ليست بالقصيرة، قد زاد شعوره بالإجهاد والضّجر غير المحتمل، يشعر بنفسه كشيءٍ مستهلك وملقى في صحراءِ قلة الشّأن والوحدة، وهو التّائه في هذه الصحراء أصلاً، لذلك تقدّم بطلبٍ لأخذ إجازة مدتها ثلاثة أيام.

قرّر أن يمضي الليل، بعيدًا عن كل ذلك الإعياء الرّوتيني، بتفرغٍ كامل وراحة بال، برفقةِ بعض الأصدقاء في المقهى أو بدونهم، فحجمُ سعادته كبير إذا ما دقّت الساعة الثانية عشر من منتصف الليل وهو ما زال في مكانه، يلعب النرد ويحتسي القهوة مبقبقًا من نرجيلته، يضحك مع الرفاق من جوارحه كلها، مستمرًا في ذلك إلى ساعة متأخرة من الليل حتى يُغلق صبي المقهى أبوابه بعد آخرِ زبون يُغادر إلى بيته.

وفي جنح الليل، سيأخذ قسطًا وافرًا من النّوم الذي لم يهنأ به منذ زمن، ليتسنى له صباح اليوم التالي، وهو بكامل نشاطه البدني

والذهني، دراسة الوضع في مجمله، وعمل الجداول وكتابة الأسماء وتحريرها، ورسم بعض الخطط الجيدة مع الرّفاق.

لكنه لم يلحظ أية حركة على الباب الزجاجي، رغم أن النيون الأبيض يُشعّ فوق لوحةِ "مقهى الجنرال" الصدأة، ويُضيء عيني الرجل العسكري الجادّتين المتطلع بهما إلى ناحيةٍ ما، ومع أن تلك الساعة من الليل، دائمًا ما تعجُّ بأصواتِ رواد المقهى وبقبقات نراجيلهم ورميهم لأحجار النرد وتحريك أقراص الزّهر، إلا أنه كان فارغًا تمامًا من أيّ أحد، لا يوجد سوى إضاءةٍ خافتة جاءت من المطبخ على ما يبدو، دون أن تُشعَل إضاءة الصالة.

وفكّر بأن ذلك اليوم، ربما هو يومُ عطلةٍ قد تمّ تخصيصه للمقهى أو ما شابه، لكنه وما إن دفع الباب حتى وجده مفتوحًا، نظر إلى السقف، ووجد المروحة العجوز، تُجاهد في الأعلى لكي تدور ببطء وينتجُ عن دورانها صريرٌ خافت وجعجعة. وفكر بأنها يجب ألاّ تعمل في ليالي الشتاء، إلا إذا كان الهدف من هذا الدوران الضّعيف غير الفعال، إبعاد الضباب المتكوّن من دخان النراجيل والسجائر.

تقدّم عدة خطوات، ورغم غباشِ الأجواء وبوهيميتها، إلا أنه استطاع أن يرى، على طاولةٍ بعيدة في زاوية المقهى، رجلاً يتواجد وحده، يجلس بصمت كما لو كانٍ جزءًا من موجودات المقهى، لاحظ أن حركة تندر عنه، كما لو أنه يمسح بيده زجاجًا كبيرًا أمامه، وقرر إنه يُلوّح لشخصٍ ما،فنظر خلفه وهو يقترب، لم يكن هناك أحدٌ، كان يلوّح له على وجه التّحديد، وعندما دنا منه أكثر، استطاع أن يرى أنه في عمرٍ يقارب

عمره، منتصف الأربعين على نحو تقريبي، حليق الذّقن ويرتدي بدلة أنيقة بلا ربطة عنق، وأمامه طاولةً زهر مفتوحة.

وقف الرجل ومدّ يده ليصافح العقيد، أشار إليه أن يجلس، وبعد أن جلس بصمت وهدوء متلفتًا حوله، سمع صوتَ قُفلِ الباب الخارجي يُغلق، ولمح في العتمة من خلف الزّجاج طيفَ شاب، لم يتسنّ له تميز وجهه إن كان زياد صبي المقهى أو أحدًا غيره، يغلق الباب بالمفتاح ويُغادر بسرعة.

قال الرجل:

- أهلاً أيّها العقيد.

قال الأخير:

- أهلاً بك. لكن من أنت؟

أردف الرجل:

- ربما سمعت عنّي الكثير من قبل. لكن لا عليك، سنتحدث قليلاً ثم يعود المقهى إلى وضعه الطبيعي. لقد طلبتُ من حسان بيك أن نلعب النرد وحدنا لبعض الوقت.

فكّر العقيد، بأن ما يحدث حاليًا، ما هو إلا شيئًا بسيطًا ممّا يحدث له في العادة، وها هو أحد الغرباء، وفي جو غامضٍ داخل المقهى، يطلب منه أن يلعب النرد. وفكّر بأن هذا هو الأحدهم، الذي سمع عنه بعض الأقاويل، يلتقي برواد المقهى من وقتٍ لآخر، والذي عكف في الفترة الأخيرة على البحث عنه واكتشافه وتقديم شكوى رسمية ضده. قال له:

- حسنًا، لكنني لم أتعرّف إليك، من فضلك.

قال الرجل، وهو يرمي حجري النرد:

- ألا يكفي أنني أعرفك؟

- لا، يبدو لي أنه لا يكفي.

- حسنا ستعرف كل شيء بعد قليل.

ثم أردف بعد أن قرأ الأرقام وقد جاءت أربعة وستة:

- عقيد متقاعد من الجيش العربي. متقاعد منذ أربع سنوات وستة شهور-

قاطعه العقيد:

- أربع سنوات وستة شهور وخمسة أيّام.

قال الرجل مبتسمًا وهو يُحرّك أقراص الزهر:

- للأسف لا يوجد إلاّ حجري نرد. لكن كما تريد. أربع سنوات وستة شهور وخمسة أيّام.

هزّ العقيد رأسه:

- جيّد.

ابتسم الرجل من جديد. قال:

- على العموم. أهلاً بك.

- شكرًا. وأنت؟

obeikan.com

- لا يهم.

همّ العقيد بالنهوض منفعلاً، وقرر أن يغادر المقهى ويتخلّص من هذه التّفاهة المبهَمة التي أوقع نفسَه فيها يومَ الإجازة.

فكر في لحظة ما، أن ابتياع بعض "الفستق" الساخن والطازج من محمص "العرَّاب" في ناصية شارع "الأمير محمد"، وعلبتين من "البيرة" من الحجم الكبير، والعودة إلى أريكته في البيت، وأن يطلب من صديقته "سلمى" المجيء إليه لبعض الوقت، لكي يبدآن بالتدخين معًا أمام التلفاز بكل هدوءٍ وطمأنينة، يحكي لها، وهو يُغلغل يده في شعرها، بعض المنغصات اليومية التي صادفته، أو يشاهدان معا فيلمًا ما، برنامجًا وثائقيًا عن "قندسِ" روافد نهر "المسيسبي" وأبناء عمومته، فبعد قليل سيُعرض البرنامج في وقته الأصلي، قبل أن تتم الإعادة في عصر اليوم التالي، أو يتحدثان ببساطة حول الأمور المستقبلية، وكيف ستكون حياتهما معًا، وإن كان المولودُ الأول لهما ولدًا فماذا عساه أن يكون اسمه؟ وإن كانت بنتًا- وهذا التفكير دائمًا ما يجعله يبتسم من كل قلبه؛ حنينه إلى ابنته التي لم تأتِ بعد- ما الإسمِ المناسب الذي سيطلقانه عليها؟ فكّر بأنّ ذلك في مجمله، أفضلَ بكثير من هذه الكركبة المزعجة؛ التي هي أكبر بكثير ايضا من طاقته التّحملية والتي قد بدأت بالنّضوب أخيرًا. لكنّ الرجل أخرج بطاقته الأمنية في وجهه، وقال:

- لن أقول إنه مقبوضٌ عليك أيّها العقيد، لكنني، وعلى أيّةِ حال، قد اختصرتُ عليك المجيء إلينا، سنتحدث هنا لبعض الوقت،

ثم إنّك لن تتمكن من الخروج لأنّ البابَ مغلق. وها نحن نلعب الزّهر بكلّ سرور.

obeikan.com

ثورة الياسمين

في أثناء تجوالهما في البلدة والبلدات المحاذية لها، لمح العقيد نايف صالح الصالح، ومن بين الجبال، فوهات لمصنع ضخم، وهي تنفث السّناج نحو السماء، كما لو كانت خراطيم "فيلة" عملاقة تتجه للأعلى، ورأى بأمّ عينه – وهذا ما فاقم الأمر، الرؤية بأمّ العين– كميةَ البؤس والذّبول في أشجار ومزروعات وحيوانات وحشرات، وبالطبع أناس المناطق المحاذية له،فأخذ القرار الحازم، وأصدر الأوامر للمعلّم أمين المرزوق، منتهزًا الفرصة على أكمل وجه.

صباح اليوم التالي، وفي مكان بارزٍ لكل المارة من أبناء البلدة، استطاع المعلم أمين مع بعض المساعدين المأجورين، وبين عمود كهرباء وشجرة "سرو" مقابلة له، أن يُعلّق يافطة كبيرة في منتصف البلدة، يدعو من خلالها العقيد نايف الصالح إلى اعتصام مفتوح على أرض التّعدين ذاتها، لمواجهة الخطر المحدق بالبلدة، والوقوفً في وجه غطرسةِ وهيمنةِ مصنع "الإسمنت"، ذلك الوحش الهائل، كما أسماه، الذي يأكل، بسُعاره، البلدة من أطرافها دون رحمة، أيقونة الفساد البغيضة، ينهشها ويتركها كالهيكل العظمي، الذي يوشك على السّقوط من جرّاء نفسه.

ولما لم يتمكن أحد من الذهاب إلى هناك والمشاركة في الاعتصام الجماهيري، بسبب من الانشغال بالأمور البهيمية الاعتيادية في البلدة، وبسببٍ آخر أكثر أهمية وخطورة، هو الشّعور العميق باللا جدوى حيال

ذلك، فقد قرّر العقيد نايف بيك أن يقوم وحده بحِمل العمل العظيم، ويُنفّذه ببطولةٍ فردية تتردد أصداؤها في العالمَ كلّه بعد أن تمتلئَ المنطقة، ودونما ترتيبٍ مسبقٍ من أحد، وكما هي العادة، بالعشرات من المصوّرين والمراسلينَ الصّحفيين الميدانيين، اللذين يخرجون بشكلٍ مباغت من كل مكان، لتغطية الحدث الأهم في تاريخ الثّورة على الرأسمالية الفاسدة في الإقليم؛ إقليم الجنوب.

وتوجّه العقيد مع صديقه إلى المكان المقرر كساحةٍ للاعتصام، ولم يأتِ غير ثلاثة من الشبان المهتمين، كان اثنان منهم قد دفعهما الفضولَ التلقائي للمجيء والمشاهدة بينما ملّا من رعي أغنامهما في الجوار، والثالث، وهو في الخامسة عشر من عمره، انضمّ إلى اللجنة الدّاعمة للحملة الانتخابية منذ أن أمر العقيد صديقه أمين المرزوق بصرفِ عشرة دنانير له رأفة بحاله، عندما صافحه ذات مرة بثيابٍ ممزقةٍ ودون حذاء، فأصبح متابعًا جيدًا لكل نشاطاتهما في البلدة، يمشي معهما ويلحق بهما أينما ذهبا، لكن بصمت، ما دفع بالعقيد أن يطلب من أمين والمرافق الصامت، أن يأخذا جانب الدعاية والتوثيق، بأخذ الصور له من كافة الإتجاهات، لكي يستخدمها بشكلٍ أمثل في حملته الترويجية في البلدة، وراح يستلقي في منتصف الطريقِ الترابي الواصل بين المصنع وأماكن حفر واستخراج الخامات في الجبال، مغمضًا عينيه كي لا تروعه ضخامة الشاحنات القادمة وتثنيه عن فعلته، لكنّ إحدى هذه الشاحنات العملاقة التي وصلت إليه، راحت تمرّ من فوقه وهو مستلق على ظهره متطلعًا إلى بطنها وبيده ضمّة "ياسمين"، رمز البيئة النّظيفة، وكأنه نتوءٌ في الطريق يضعه السائق

obeikan.com

بين العجلات، فقد كانت شاحنات بيضاء بحجم بناية من طابقين أو ثلاثة، لديها مقصورة واحدة يُسرى، وتتقدم ببَطء وثبات إلى جبال "ضانا" كأنها "ماموثات" العصر الجليدي العملاقة، يبدو السّائق ضئيلاً وهو يجلس على أُذنها اليُسرى فقط.

ولما تجاوزته الشاحنة، نهض دون أن ينفض ثيابه ومؤخرته من أثر التراب الأبيض وركض خلفها بأقصى ما لديه من طاقة، مستدلاً بها إلى موقع العمل السّري، وعندما لم يسمحوا له بالدخول من البوابة، بذل المزيد من الجهد والإصرار للالتفاف والدخول إلى الموقع من الجهة السّفلية المحاذية للوادي، ووقف ملوّحًا بضمّة "الياسمين" التي ذبلت، على تلة صغيرة أمام إحدى الجرّافات العملاقة كما لو كانت "ديناصورات" بأفواه ضخمة جدًا، تحفن في المرة الواحدة عشرات الأطنان من التراب وتهيله في صناديق الشاحنات، صارخًا بهم :

– أوقفوا هذا العمل أيّها الأوغاد. أطفئوا المحركات وعودوا إلى إنسانيتكم. ارحموا هذه البلاد الضعيفة. إنّها تختنق وتموت من جشعكم!

وما كان من سائق الآلية، الذي لا يسمع، بسبب الضجيج القوي من المحركات حوله، ما يصرخ به هذا الرجل الذي يبدو أنّه غاضب، إلا أنّ حمله مع كتلة من التراب التي يقف عليها، ومضى به إلى تلة عالية جدًا حادّة الحوافّ تكوّنت، كدوارٍ، في منتصف ساحة العمل، رفَعه ووضعه عليها ليبدو فوقها كبطلٍ خارق يُنادي ويُلوّح للثورة من بعيد.

غابت شمس ذلك النهار وأُنيرت الكشّافات البيضاء الساطعة

للاستمرار في العمل ليلاً، والعقيد مستمرا بالصراخ، وبيده ضمّة "الياسمين":

- أوقفوا هذا العمل الحقير. أوقفوا استغلالكم الجشع. أنزلني من هنا يا ابن الحرام. أوقفوا قتل الأشجار والبشر!

obeikan.com

العقيد يخطب بالجماهير الغاضبة

خاض العقيد نايف الصالح غمار الانتخابات البرلمانية بصلابة ورباطة جأشٍ لا بأس بها، وبسببٍ من بسالته في الإعتصام المناهض لمصنع الإسمنت، وصوره التي ملأت الجدران والشّوارع، وهو يفترش الأرض المجردة، بقوةٍ وبسالة، ممسكا ضمّة الياسمين أمام الشّاحنات العملاقة التي لا ترحم، فقد جمع حوله جمعا غفيرا من المؤيدين والمؤمنين به، وأثناء الحملة الدعائية، ارتدى بدلةً سوداء، وقميصا رسميّا أبيض مع ربطة عنق، وخطب خُطبا ثورية، تعبت يداه وهو يصفع بهما الهواء، ويمط ذراعه ويُشير بسبَّابته هنا وهناك في وجوه المتآمرين على الوطن، والخائنين له ولشعبه، كانت الأفكار تأتي في مجملها منه شخصيا، نابعةً من صميم اعتقاده المطلق، لكنّ قائد حملته، الصديق أمين المرزوق، قد تطوّع بخطه الجميل، لكتابة تلك الخطابات، ورفض أن يأخذ أيّ شيء في المقابل- لا سمح الله- سوى أتعاب النّسخ وما إلى ذلك من الأمور الفنية، وأثمان الأقلام، ومواعين الورق واليافاطات والملصقات والرّشاوي وغيرها من المستلزمات الضرورية، ولذلك كان يشعر بالخجل عندما يدسُّ نايف بيك رزمة من النقود في جيبه، كمصروفٍ شخصي خارج عن حسبةِ العمل، يقول له:

- لا، لا أريد، معاذ الله!

لكن نايف صالح يُصرّ عليه أن يأخذها، ويؤكد له، في كلّ مرة، أنه لن ينسى تلك السّاق المزعجة، فما إن يصل إلى أي منصبٍ جيد،

حتى يرسله إلى أفضل المشافي الأوروبية، فهناك لديهم سيقان حديثة متقدمة، سهلة الاستخدام، لا تزعجه في شؤون حياته، لا سيما فيما يتعلق بأمور المضاجعة، ولا تلين في نهارات الصيف شديدة الحر، ثم يطلب منه الاستعجال في خطاب الليلة التالية، وحبّذا لو كان عاطفيا وانفعاليا أكثر، ثم يقول الصديق بشأن دسّ الرزمة في جيبه:

- سامحك اللّه يا نايف بيك، كلنا فداء لك.

ويشرع بعد ذلك بلعق إصبعه والتركيز في عد النقود بعد أن يستدير نايف بيك بظهره، وإضافتها إلى ما يدّخره من تزوير الفواتير المتعلقة بالحملة.

وفي تلك الليالي الطويلة، التي تسبق اليوم الحاسم للتصويت، وعلى مبدأ: العن الظلمةَ وأنت توقد الشّمعة، سبّ وشتم نايف بيك، من خلال منبره الدعائي، الفساد والمتورطين فيه، وكل من يشد على أيدي المفسدين الأوغاد، وكل من تُسوِّل له نفسه العبث بالحريات الشخصية، ومدخرات الوطن، وخصخصتها، وكان قميصه يخرج من البنطال في لحظات الانفعال، ثم يعيده إلى الداخل، وقد طلب من صديقه أمين، قبل ذلك، أن يُطعِّم خطاباته بأقوال صارخة وثورية لشخص يسمى "تشي جيفارا"، فعيونه من المرتزقة، لدى المرشح الآخر، أخبروه بأنّ ذلك المرشح الثوري، والذي يدعمه مثقفو القرية، المعدودين، اللذين درسوا المرحلة الجامعية على حسابِ بعض الأحزاب اليسارية، دون أن يستوعبوا ماهية وكنه هذه الأحزاب، يواصل ترديد عباراتٍ رنَّانة لرجلٍ اسمه "تشي جيفارا" بذلوا مجهودا مضنيًا في جلب اسمه

الكامل، ويُصفّق حضور المثقفين الثائرين له بضراوةٍ منقطعة النظير، ولا شيء غير ذلك.

لكنّ معلم التربية الوطنية، لم يكن يعرف صراحة من هو هذا التّشي جيفارا، ورَاحَ يسهر الليل بأكمله، مستجمعا قواه العقلية، ومستذكرا المزيد من الجمل الثورية التي مرّت عليه في حياته، وخصوصا تلك التي حفظها عن ظهر قلب بينما كان يسمعها من الطلبة اليساريين في مظاهراتهم الجامعية، ويوردها حرفيا في تقاريره للأجهزة المختصّة، وراح يكتب بعض تلك العبارات السّاحقة، ويضعها بين قوسين ضمن الكلام، لكي يهتف بها نايف بيك من جديد في خُطبه الثّورية. وقد بدأ على الفور صُراخه حالما اعتلى المنصة:

– وماذا يقول لكم شيفارا، وأنتم الآن في طريق حريتكم المنشودة، تصرّون على انتخابي لتحقيق ذلك، إنه يهمسُ في أذن كل واحدٍ منكم: إن الحرية مثل نجمة البحر، إن مزقوها، نمت من كل مِزقة، نجمة بحرٍ جديدة.

ويصفّق الحضور لهذه الجمل الشاعرية، ذات المضمون الغريب، ويهتفون رافعين قبضاتهم في الهواء:

– نايف الأول. نايف الأول

ويبتسم لهم ابتسامة رزينة هادئة لكنها مشبعة بالنّصر الواثق، ويأخذ بالتلويح عدة مرات بقبضته هو الآخر، مُضفيا عليهم المزيد من الحماس، ثم يورد عبارة أخرى، بعد أن يأخذ حماسهم بالتّضاؤل، متطلعين إلى المزيد:

– إن شيفارا يقول لكم أيضا: أيّها المقيمون في الوديان السّحيقة، اتركوا عتمة القاع، واصعدوا إلى الجبال، لأن الشّمس أقوى ما تُضيء هناك.

ولبرهة أراد الجمهور أن يستفسروا منه، كيف لهم أن يتركوا الوديان وهم يقيمون فيها، كالإنسان الحجري، مع أغنامهم ودوابهم، لكنّه أضاف بعد لحظةِ صمتٍ مدروسة، وعلى نفسِ الوتيرة من الانفعال:

– وأنا حتما أحد جبالكم المنشودة.

وبسببٍ من طلب الصعود المبهم، عدل الجمهور عن السؤال، وهتفوا منفعلين بشدة لهذه الرمزية التي تمكنوا من فهمها بشكلٍ أو بآخر، ووقفوا متابعين تصفيقهم لأنّهم امتلؤا بالطاقة التي لا يملكُ الشخص معها إلا الوقوف بكامل قامته، أو حتى على رؤوس الأصابع.

ولما كانت العبارات المنسوبة ل"تشي جيفارا" والتي كتبها المعلم قد انتهت، كان الحضور وكأنهم قد بدأوا السماع للتو؛ مُحدِّقين بأعينهم ومتهيئين صامتين لسماع أشياء إضافية من هذه الأقوال الغريبة حتى لو لم يفهموا كنهها، ولاحظ نايف بيك هذا التوق المتصاعد من قبلهم،فأطرقَ قليلا، متطلعا إلى السّماء المعتمة في البلدة، ومتأملاً القمر البعيد والمضيء، بهالةٍ باهتة، في الجهة الغربية منها، ثم جاءه الوحي، هابطًا عليه بخفة من عتمة الليل، عصفور الإلهام الصَّغير ذاته، ذو الجناحين الزرقاوين، دسّ منقاره في أذنه وسقسق فيها عدة مرات وهو يرفرف كطائر الطّنان، لكي يُساعده على تأليفِ عبارة لا بأس بها تُسعف الحال، فصرخ العقيد بمقولةٍ أخرى:

– ها أنتم، يا عزوتي، تقفون مثل تلك الجبال الشاهقة، لأن شيفارا العزيز يواصل حديثه لكم: أنتم أيّها الجالسون على مؤخراتكم، قفوا الآن للحرية. وانتخبوا رمزكم.

وهذه العبارة بالتحديد، بما فيها من غموض ورمزية، جلبت المزيد من الضوضاء والتّصفيق الحار والصفير الذي تنافس الأطفال، في هذا الكرنفال، على إطلاقه وهم يدسّون أصابعم المتسخة في أفواههم، وهتفَ الحشد واقفين مرة أخرى، مرددين خلف صوت المعلم أمين الجهوري:

– نايف الأول، نايف الأول!

ولوَّح العقيد بقبضتهِ وقد شدّها كما لو أنها قد أصبحت مطرقة حقيقية، ونفرت الأوردة من زنده، ومجددًا خرج قميصه من البنطال، وارتخت ربطة عنقه الحمراء، وهو يطرق الهواء بهذه المطرقة، وأسعفه عصفور الإلهام، قبل أن يُرفرف مبتعدا نحو العتمة، بعبارةٍ أخرى، لم يشأ العقيد، من فرط طاقته، أن يؤجلها إلى إشعارٍ آخر، وصرخ بها، بعد أن نسبها إلى "تشي جيفارا" بطبيعة الحال:

– ستحلّ اللعنة تلو اللعنة ثم الموت، لقومٍ سرق الآخرون دلافين مياههم المسالمة ولم يستعيدوها.

وأيدّ الجمهور الغفير تلك الصرخة، لاحتواء الجملةِ على كلمة غريبةَ الايقاع؛ دلافين، وصرخوا بهتافات متداخلة مع أصواتِ المفرقعاتِ التي يُشعلها الأطفال خارج خيمة المقر، مُعلنين المجد لنايف بيك، الذي وافاهم بعبارةٍ استعظم أن تؤجل إلى خطبة اليوم التالي:

– وهأنذا أؤكد أنني سأكون لكم، دائما وأبدا، الآنية الممتلئة إلى شفيرها، والتي تغرفون منها ما شئتم، لكي لا نجعل بيننا، مكانا للكؤوس الفارغة أو المقلوبة!

وضجّ الحضور، بحكم الحماس المتواصل في هذه الليلة، والتفت بعضهم إلى أكواب الماء البلاستيكية الفارغة والمقلوبة، وهي ملقاة على الأرض، وقاموا كردِ فعل تضامني مع طروحات العقيد الثائر، بركلها وسحقها بأقدامهم، كما لو كانت حشرات ضارة يجب النيل منها.

وخُصصت الفقرة التالية للعزف والغناء، فقد أُخليت السّاحة الترابية، وحضرت فرقة فنية صغيرة، وقد تشكّلت هذه الفرقة من خمسة أعضاء فتيان من محبي الفن والموسيقى الشعبية في البلدة، وقام نايف بيك، لولعه القديم بالموسيقى، برعايتها وتقديم المكافآت المالية لها، وقاموا بأداءٍ رائع لبعض الرقصات الشعبية على ايقاع الطبلة والمزمار، وصراخ الحضور والتصفيق المستمر، وأصروا على العقيد نايف، أن ينزل إلى الساحة، ليشاركهم الرقص على شرفه، وتركَ أطفال البلدة مفرقعاتهم ولعبهم في الخارج، واندمجوا في الرّقص أيضا، وارتفعت سحابة من الأتربة من بين أقدامهم، وأصبحوا جميعا، كفرقة من الأرجوزات، ترقص خلف الغبار.

وجاهد العقيد أخيرا، بمساعدةِ بعضهم، لكي ينزل من فوق المنصة، والتي ما كانت إلا كرسيّا خشبيا موضوعا فوق طاولة كبيرة، ثم حملوه، نهاية الرقصة، لعدة أمتار فوق الأكتاف، ظافرا بمزيدٍ من الرضا حيال خطبة الليلة الثورية، وأفرغ الحضور طاقتهم ثم جلسوا بكل ارتياح،

وتظاهروا بأنهم لا يأبهون أبدا لأطباق الحلويات التي وصلت ساخنة للتو، فقد استمروا بالتَّصفيق والهتاف وهم ينظرون بأطراف أعينهم إلى كمية "الكنافة" ونوعها هل هي ناعمة أو خشنة حسب ما يُفضّلون، وبعد أن شاهد الأطفال الكمية الكبيرة الوافرة، تركوا ألعابهم، والركض خلف بعضهم البعض، والتزموا الأدب جالسين، مشبكين أيديهم على صدورهم، يتطلعون إلى بعضهم، كاتمين ضحكاتهم ومدلّين أرجلهم الحافية والمتسخة من فوق الكراسي، لكي تصلهم صحون الحلويات، كما لو كانوا أشخاصا بالغين و مهمّين.

وقلق الجالسون في الصفوف البعيدة عندما راودتهم فكرة نفاد الكمية قبل أن تصل إليهم، لكنّ نظرة ثاقبة وبعيدة منهم إلى صف الموزعين وهم يقفون في طابورٍ طويل ويحملون الأطباق خارج الخيمة، جعلتهم في ارتياح شديد لحجمٍ الكميات الكبيرة، وهزَّ نايف بيك رأسه انحناءً لهم ولعظًيم وقفتهم معه وغادر المكان برفقة المعلم أمين، ملوحا لهم، وتناولوا الكنافة اللذيذة قريري الأعين قانعين، شاكرين الله في سرّهم لأنّه وهبهم هذه الليلة أيضا طبقا آخر من هذه الحلويات النادرة، وبعد ذلك انسلوا بخفة قافلين إلى بيوتهم، لكنّ بعضهم دخل إلى خيمةِ مرشحٍ آخر، كانت فًي طريق العودة، وذلك للجلوس قليلا وتناول صحنٍ إضًافيٍّ من الكنافة قبل وصول البيت والخلود إلى النوم باكرا، للنهوضً منذ الفجر إلى أعمال الصباح الحيوانية.

obeikan.com

obeikan.com

ضباب مُلتبس

وبعد أن عدل العقيد عن الخروج من المقهى، لا وفقًا لإرادته، وإنما بسبب صبغ الرجل للأمر بصبغةٍ رسمية ملزمة، جلس على الكرسي وقال مستفسرًا:

– هكذا إذن. وما هي التهمة الموجّهة إلي، من فضلك؟

ابتسم الرجل في شبهِ عتمة المقهى. وعرف العقيد ذلك النوع من الابتسامات الكذوبة المصطنعة بعناية، فكثيرا ما صادف مثل نوعها أثناء عمله مع المسؤولين، والضّباط الأكبر منه والأصغر. قال:

– ها نحن نتحدث أثناء اللعب أيها العقيد، ستعرف كل شيء مني الآن، لكن ارمِ الحجرين من فضلك.

– لكنني لا أُريد أن ألعب الطاولة مع سيادتكم، أتيت إلى هنا لكي آخذ بعض الراحة وأدخن النّرجيلة بهدوء. لذلك أخبرني الآن، ما هي التُّهمة؟

أغلق الرجل طاولة الزّهر. قال:

– أتدري، حتى إنني لا أجيد هذه اللعبة، لكنّي سأكتفي برمي الحجرين فقط وأنت تعلمني. فلا بد أنك أصبحت ضليعا بها، أيها العقيد.

– اسمح لي أن أقول لك: لقد خاب ظنك إذن، فلستُ بمزاجٍ

جيد، لتعليم أحد طاولة الزهر.

قال الرجل:

- حسنا أيها العقيد، وبناء على مزاجك غير الجيد، فلنترك اللعب جانبا، لكن دعني أخبرك بشيءٍ ما، فأنا أجيد قراءة الطالع من حجري النرد فقط.

قال العقيد:

- هواية جيدة، إنها نادرة كما أعتقد، أتمنى لك مستقبلاً زاهرًا فيها.

ونظر إلى عيني الرجل ببرود. قال الأخير:

- أجل، المستقبل لهذه الهواية، شكرا أيها العقيد.

ثم قام برمي الحجرين، وقرأ الأرقام، وفكّر قليلا، قال:

- ثلاثة زائد خمسة، يساوي ثمانية، يبدو لدي، أنه عندما كنتَ صغيرا، ربما في الثامنة من عمرك، أيها العقيد، كنتَ تزعج الأهالي، وتُخرّب محاصيلهم وأنت تركب على قصبةٍ طويلة، تركض في حقولهم كفارسٍ مغوار، وتتلف سنابل القمح والشعير.

توسّعت حدقتي عينيه، فهو بالكاد يذكر تلك الطفولة الموغلة في الزمن، وتابع الرجل:

- أخشى أنك تنكر ذلك، أيها العقيد؟

- إنني في العقد الخامس من عمري، وأنت تعود بي إلى الأول،

obeikan.com

لا أذكر شيئًا مما تقوله، بطبيعة الحال.

قال الرجل:

- لا يهم. دعني أُنعش ذاكرتك إذن أيها العقيد.

وتناول هاتفه النّقال، طلب رقما، وبعد أن أجاب الشخص في الطرف الآخر، فتح المحقق سماعة الهاتف الخارجية، وقال:

- كيف الحال، أيها المختار صقر السالم، تحياتي لك، هل تستطيع أن تذكرني، ماذا كان يفعل العقيد في طفولته؟

- كما قلتُ لك، كان يركض، راكبا على قصبته، في حقول الأهالي، ويقطع بسيفٍ خشبي سنابل القمح ويُتلفها، ولا أحد يتمكن من ردعه، ويسرق الدّراق من بستان الجامع؛ الدراق المخصص من جهازكم للإمام، ومن وقت لآخر كان يذهب إلى خيمةِ الغجر، لتعلمه الغجرية العاهرة بعض الموسيقى. ولا أدري بالتحديد إنْ كان يفعل معها أيّ من تلك الأمور المخلة بالأدب والحياء! وكان قد انبطح على ظهره أمام شاحنات الاسمنت الكبيرة في ذلك الاعتصام الذي أخبرتكم به.

- شكرا أيها المختار.

وأنهى الرجل الاتصال.وبكل هدوء، قال:

- لقد سمعت كل شيء بأذنك. كيف تُفسّر هذه الطفولة المستشرة، أيها العقيد؟

وبشكلٍ مفاجئ، شعر العقيد بالمقهى وقد بدأ يمتلئ بالضباب الذي لا يعرف مصدره، ضباب ملتبس كالغوغائية، ورغم البرودة، إلا أنه

أحسّ بحرارةٍ تزحف على جلده من تحت الثياب،أغمض عينيه وفتحهما عدة مرات، ونظر إلى المروحة المعلّقة في السقف، ورأى أنها لا تقوم بعملها على أكمل وجه، وخطر بباله أنه كان ينوي تمرير تلك الملاحظة لحسان بيك لكي يقوم بتجديدها، وتركيب واحدة أكثر حداثة. أخرج منديلا من جيبه ومسح جبهته المتعرّقة، وقال للرجل:

– هل تلاحقني بسببِ طفولتي؟ هل يعقل أن يحاكم الإنسان على تصرفاتٍ صبيانية قديمة؟ لقد مضى عقود على ذلك، سيادتكم.

ابتسم الرجل، مرة أخرى، تلك الإبتسامة الجاهزة. قال:

– لماذا باعتقادك نكلّف أنفسنا جمع كل تلك المعلومات عن حياة الأشخاص منذ الطفولة؟ هل هي هواية مُحبّبة لدينا على سبيل المثال؟ هل نتقاضى أجرا من خزينة الدولة على ذلك العبث؟ إننا نعلم تماما أنها أياما مضت أيها العقيد، لكنها مضت كتاريخ فقط، أرقاما سُلخت من فوق رزنامة الحائط، وهي الآن أفضل ما يًمكن الإعتماد عليه، إنها قطعا مكملة لأحجيةِ سلوكك الحالي، ومن الغباء المفرط أن تُترك بحال سبيلها. كأنك لا تعلم شيئا عن علم النفس! هذه الطفولة، هي ما أنت عليه الآن، تماما.

خيم صمتٌ مطبق على العقيد، قال أخيرا:

– وهل لديكم أدنى معلومة عن حياتنا البائسة منذ الطفولة؟

– تلك مسألة أخرى، أيها العقيد، لا شأن لنا بها.

أراد أن يقول بأن كل الشأن لكم، لكنه صمت، وذبذب يده أمام

obeikan.com

وجهه كمروحه، وتطلع بعينين منطفئتين معرورقتين إلى الرجل الذي راح يقذف الحجرين مرة أخرى، وقال متطلعا إليهما:

- لدينا هنا ستة وستة، حسنا؛ لقد حصلت، في الثانوية العامة، على معدل ٦٦ بالمئة.

قاطعه منتصرا:

- ٦٦،٥

ضحك الرجل:

- للأسف لا يوجد كسور في الزهر.

وتابع:

- المهم، أنك لم ترغب في دخول الجيش. فضّلت تعلم الموسيقى على ذلك، لكن والدك أصرّ وتوسّل لدى الجهات المعنية لكي يراك ضابطا لا بأس بك.

- أجل، لم أكن أرغب، كنت أحب تلك الغجرية في القرية، وقالت بأنها ستعلمني الموسيقى. ورغبت أن أدرسها أيضا.

- لا بأس، أيها العقيد، فلقد قرأت ذات مرة، أن الحبَّ والموسيقى وجهان للعملة ذاتها.

وتناول الرجل سيجارة من علبةِ سجائر أمامه، وسأله إن كان يرغب بأخذ واحدة، لكنه رفض، فلم يكن يرغب بالحصول على أي شيء منه، ولو بالشيء الضئيل التّافه على مستوى سيجارة، إنه، ومن منطلق

تحقيره للعمل الذي يقوم به معه الآن، لن يستسلم لأدنى المغريات، إنه يُدرك أنها تبدأ بسيجارة من علبة سجائر فاخرة في كثيرٍ من المرات، ومن ثم دعوة لعشاءٍ فاخرٍ أيضا، وقد يصل به الحال إلى أن يكون هو نفسه شيئًا قابلاً للشراء والبيع، وهذا مالم يكن أبدا في حسبانه بالمطلق.

ثم فرقع الرجل بإصبعيه في الهواء، وجاء شخص ما، من ناحية المطبخ، حدّق به العقيد وهو يمشي نحوهما، لم يكن زياد صبي المقهى، وفكر إن كان هو العامل الذي يغسل الكاسات والفناجين، لكنه لم يكن كذلك، كان عامل المطبخ شابا نحيلا مثل زياد، وساقيه، كما كان يلاحظ، وبالنسبةِ لجذعه، أطول من المعتاد، فقد كان يبدو كما لو أن ساقيه متّصلتان بصدره، أما هذا فقد كان فتىً سمينا بعض الشيء وقصيرا، وقرر أنه لا يعرفه، أو ربما يعرفه، لم يحر جوابا، زرّ عينيه وانتظر أن يتمعّن في وجهه أكثر عن قرب، وقال المحقق بعد أن أشعل السيجارة ونفخ سحابة دخان:

– أحضر لنا فنجانين من القهوة، واحدًا بسكرٍ خفيف، وللعقيد بدون سكر، بطبيعة الحال.

وأردف المحقق بصوتٍ واثق وأكيد، للشاب الذي هزّ رأسه مذعنا لطلبه، بينما العقيد ما زالَ يتفرّس في وجهه:

– ولا تنسى أن صديقي يشرب القهوة بفنجانٍ مضاعَف.

الصّمت المعتاد

الانتخابات البرلمانية

صيف ٢٠٠٧

تسرّبت للمقر الانتخابي، قبل يومين من الإدلاء بالأصوات، أنباء عن عمليات شراء منظمة للأصوات، تتم وفق خطة مدروسة وتحت سترٍ من الليل، عند ذلك، وعلى الفور، ذهب رئيس اللجنة، أمين المرزوق، إلى العقيد في مكان إقامتهما في البيت المتواضع الذي استأجراه، أخبره بأن ذلك اليساري، وبطريقة غريبة قد حصل على مبالغ، اللّه وحده يعلم من أين، يُصرف جُلهاً في شراء المئات من الأصوات،فغضب نايف بيك ولعن كثيرًا من الأشخاص والأقارب والأشياء المتعلّقة بذلك المرشح، والحزب الذي ينتمي إليه، أصرّ بأنه لا أحد غير "تشي جيفارا" يقوم بتمويله من الخارج، وكيف إذن يورد عباراته وأقواله في خطاباته كل ليلة، هل يتم هذا للّه فقط، ثم قرر بأن يُبلِّغ عن تلك التجاوزات لدى الجهات المعنية، لعلهم يقذفون ذلك الرجل، المستهتر بذمم النّاس البسطاء في غياهب المجهول من السّجون، لكنّ صديقه خرج عن طوره وصرخ:

– هل جننت؟

وأردف بعد لحظة صمت:

– المعذرة على الصراخ في وجهك أيها العقيد. لكن هل تريد

أن تبلغ الحكومة؟ إنك تقول طرفة بلا شك، ماذا ستفعل الحكومة؟ دعه يشتري كما يحلو له، لقد قيل لي أنه يحصل عليها بخمسين دينارا مقابل الصوت الواحد، سندفع خمسة وسبعين.

صمت العقيد متطلعًا من النَّافذة. قال على الفور:

- بماذا تهذي يا أمين؟ إنك تطلب مني ما لا أطيق، وما هو مؤكد أني لن أبيع وأشتري بذمم الناس-

قاطعه أمين:

- ومن قال إنك تبيع وتشتري بذمم الناس؟

التفت العقيد إليه، رأى عينيه، كانتا كعيني الحرباء الخادعةوالمتوسلة، قال له:

- أنت تقول هذا الآن. تطلب مني أن أتصرف مثل ذلك الخائن، وأن أقوم بشراء الأصوات من الناس.

- أنا لا أقول ذلك. إنما أقول إن الناس هنا بحاجة ماسة للمساعدة، وباستطاعتك أن تقدم هذه المساعدة لهم. ماذا يريد هؤلاء الناس من السياسة في عمّان؟ قدّم لهم خدماتك المسبقة، على شكل مساعدة إنسانية وينتهي الأمر.

- بالطبع لا. هذه عملية غير مقبولة، تغلفها بما تدعيه الآن؛ مساعدة إنسانية، وهل تظن أنني سأقدم على هكذا فعل؟

- لا تتهور، وتفهم الأمور بشكل خارج عن سياقها الصحيح،

أنت، بموقفك هذا، تجعل الأصوات تضيع منا، سنخسر كل ما جئنا لأجله، ونعود أنا وأنت كالأبلهين إلى بيوتنا.

قطَّب العقيد جبينه، أكمل أمين:

- فكر في الأمر، نايف بيك، بطريقة مختلفة، إنك وبحكم بعدك عن هؤلاء الناس منذ زمن بعيد، لم تتمكن من العمل بطيبة قلبك و تقديم أي شيء لهم، وها أنت في هذه الفرصة المناسبة، تقدم لهم نقودا، ليس لشيء، وإنما لأنك لا تدري ما الذي يحتاجونه بالتحديد، إنهم أدرى بحاجياتهم، فليأخذونها، ويبتاعون ما يحتاجونه هم، لا ضرر في ذلك. ثم إن الصوت الذي تفقده، يضاعف الفارق بينكما لصوتين.

وأشار بإصبعيه السبابة والوسطى في وجهه العقيد نايف، شرد الأخير بتفكيره، مشى قليلا ونظر من خلال النَّافذة مرة أخرى، عند ذلك لاحت له صورة الفشل الذريع إن هو خُذل في هذه الانتخابات، إن مصيبة أخرى، بعد تلك الإقالة من الجيش، ستنهال عليه مثل كومة من النفايات الرطبة، ماذا لو حصل ونجح ذلك المرشح، وأطلق الألعاب النارية في تلك الليلة الظَّافرة، كيف هو حال نايف بيك عندها، يجلس وحيدا فوق الأريكة في عتمة غرفته، يبكي مثل النساء، يُجهش واضعا يديه فوق وجهه، ويهلُّ الدموع تلو الدموع.

واستغلّ مدير الحملة، صديقه أمين، هذا الشّرود والتّفكير المسهب من قبل نايف بيك، فأضاف المزيد من التّشجيع للفكرة:

- فكر بالخسارة؛ الخسارة المؤلمة - لا سمح الله يا رجل-

كيف يا ترى هو موقفك ومكانتك عند الناس آنذاك؟

ثم جال حول نايف بيك، وهمسَ في أذنه وهو ينظر من خلال النَّافذة:

- الوقت ليس لصالحنا،أبدا، أيها العقيد.

وبقي الأخير شاردا، أضاف المعلم أمين:

- ندفع اليوم لهولاء الناس من هذه الأعطيات والمساعدات الخيرية، وغدا تجلس واثقا كألمع ما يكون الأشخاص، تحت قبة البرلمان.

عند تلك اللحظة، شعر العقيد بتشويش الرؤية، فأشار لصديقه أن يخرج ليتركه مع نفسه بعض الوقت، ولما همّ الصديق أمين بالخروج، أومأ بعينه للقزم الواقف على كتف العقيد اليُسرى، ونهض الأخير بعد أن كان مستلقيا على ظهره واضعا ساقا فوق الأخرى، لكي يقوم بعمله على أكمل وجه، وبعد أن خرج الصديق وأغلق الباب خلفه بهدوء، زفرَ نايف بيك، زفرة طويلة مليئةً بالشَّجن؛ زفرة الحائر المغلوب على أمره، فهو لا يقدر على سلوك مثل هذه المسالك، لكنّه، وبناءً على نداءات خافتة بدأت تأتي إليه من ناحية الكتف، أدار وجهه وأنزله إلى اليسار قليلا، وقطّب جبينه وأصخى السمع لينصت للهمسات التي كان يهمسُ بها نايف صالح الصغير، ذو الوجه الأسود، الواقف على كتفه اليسرى. قال له:

- لماذا أنت في حيرة شديدة من أمرك؟ إن ذلك ما هو إلا مساعدة انسانية خيّرة.

فهمس العقيد متسائلا:

- تقول مساعدة إنسانية خيرة؟

- بالتأكيد، مساعدة إنسانية لقاء وقفة الناس معك، وتكلفهم عناء الذهاب منذ الصباح للإستماع لخطبك النيرة في المقرّ الانتخابي، والتهام الكنافة الساخنة. فتوكل على اللّه إذن.

- أتوكل على اللّه؟

وأكدّ نايف صالح الصغير، و هو يقف على رؤوس أصابعه ليتمكن من الوصول إلى أذن العقيد:

- بالتأكيد، توكل على اللّه وساعد هؤلاء الناس، واستدعي المعلم أمين ليقوم بذلك على بركه اللّه.

وأدار نايف بيك وجهه متطلعا إلى المدى، ومفكرا بتلك الكلمات التي قالها ذلك القزم في داخل أُذنه بالتّحديد، وتيقَّن بأنها، أولا وأخيرا، ما هي إلا مساعدات نبيلة تُدفع سلفا للأهالي الخيريين المحتاجين لها في الأصل.

لذا قام العقيدبصرفِ خمسين ألف دينار لأمين المرزوق، لكي يجول منذ اللحظة، ويجمع أَكبر قدر ممكن من الأصوات، كل ما هنالك بأن أحدهم يقبض المبلغ، ويقسم بكل خشوعٍ على كتاب اللّه، بأن يُدل بصوته لنايف بيك وليس غيره.

أثناء عملية الإدلاء بالأصوات، جال العقيد المتقاعد على صناديق الاقتراع، يبتسم للواقفين في الطّوابير، يُصافح بيده شخصيا الكثير

منهم، حتى إنّ بعضهم قد ظفر بربتةٍ من يد نايف صالح على كتفه، وراح يقف قليلا في حلقاتٍ دائرية مع مجموعات من الأشخاص المحبّين له، يعدّل من وضعٍ ربطةِ عُنقه، ويدسّ قميصه في بنطاله، ويتنحنح قبل أن يخطب فيهم خطبا صغيرة لضيقِ الوقت، واستجابةً لهمسات أخرى من القزم الواقف على كتفه اليسرى؛ أن يوصل للأهالي سلامات حارة من المدعو "تشي جيفارا" ،فقد أورد لهم العقيد بعضا من أقواله، التي أسعفه الحظ في تذكرها، وأخبرهم أنّ هذا الرجل المناضل، يُبلّغهم تحياته، وأنه شخصيا قد بارك له، باتصالٍ هاتفي من الخارج، وأيّد ترشّحه لهذهِ الانتخابات الثورية، وطلب منه أن ينقل لهم حديثه:

– كل ما عليكم فعله، هو أن تستمروا في الوقوف وتحمل صلية الشمس لتدخلوا وتنتخبوا قائدكم الأول؛ العقيد نايف. أن تسجلوا اسم نايف صالح الصالح في ورقة الإقتراع.

وراح يكمل جولته التّفقدية المضنية، ويقول لكل من يقابله بعض العبارات الإضافية التّشجيعية التي يقتبسها من أقوال "تشي جيفارا" أيضا، ورأى عجوزا ضمن المتواجدين، بالكاد يجرّ نفسه مستندا على عكازه، لكي يُدلي بصوته كغيره من النّاخبين، وهمس في أذنه:

– أيّها الشيخ، هل تعلم ماذا يُردد شيفارا دائما لأولئك المسنين أمثالك، إنه يقول: أنتم التاج المرصع فوق رؤوسنا، لكم نرفع القبعات.

ثم رفع يده إلى رأسه ليرفع القبعة العسكرية، لكنها لم تكن هناك،

مسّد على صلعته وابتسم.

زرّ العجوز عينيه متطلعا إلى وجه العقيد، بظهرٍ محني، ثم دسَّ العقيد نايف صالح، عشرة دنانير في يده العظمية، وهمس في أذنه مرة أخرى:

- إن كنت لا تحُسن الكتابة، فلا تنسى؛ نايف صالح، اسمي نايف صالح، قل للرجل المسؤول في الداخل أنك أتيت لكي تنتخب نايف صالح، قل ذلك بصوتٍ عال.

هزَّ العجوز رأسه، وزرَّ عينيه المجعدتين مبتسما في وجه العقيد ودخل إلى القاعة المخصصة للإدلاء بالأصوات، كان يريد أن يقول؛ بأنه لا يسمع، بطبيعة الحال، إلا إذا صرخ أحدهم بصوت عالٍ في أذنه، لكنه تكاسل وفضَّل الصَّمت المعتاد، وكان العقيد نايف قد تركه ومضى لينشر الحماس والتفاؤل.

obeikan.com

العقاب آكل السّمك

فكّر العقيد بتوتر، ممسكا فنجان قهوته بيده اليمنى، وباليُسرى يدير الصّحن تحته كالرّحى، بشأن الرجلِ ثقيل الظل، بينما يشرب الأخير من فنجانه بهدوء ويمج من سيجارته؛ لماذا يفرض حضوره عليه؟ إنه لم يقم بأي جريمة أو جنحة تخل بأي شيء، لقد أخذه على حين غفلة؛ اختار يوم اجازته المنتظر ويوم عطلة المقهى للقائه، وكيف جرت الأمور على هذا النحو؟ لو أنه بعث إليه خطابا لكي يحضر إلى مكتبه لكان تجاهله تماما، سيمسك به بعد أن يقرأه بعناية، ثم يضعه في المنفضة أمامه ويشعل النار به.

هل حسان بيك، أو أي من الرفاق على صلة بما يجري؟ فكّر بذلك، وتساءل، ماذا يريد منه في هذه السّاعة من ليلةِ السبت؟ فلعله ينصرف إلى التّهمة المباشرة ويُنهي هذا اللقاء اللّبط والمقرف.

أراد أن يسأله؛ من كان ذلك الصبي؟ هل يعمل هنا بدلا من زياد، الشاب اللطيف؟ هل تم الإستغناء عن خدمات الأخير لصالحِ شابٍ يتدحرج كفرسِ نهر ويجيد دوره كمخبر؟ وفكر لماذا يتحوّلَ جميع الناس من حوله إلى مخبرين؟ وما هو الشيء المطلوب الإخبار به؟ هل هو قضية لصالح الوطن أم لصالح الأشخاص المسيطرين على الوطن؟ وهل هناك مخبرين على المخبرين؟ ثم من هو المخبر الأخير الذي ليس عليه مخبر؟ ربما هو غير موجود، كالخلّ الوفي.

وحـاول أن يقول شيئًا طيبا في حقِّ زيـاد، لقد كـان متفانيا في عمله، إنه يتيم ووحيد لأمه، يُعيلها مع أخته الصغرى، بالإضافة إلى أنه يحفظ، كالآلة، أذواق الزبائن جميعهم، ولا يتأخر أبدا في جلب الفحم المشتعل للنرجيلة، ولم تندر عنه أية قرينة أو شيئًا يُثبت تورطه بالهمس في آذان رجال الأمن عن أحوال المتقاعدين في المقهى. قرر أن يناقش هذه الميزات ويطلب على الفور عودة زياد للعمل منذ صباح اليوم التالي، لكنه امتعض من فكرة أن يتوسّل إليه أو يستجديه على أيةِ حال؛ فليس له الحق في صرف موظفي المقهى وجلب آخرين قميئين بدلا منهم، وتساءل في نفسه إن كان صاحب المقهى، حسان بيك، على إطلاع بكل ذلك أيضًا. وفي الوقت ذاته، أراد أن يبدأ ثورته منذ هذه الليلةٍ، لا مزيد من التأخير بعد الآن، لن يكون أسد سيرك يحك رأسه في ساق المدرب، مبديا مزيدا من التودد لكي يؤمن له بعض الحماية والخدمات والطعام الإضافي، بعد أن كان حرا طليقا يملأ زئيره أصقاع الغابة، إن كانت القطة قد تحولت إلى سنّور كبير، فلن تؤول إلى حيوان السرك ذاك، الذي يقفز من خلال الحلقات المشتعلة ويصفق له الجمهور المنبهر، ثم يعود إلى قفصه، مطأطئً رأسه، من جديد.

أراد أن يُمسك الطاولة بكلتا يديه، ثم يقلبها دفعة واحدة بما فوقها في وجهه، ثم يلكمه على ذقنه الحاد عدّة لكمات، وفكر لو أنه أحضر "هراوة خرطوم الفيل" معه هذه الليلة، لقام، بضربةٍ واحدة فقط، بما يجب، أو لعله لا يُقدم على فعل ذلك، ويستعيض بدلًا منه، بشتمه على الأقل شتيمتين أو ثلاث، ثم ينصرف عائدًا إلى بيته.

لكنه عدَل عن ذلك بعد أن وفرّ عليه الرجل الدخول في معمعةٍ ليليةٍ

obeikan.com

كهذه، فقد هرس عقب السيجارة في المنفضة، أغلق طاولة الزهر، وتوقف عن مسرحية قراءة الخبايا بواسطةِ حجري النرد. وتحت الإضاءة البرتقالية الخافتة كما لو كانت شمعة توزع نورها الركيك على الموجودات، التفتَ برأسه وخاطب العقيد:

– وأثناء أخذك لدورةِ غطسٍ في خليج العقبة، وأنت ما زلت تلميذا في الكلية العسكرية التي دفعتً عليك مبالغ باهضة، تسللت إلى المياه الأقليمية الاسرائيلية، بحجةِ أنك تتبع دلفينا صغيرا أعجبك شكله. لكنهم تفهموا عملك، ولنقلَ أنه بين قوسين، عملٌ بريء، وأعادوك إلينا.

ثم قال الرجل متسائلا:

– لماذا تسللت إلى هناك؟ هل فعلا رأيت دلفينا صغيرا، أيها العقيد؟

أجاب بهدوء:

– أجل. كان دلفينا صغيرا. لكنهم كذبوا بشأن وجوده، وسرقوه أيضا.

هزّ الرجل رأسه عدة مرات يمنة ويسرة وهو يتطلع إليه. قال:

– دلفينا في العقبة؟

– أجل، دلفينا صغيرا في العقبة، رأيته بأم عيني.

تابع الرجل الحديث:

- لا يهم، ولا يعنيني إن كنت تطارد دلفينا أم فيلا،فهذا ليس صلب موضوعنا، لكن تذكّر أن ذلك يبقىكقطعةٍ أخرى من قطع الأحجية؛ دخولك إلى مياه دولة مجاورة. وأثناء الدورة نفسها، تقول للمدرب الأمريكي، الذي كان يحذرك من قدوم بعض الأسماك إليك من الخلف لكي لا تعضك في مؤخرتك؛ بأن بحرا واحدا بيننا وبين العدو، ولا تعيش فيه أسماك لأنه ميت، وعندما عدت إلى عمان، وجدت كتاب تنبيهٍ بانتظارك.

ورفع عينه مرة أُخرى، واستطاع العقيد أن يرى، بسببٍ من ضوء المطبخ الخافت والقادم إليهما، أنهما عينان واسعتان وبنّيتان على أقرب تقدير. قال الرجل بعد لحظة صمت وتفكر:

- لماذا لا تعمل في وزارة الخارجية، أيها العقيد؟

نظر إليه الأخير نظرة استفهام، فكّر بسؤاله ومدى جديته، وإن كان بإمكانه أن يأخذ نصيحته على محمل الجد، وأن يطلب منه بعض التّوصيات والوساطة، لكي يعمل في وزارة الخارجية، مستشارا على سبيل المثال، أو سفيرا فوق العادة، هل يؤجل موضوع الثورة إلى أجلٍ آخر أو يتنازل عنها؛ ثم يذهب إلى البيت ويحضر له ملف أوراقه وشهادات الخبرة لكي يضعها في حوزته، هل يعتذر منه ويُقر بأن كل ما كان يقوم به ما هو إلا نزوات عابرة لن تستمر، وأنه ومنذ لحظة بدء عمله في تلك الوزارة، لن يكون إلا رجلا مخلصا ومنتميا لوطنه وقيادته حق الإنتماء.

لكنّ الرجل وبعد أن مجّ من سيجارته ونفث الدخان، أكمل قبل أن

يقول العقيد أي شيء:

- ومن هناك، أيها العقيد، تتأنق؛ ترتدي ربطات العنق الفاخرة وبينما تتحدث باسم الدولة؛ تُحدد العدو من الصديق!

تململ العقيد في كرسيه الخشبي، الذي بدا له اليوم بالذات أنه مزعجٌ جدا وغير مريح للجلوس عليه، وبّخ نفسه على سذاجته في الأمور التي فكر فيها للتوّ، حول التوصيات من قبل هذا الذي يسخر منه الآن، وسأل على سبيل اللياقة فقط، وهو يخرج علبة سجائر، إن كان بإمكانه أن يدخن، فأصرّ الرجل أن يدخن العقيد من دخانه الخاص، وأشعل له السيجارة بنفسه، ودخل الشخص بفنجاني قهوة، وضعهما بهدوءٍ أمامهما، وبعد أن رشف المحقق من فنجانه، قال:

- سنكمل أيها العقيد، لا وقت لدي. وبعد يوم أو يومين من تقاعدك، ضاجعت بائعة هوى جميلة كانت، وبمساعدة من صديقك أمين، قد وهبت نفسها إليك، قمت بإهانتها فيما يتعلق بأنوثتها ومن ثم حملتها على كتفك، ككيسٍ من البصل، وطردتها شرّ طردة. حتى أنك لم تُحاسبها على الأشياءً التي قمتَ بها معها!

- لقد دخلتِ بيتي دون علمي. ثم إنني لا أُمارس الرذيلة مع بائعات الهوى. فأنا أُحب زوجتي المتوفاة،ولو دخلت بيتي، لرأيت أن صورها معلقة في كل الأنحاء.

هزّ المحقق رأسه متفهما. تابع:

- فليرحمها الله. جميلٌ هذا الإخلاص منك أيها العقيد؛ أن تبقى تحبها وتعلق صورها في كل أنحاء البيت. لكن اسمح لي أن أقول

بأنك تعرّيت ومارست الرذيلة بشكلٍ جيد.

تململ العقيد في الكرسي:

- كانت نزوة سريعة.

- فلتكن مهما تكن، لا شأن لي بنزواتك السريعة، كما تعلم أيها العقيد، إنما هناك شكوى مقدمة من قبلها، وفحواها أنك اعتديت عليها في منزل المعلم أمين وبحضوره.

- إنه تلفيق وكذب من عاهرة مثلها، لم يحصل ذلك أبدا، فلتقدم ما شاءت من الشكاوي، ثم إن هذا حصل منذ زمن.

- ربما إنه قد حصل منذ زمن، لكنه ليس بالزمن البعيد جدا، والشّكوى لا تسقط بالتّقادم أيها العقيد، وكان صديقك قد شهد بذلك أيضا. ولك أن تتخيّل معي حجم الإشاعات التي ستُطلق ضدك، ليس من قبلنا- لا قدر الله- إنما من قبل الفضوليين الأوغاد، ومن كل من يرغب بمهاجمتك سرا على الأقل، وستمتلئ المواقع الإلكترونية بأخبار من قبيل؛ العقيد يدير شبكة للدعارة! العقيد يعتدي على فتاة قاصرة ويفضّ بكارتها! لقد كانت صغيرة تلك المسكينة، لم تتجاوز الثامنة عشرة.

- كاذب هو الآخر. إن هذا لم يحصل أبدا، ثم ماذا بوسعك أن تفعل مع فتاة وقد وجدتها تنام شبه عارية في فراشك؟

قال الرجل:

- لا عليك الآن، لقد طلبنا منها أن تعدل عن تلك الشكوى،

obeikan.com

في الوقت الراهن على أقل تقدير. لكنه وبعد فترة قليلة من تقاعدكِ، قمت بالاعتداء على قائدك في مقرّ عمله في القيادة العامة. بصقتَ عليه مرتين وشتمته بما لا يليق، ولولا تدخل الأصدقاء واسقاط الحق الشخصي من قبله، لبقيت في السّجن، ليس ليوم واحد، إنما لشهرٍ على الأقل. ولقد تناسى المعنيون أن يضعوا قيدا فيً ملفك أيها العقيد، لذلك قد أقوم بتذكيرهم بذلك إن لزم الأمر.

- كان هو من تسبب في نكستي، وخروجي من حياة الجيش التي أُحب، لقد لفّق علي الأقاويل والأكاذيب.

- وليكن أيها العقيد، هل هذا يُفسّر سلوكا عدوانيا وهمجيًا كهذا؟ إن هذه قطعة أُخرى مهمة في تلك الأحجية.

وصمت العقيد، ورفع الرجل نظره من الورقة التي كان قد أخرجها من جيبه ووضعها أمامه، ونظر إليه من فوق النّظارة المنزلقة إلى أرنبة أنفه. أخرج العقيد دخانا كثيفا من فمه ولم يعلّق، رفع عينيه متأملا الدخان ووجده يصعد نحو السقف.

أعاد الرجل رأسه في الورقة. قال وهو يقرأ:

- بعد ذلك بعتَ سيارتك "الأوبل أسترا" البيضاء، وكذلك الأرض الوحيدة التي تملكها على طريق المطار بمبلغ جيد، وذهبت إلى بلدتك لكي تترشح للانتخابات النيابية بشكلٍ مستقل، لكنك خطبت خطبا ثورية في مقركِ الانتخابي، ونسبتها علانية إلى "تشي جيفارا"، ورغم اعتراض صديقك أمين، إلا أنك دفعتَ بعض الرشاوي لأشخاص يعملون في اللجان، ومن ضمنهم رجال شرطة فاسدين، وقمت أيضا

بشراء الأصوات. أليس كذلك؟

- لم أقم بالرشوة أو شراء الأصوات ولم يعترض أمين الكاذب على شيء.

شفط الرجل شفتيه إلى داخل فمه، وتطلع إلى ناحيةٍ ما من المقهى، ثم أعاد شفتيه لوضعهما الطبيعي، أمسك هاتفه، نظرً إلى العقيد، قال وهو يطلبُ رقما:

- أنت تُصرّ على أن أحرجك، أيها العقيد.

وعندما أجاب الشخص على الناحية الأُخرى من الهاتف، فتح المحقق السّماعة الخارجية، وقال:

- تحياتي أيها المعلم أمين،ما هي أخبارك؟

وجاء الصوت متلهفا من الناحية الأخرى:

- أهلا، أنا بخير وعلى أحسن حال. شكرا جزيلا لسؤالكم عني، أنا ممتن لكم.

نظر المحقق بعينيه إلى العقيد، وقال مخاطبًا أمين:

- لا عليك. لكن هل لك يا أمين، أن تُذكرني ببعض تصرفات العقيد فيما يخص ترشحه للانتخابات النيابية؟

- كما بعثتُ لك في الورقة المفصّلة، سبّ وشتم الدولة والسلطة، وخطب في مقرّه خطبا ثورية اقتبسها من شخص اجنبي اسمه تشي... نسيتُ اسمه، ودفع ما يقارب خمسين الف دينارٍ رشاوي وشراء أصوات! الأسماء مسجلة في الورقة، وطلب مني شخصيا أن

obeikan.com

أقوم بذلك، لكنني، كما تعلم، رفضتُ بشكلٍ قاطع، لذلك اتهمني بالسرقة.

- حسنا أمين، شكرا لك، إلى اللقاء.

صرخ العقيد واقفا في مكانه:

- أين أنت أيها الحقير؟

لكنّ المحقق كان قد أقفل الهاتف. تابع العقيد:

- لقد سرقني هذا الحقير الكاذب. وقد وكّلت صديقي المحامي وبدأتُ برفع قضيةٍ ضده.

قال المحقق:

- اهدأ أيها العقيد، اجلس لو سمحت، ما زلنا نتكلم بهدوء، لقد ترك العمل في المدرسة، وذهب ليعمل في الخارج.

شعر العقيد بالظمأ، جفّ حلقه، زرد ريقه بصعوبة، وطلب أن يشرب بعض الماء، ومن جديد فرقع الرجل باصبعيه وأتى الشاب قادما من المطبخ، وأحضر له كوب ماءٍ بارد، وكان قد بدأ يشعر بنمنمةٍ وتيبّس في أطراف أصابع قدميه. قال المحقق:

- لقد شتمتَ الدولة آنذاك، أليس كذلك؟

- لا أذكر، فالإنسان لا يتذكر لحظات الغضب.

- ولكنني أؤكد لك أنها ليست لحظات غضب، فقد كنت في زهوٍ كبير، وتخطب في مقرك الانتخابي.

obeikan.com

- الزهو والغضب، شيء واحد. ثم إني لا أذكر شيئًا، لقد سرقني أمين، أخذ مبلغا كبيرا لمستلزمات الدعاية الانتخابية وتقديم المساعدات للأهالي كما أقنعني هو، لكنه هرب به.

ومرت دقائق صمت، كان المحقق خلالها حانيًا رأسه ومتطلعًا إلى الورقةِ أمامه، ووجدها العقيد فرصة لتأمل وجهه دون أن تتلاقى أعينهما، وَفكّر، ناظرا إليه، بأنّ هذا الرجل يُشبه شيئًا ما يعرفه تماما، وخلصَ أخيرا إلى أنه وبسببٍ من أنفه الطويل المعقوف، لو يُقدِم على حلق شاربه لكان أقرب ما يكون إلى وجه العقاب آكل السّمك، الذي كان في الفيلم الوثائقي الأخير، ورآه في منامه ليلة الأمس فقط؛ لقد كان يتابع برنامجه المفضل على القناة الوثائقية، الغرفة معتمة، لا إضاءة غير تلك المنبعثة من شاشة التلفاز، العقيد مستلق على الأريكة، تتراقص الأضواء على وجهه. الكاميرا تتابع عقابا حطّ في الظهيرة على قمة الشّجرة، متطلعا برأسه كطائرة الكونكورد هنا وهناك، الكاميرا ترصد سربًا من الأسماك المسرعة في تيار النهر، يقفز العقاب وينقضّ من الأجواء، لكنه بدلا من الغوص لالتقاط سمكة بمخالبه، يخرج من الشاشة فاردا جناحيه نحو العقيد بالتّحديد، يفزع الأخير ويتخبّط بيديه متفاديا الهجوم، يستيقظُ أخيرا بحلقٍ منشرخٍ وجاف.

قال الرجل بعد أن أمسك هاتفه من جديد:

- حسنا أيها العقيد.

وطلبَ رقمًا آخر:

– كيف الحال، أيها الشيخ أبو المؤمن؟ أرجو أن تكون بخير.

وبلهفة أخرى، قال الرجل:

– أهـلا سيادتكم. الحمدلله على أحسن حـال. أشكر لكم سؤالكم عني.

– هل ما زلت تذكر ما الذي قاله العقيد، فوق المنبر أثناء الانتخابات النيابية؟

– طبعا، وكما بعثتُ لك في ذلك الوقت، فلأنّي كنت قد تأخرت في بيتي لأمرٍ هام وعائلي، فقد استغلّ تأخري لبعض الوقت عن موعدِ الخطبة، التي هي عملي بطبيعة الحال، ثم غافل الناس وصعد إلى المنبر، ودون مقدمات بدأ يصرخ بأن هذه الحكومة تديرها ثلة من اللصوص، وأنهم جميعا من أعوان الشيطان، وسبّ وشتم من فوق المنبر والعياذ بالله، إلى أن صعدتُ إليه بعد أن جئت راكضا، وطلبت منه بكلِ غضبٍ أن ينزل، وهددته أن أسحله من فوق المنبر إن لم يفعل.

obeikan.com

obeikan.com

الأموات يقترعون

كانت اللجنة المشرفة على حملة انتخاب العقيد، قد اهتدت إلى طريقة جيدة للتلاعب بأعداد الأصوات، فلمّا كانت بطاقات الناخبين الشخصية تُختم بمِكبسٍ حراري يجعل جزءًا صغيرا منها نافرا على شكلِ دائرة صغيرة كإشارةٍ واضحة على أن هذا الشخص قد أتمّ الانتخاب، وذلك منعا للتكرار من قبل الناخبين، فإن العقيد نايف صالح، وبناء على توصيات من المعلم أمين المرزوق، وأخرى أشدّ صرامة من القزم الواقف دائما على الكتف اليسرى، كان يُشرف بنفسه على عملية كي عدد لا بأس به من هذه البطاقات لكي تعود كما كانت، ويصار عندئذ إلى الإقتراع بها من جديد، وبلا رهبة أو خوف من الرقابة، لأن بعضاً من أفراد اللجنة الموكلة بالإشراف على الانتخابات قد قبضَ، على استحياء، مبلغا جيدا جدا من المال.

فقد جاء معلم التربية الوطنية باكرا إلى أفراد الشرطة الأربعة الموكلين بالحراسة وتفقد بطاقات الناخبين عند الدخول، وهمس لهم بخبر المبالغ المالية الجيدة التي سيقبضونها إن هم غضّوا الطرف عن بعض التجاوزات، لكنهم، وأمام جمع غفير من الناس، قد ركلوه بأحذيتهم السوداء اللامعة ركلات متلاًحقة على مؤخرته، أخذوا يقذفونه من واحدٍ لآخر، لدرجة أن الأمر قد نحى منحىً كبيرا من الخطورة، فقد اعتقلوه وأخذوه إلى سيارتهم المركونة في الجوار؛ كيف يجرؤ على قول هذه الأشياء لهم، هل وصلت به الوقاحة لرشوة رجال

الأمن؟ إنه في المكان ومع الأشخاص الخطأ إذن.

احتمل المعلم، داخل السيارة، ألم الركلات المتلاحقة واللكمات المتفرقة على أماكن مختلفة من جسده ووجهه، لكنه استطاع أن يتفادى ذلك ويهدّئ من روعهم، وذلك عندما أخرج رزمة من النقود من جيبه، وراح يُلوِّح بها في وجوههم، وهو يخبرهم بأن نايف بيك يُمثّل إرادة الدولة، ضد ذلك النائب اليساري الثوري مخترع شخصية "تشي جيفارا"، صمتوا قليلا وهم يتأملون الرزمة تتلاحق أوراقها في الهواء وهي مزمومة في يد المعلم، ثم أخرج رزمة إضافية وضعها لصق الأخرى ولوّح بهما أيضا، إلى أن أخرج أربع رزم، عند ذلك تنهدَّ أحدهم مُبديا ضجره وعدم رضا ضميره الحي نحو ما سيقبل عليه، ثم نظروا إلى بعضهم البعض بنظرات متفاهمة، وهزوا رؤوسهم، وقالت ألسنة حالهم: إننا موافقون مثلما ترى، ثم قال الضابط المسؤول، وهو ملازمٌ أول والبقية أفراد عاديون:

– كم هذه؟

على الفور، رد المعلم:

– ألف دينار لكل واحدٍ منكم.

اعترض الملازم رافعا حاجبيه إلى الأعلى:

– ألفان!، ولا تعتقد أنه يطولنا الشيء الكثير منها، هناك غيرنا يا صديقي.

وافق المعلم أمين، وتمّ الاتفاق أخيرا بينهم، سلَّمهم المبلغ كلّ

في يده، ابتسموا وضحكت أعينهم كذلك، فالغلاء لا يُطاق في ظلّ هذه الأزمة الاقتصادية الرهيبة، لا ضير من بعض النقود للتغاضي عن المكررين في التصويت، لا سيما بأن من يصوت له هو العقيد المتقاعد، ابن أجهزة الدولة وليس أيّ من أولئك المثقفين اليساريين المشاغبين، وذلك كما تمتم بعضهم لبعض، كنوع من اقناع أنفسهم بهذه الرشوة لكي لا تحمل قلوبهم الرهيفة وزر هذه الخيانة، وبما أن ذلك المرشّح اليساري، فقير ومعدم، فإنه قد بدا للمنسق العام للجنة نايف صالح، أن هذا النائب، ومن الواضح أنه لن يدفع، بطبيعة الحال، أي اتعاب إضافية في مثل هذه الحالات، لذا فقد كانت التنافسية على الرشوة معدومة، وغدا من اليسير، دفع مبالغ غير باهظة لغالبية العاملين في تلك المراكز الانتخابية المتعلقة بالمرشح نايف صالح، وحصل الأخير، عن طريق لجنته النشيطة، على أكثر من مئتي بطاقة لأموات متحللين جيدا، هم الآن في قبورهم يرقدون بسلام على شكل تلالٍ صغيرة من التراب العضوي، دُفع عشرين دينارا لكلٍ بطاقة منها، لكي تُستخدم فيما بعد، من قبل أشخاص أحياء، ضمن عملية التصويت، وأصرّت عجوزٌ، تعيش وحيدة في عزلتها كما لو أنها من الزمن الغابر، أن تبيع بطاقة زوجها المتوفى بخمسين دينارا لا أقل. صرخت بالمعلم أمين وهو يفاوضها مع مجموعة من الأشخاص العاملين معه:

- عشرون؟! ما هذه السخافة، خمسين لا أقل من ذلك.

وسكبتِ عدة دمعات على وجهها المجعد، وهي تقرفص، في دفء الشمس، على فرشةٍ ضئيلة السُّمك في مدخل بيتها وتحتسي الشاي،

لأجل أنها تذكرت مناقب زوجها العزيز، ولعنت الساعة التي تجعلها تبيع "صوت" زوجها المتوفى بعشرين دينارا لا غير، وقالت وهي تمج من غليونٍ قديمٍ طويل الذيل:

- لو كان زوجي العزيز على قيد الحياة، لما قدّم صوته لأمثالكم ولو بألفِ دينار.

وأكملت متمتمة بصوتٍ خافت:

- لكنها، واللّه يعلم، ذائقةُ اليد.

وأمسكت بالبطاقة، قبّلتها بحنان وأعادتها على الفور إلى مخبئها، داخل حمالة صدرها المترهل، وقالت لهم:

- إن كنتم تريدونها فادفعوا خمسين دينارا، غير ذلك، بامكانكم المغادرة. الباب يتسع لجمل.

obeikan.com

العقيد يخطب في المُصلّين

انحبستُ الأنفاس، عشية إعلان النتائج، على نحوٍ مقلق داخل الصدور، ولم تكن تخرج إلا بالقدر الضئيل أو على شكل زفرات عميقة. المقر شبه خال من الجماهير، كان المعلم أمين، وبعضٍ المؤازرين للعقيد يتابعون شاشة التلفاز بانتظار إعلان الأسماء، لكن التّوقعات جاءت مخالفة للأهواء،فثار العقيد نايف بيك لخسارته الفادحة والمؤلمة، وقام، على الفور، بإصدار "بيان رقم واحد"، يوبّخ به الدولة، ويصفها بالفاشية التي تتحكم في حريات الشعب، تزوِّر الانتخابات وفق ارادتها وكيفما تشاء، ولا تكفُّ عن التطبيع مع سارقي الدلافين المائية الصَّغيرة، وفتح سفارةً لهم، واستغل يوم الجمعة التالي للنتائج، وهناك، قبل موعد الصلاة بنصف ساعة، وضع خمسة وعشرين دينارا في جيب إمام وخطيب الجِامع في البلدة، الشيخ أبو المؤمن، لكن الأخير انتفضَ واستغفر الله عدة مرات، سائلا نايف بيك بجدية، ما الذي يفعله بالتحديد، وقال:

– لا يجوز هذا الأمر، معاذ الله أن آخذ مليمًا واحدًا منك نايف بيك.

وارتعش مثل حمامة تنفضُ البلل عنها، لكن نايف بيك ظلَّ واضعا يده فوق الجيب ومُصرا على الشيخ أن يأخذ النقود لأن لديه الكثير من الكلام حيال الفساد والفاسدين، والتحكم بمصير الشعب، وأن الله تعالى في عليائه البعيدة، لا يرضى هذا الأمر هو الآخر، لذلك

مسح خطيب الجامع، ذقنه الطويلة، ودسّ النقود في جيبه محوقلاً ومستغفرا بصوتٍ خافت، وجلس خاشعا في الصف الأول يستمعُ لخطبة نايف صالح وهو يمُسد ذقنه، ويهزٌّ رأسه.

وعندئذ، أخرج الورقة التي كتبها، الليلة الماضية، بالتعاون مع صديقه أمينٍ، وقال واضعا كلتا يديه على المنبر ومُتلفتا هنا وهناك، في وجوه المصلين، بينما هم يستندون بظهورهم إلى الجدران وأعمدة الجامع:

– أعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، بل سيئات أعمال الحكومة وأعوانها وأذيالها. أيّها الناس؛ إن شيفارا، لا يرضى الظلم أبدا، لقد هاتفني ليلة الأمس، ليقول لكم في مثل هذا اليوم العصيب، حيث أننا بالأمس فقط، تعرضنا لشتى أنواع القهر والطغيان: أيّها المصلون في جُمعكم المقدسة، ثوروا لدحر الفاسدين الأوغاد، لأن ذلك هو أقدس ما تفعلون!

وهتف المصلون، الذين فزعوا من نومهم، جراء صرخته:

– الله أكبر، الله أكبر، ولله الحمد

ونظروا تلقائيا إلى باب الجامع، لأنّهم اعتقدوا بأن "الكنافة" ستدخل عليهم ساخنة تلك اللحظة.

بعد انتهاء الخطبة التي لم تكن طويلة ومملة هذه المرة، وأثناء خروج الناس، دفعةً واحدة بعد الصلاة، كما لو كانوا جِمال سباق، فُتح لهم الباب للتو، وضع نايف بيك خمسة دنانير في جيب العم فارس ابراهيم، حارس المقبرة، المحاذية للجامع، رجلٌ ضخم وقصير،

وطلب منه أن يحمله على كتفيه العريضين لدقيقتين فقط، حتى يتسنى للعقيد المتقاعد اكمال الخطبة في هذه الجموع المتزاحمة عند باب المسجد، وقول المزيد من مآثر "تشي جيفارا" لأنّه لم يكملها فوق المنبر لضيق الوقت.

- لن أُطيل عليك ايها العم فارس، دقيقتين وحسب.

- لا عليك، أنا وكتفي وظهري في خدمتك نايف بيك.

وركب العقيد فوق كتفي الرجل، كما لو كان يركب فوق عجلٍ برّي، وبدأ بالصراخ وكيل المزيد من اللوم والتّوبيخ للحكومة، والعمٍ فارس ابراهيم، كما لو كان دابة عليها أحمالاً ثقيلة، تتذبذب قوائمها بسبب ذلك، وبعد أن احمر وجهه وارتفع الضغط في أوردة رقبته الغليظة، توسل إليه أن ينزل:

- لو أنك تنزل الآن نايف بيك.

والعقيد ما زال يصرخ، ولا يلقي بالاً لما يقول العم فارس. وقال الأخير مرة أخرى:

- أتوسل إليك أن تنزل نايف بيك، ما عدتُ كتلك الأيام السابقة!

وأخيرا نزل العقيد نايف، بعد أن تفرق الناسُ كلٌّ إلى شأنه، والعم فارس يريد أن يشتري، بتلك الخمسة دنانير، ملابس قُطنية داخلية وبعض الخضار والجرجير من الباعة، الذين يصرخون مُنادين الزبائن، عند باب الجامع.

obeikan.com

العقيد يورانيوم مُشع

عمّان

ذهب الصيف، وأوغل الشتاء بقسوته الإضافية على العقيد المتقاعد، كانت رياحه الباردة والجافة، تبعثُ على القشعريرة والإرتجاف، ونُدف الثلج التي تتساقطُ من وقتٍ لآخر، لم تكن من النقاوة بمكان أن تمسح ما علق من ضجرٍ وسأم في قلبه، إن ما يقارب الستة شهور، منذ خسارته في الانتخابات البرلمانية، قد مرَّت عليه كأنها سنوات كئيبة وطويلة جدا، كان يرفع خلالها الكثير من الدّعاوي والشكاوي على الحكومة والجهات المنظمة للانتخابات، ويستعين بشهودِ عيان، دفع لهم مبالغ محترمة بناء على نصيحة صديقه المعلم أمين المرزوق، لكي يشهدوا ضدّ تزوير النتائج لصالح المرشح الآخر، لكنّ ذلك كمن يمضغ لبانة لا تنتهي، أو يركض داخل كرة مُعلقة، لم يأت أبدا بنتيجة.

وهو الآن معتكفٌ في بيته، مثل فيلسوف قدير، وماذا يفعل هذا الأخير غير الشرود بالفكر، والتأمل المفرط في الملكوت من حوله، وراح يكتب في دفتره كل ما مر به من أحداث، يُسجل التواريخ باليوم والساعة، ويحتفظ بكل قصاصة جريدة ذكرت شيئًا عن ترشحه وسجالاته.

وأصبح للعقيد نمطٌ آخر من العادات، يبتلعُ حبةً من الأقراص المهدئة كل مساء، ثم ينام على وجهه في أيّ مكانٍ متاح في البيت، في الصالة فوق الأريكة، أو على أحد السريرين في غرفةٍ نوم الأبناء

obeikan.com

المفترضين، أو حتى فوق الأرضية المفروشة بالسجاد، يستيقظ باكرا بسببِ بقايا ذلك المنبّه المشوّه، وقد تملّكه التعب والإرهاق لقلة النّوم وعدم استمراريته الطبيعية، يحلق ذقنه ثم يأخذ حماما ساخنا، يخرج ويصنع لنفسه فنجانا كبيرا من القهوة، يجلسُ في الشرفة وحيدا كما لو كان في دارٍ للمسنين- رغم أن ذلك ينافي مبدأ الشُّرفة، فهي لم توجَد لكي يجلس فيها أشخاصٌ وحيدون- يُدخن بشراهة وهو يتأمل كلّ شيء أمامه، ثم يدخل إلى الأريكة، يُقلب محطات التلفاز، وتمضي الساعات دون أن يُشاهد محطة لأكثر من خمس دقائق مجتمعة.

وكان بذلك الحال المتعب، لا يخرج من البيت إلا لوجهة محددة؛ المقهى، مستمتعا بشربِ النرجيلة المعروفة نكهتها لدى النّادل مع فنجانٍ من القهوة أو الشاي، ثم يسلخ الليل منخرطا بلعبةِ ورق أو يلعب الزهرٍ مع أحدهم.

وذات مساء وبينما كان رئيس الوزراء يتحدث بكلمته الرسمية في مجلس النواب الجديد، ويُسهب في الحديث عن الأشياء التي درجت الحاجة على أن يوردها في خطابه بطبيعة الحال، كالإستثمار، واستغلال خامات البلاد، والنهوض بالوضع الإقتصادي من فوق الخازوق الذي يجلس عليه منذ زمن، وإنعاش السياحة بوضع خرقة مبللة بالكحول على أنفها، والقضاء على البطالة وتقليصِ شريحة الفقراء، شريحة؟ هذه الكلمة التي بدت للعقيد وكأنها تعني شيئا واحدا على أقرب تقدير، إنها شريحة لحم، وفكر بأن شريحة الفقراء، والتي هي في ازدياد دائم، هي شريحة لحم أيضا، تُشوى ببطءٍ وهدوء.

نهض العقيد من فوق كرسيه، كان هادئا ومنسجما في لعبةِ الزهر وقذف حجري النرد بصمت مطبق، قال: "لماذا لا تخرس؟ إلى متى سنستمر في الاستماع إليك وأنت تكذب؟" وعلى مرآى من جميع رواد المقهى، أمسك التلفاز بكلتا يديه، رفعه للأعلى ثم هوى به فوق البلاط، دوّا صوتَ فرقعة، لمعت ومضة كبيرة ثم خبت، وراح يدوس شظايا الشّاشة الزجاجية ويسحقها بحذائهِ لكي لا يترك مجالا لكلمة واحدة، والتفت إلى الزملاء المندهشين وهو يلهث والعرق يتفصّد من جبهته، وقال: "لم يستجب لطلبي منه أن يخرس" وغادر المقهى. وبعد ذلك قام حسّان بيك برفع التلفاز الجديد إلى حمالة حديديةٍ في الأعلى.

وقد صرف العقيد نايف الصالح معظم ثروته وما ادخره في تلك السّجالات النيابية الفاشلة، واكتشف مؤخرا حجم الخديعة والإحتيال الذي تعرّض له من صديقه وجاره في البناية، المعلم أمين المرزوق، فضاق الحال على العقيد في أشدّ أحواله ضيقا، كره كلَّ الناس من حوله، ليس من حوله فقط، إنما كل الناس على العموم، ولم يكن هناك أي مبرر مقنع لكرههم على هذه الشاكلة، سوى التّشاؤم الداخلي، وقد تفاقمت الأمور لديه، إلى أن أصبحت تُشكّل حالة لا تُحتمل؛ إنهم جميعا منخرطون في العداء ضده.

فذات يوم تشاجر مع شخصين كانا يجلسان قبالة بعضهما البعض في قاعة انتظار طبيب الأسنان، يتبادلان أطراف الحديث بهدوء، لكن المقلق في الأمر أن أحدهما يميل برأسه نحو أذن صديقه، ثم يتحدثان بصوت خافت، ولم يتسنى له، رغم أنه استجمع قواه الذهنية ووجّه كلَّ حواسه نحوهما، أن يسمع كلمة واحدة مما يهمسان به لبعضهما

البعض، وأخيرا تجاهل الأمر مقنعا نفسه بأنهما يتحدثان بأمر خاص، وأمسك بإحدى المجلات من فوق المنضدة، وراح يتصفحها ويُلقي بعض النّظرات على صور الفتيات وهن يبتسمن بينما يرتدين حمالات الصدر الملونة على شاطئ ما، كترويج لواقي الشمس ومراهم العناية بالبشرة، وأطال النّظر والتّمعن في كلٍ صورة، ولبرهة ارتخت تشنجاته الخفيفة، فقد شعر بجمالية الحياة وجدارة العيش فيها بسبب وجود فتيات بهذا القدر من الجمال والتأنق، لكنه وبعد أن أغلق الصفحة الأخيرة، وقبل أن يعيد المجلة إلى مكانها، ندت ضحكات خافتة عن الرجلين المتهامسين، وعندما نظر إليهما، تلاقت الأعين على وجه الصدفة بالتزامن مع تلك الضحكات المكتومة في البطن، وكان ذلك بمثابة سخرية موجهه إلى شخص العقيد، إنه موضوع التندر والضحك دون شك، فهذه إهانة لا تُغتفر، أن يتحدثا طيلة الوقت عن عسكري متقاعد برتبةِ عقيد. وأخيرا خبط المجلة على الطاولة الزجاجية بقوة، وقف وقال ناظرا إليهما:

– دعاني أخبركما بشيء أيها السيدان، إن الضفادع تُنقنق في المستنقعات العفنة، أما الرياح فتهدر بقوةٍ فوق الجبال!

ولما لم يفهم أي من الرجلين ما يقوله العقيد، رجل الوثائقيات، التزما الصّمت والنّظر إليه وهما يهزّان رأسيهما. لكنه تابع بالغضب ذاته:

– إن كنتما تدعيان الرجولة بما يكفي، فليخرج لي أحدكما خارج هذه العيادة لكي أريه من هو العقيد نايف على وجه التّحديد!

ونهض بعض الشّبان المتواجدين في صالة الإنتظار، وأمسكوا العقيد من يديه وحاولوا تهدئته وهو يشتم الرجلين، الغارقين في الذهول، ويوجه نحوهما يديه خلال التّلويح بهما، وخرج الطبيب، وأدخل زبونه القديم إلى مكتبه محاولا تهدئته.

وفوق الأريكة، كان يمضي أغلب جلساته البيتية، فطيلة أيام كاملة لا يفعل غير الجلوس والتدخين، وفي الزاوية المعتمة، ما زالتً البزّة العسكرية مُعلقة على المشجب، أنا مهترئة! كما لو كانت هذه الأنا المهترئة قطعةَ حديدٍ صدئة وباردة، ملقاةً بإهمالٍ على قارعةِ الطريق، ويفتح مزيدا من زجاجًات البيرة الخضراء، فقد أًدمن الكحولَ على أيةِ حال، وبشكلٍ أكثر بكثير من السابق عندما كان يشرب بمعدلٍ متوسط، ويمجَّ من دخانه مثل مدخنةٍ لا تتوقف، ويفكر بتلك الذكرياتٍ العسكرية المؤلمة، كيف كان يقضيً معظم أوقاته مع الرّفاق في المعسكر، يخضعون لأوامره الصارمة دون أدنى تململٍ أو تردد، يتجول بينهم ببزته الخضراء، يبثُّ فيهم روح الأمل والتفاؤلً، ويخبطون له التحية تلو التحية؛ حاضر سيدي!

ويلوح أمامه بصورة محزنة، كيف أنّ أحدا لم يعد يدقُّ الارض بقدمه ليضرب له مثل تلك التّحيات، التي لا تليق إلا بعقيدٍ جيد مثله، إن كلمته لم تعد مسموعه أبدا، ومن هو في وسط هذه الحياة الغريبة، غير نكرة حقيقية، لا أمل أن تُعرّف، لقد كان يدخل صباحا على زمرةٍ تُقارب الألف شخص، جميعهم، بالزي المهيب ذاته، تحت رهن إشارةٍ صغيرة من يده، أو كلمة واحدة تخرج من شفتيه إلى الأثير؛ تهيأ!

لكن ماذا الآن؟ إنه شبحٌ مريض قابعٌ بين أربعة جدران لا أكثر.

وبعد أن تشتدّ وطأة التفكير المقلق، وقبل أن تبتلعه الأفكار والهواجس في إعصارها المؤلم، الذي يخبطه هنا وهناك وهو على حاله مثل طوفٍ متهالك في قلب هيجانٍ بحري مهول، وفي غياب الكحول، يتناول العلبةَ من جيبه، حبَّات الدواء المهدئة والمثبطة للتفكير، وصفها له طبيب نفسي زاره العقيد نايف في ما مضى بناء على نصيحة سابقة، من صديقه أمين، وذلك عندما اشتد القلق والتفكير على العقيد، وداهمته قلة النوم في الأيام الأولى له من التقاعد المفاجئ، وكان كلُّ ما فعله الطبيب، أن جعل العقيد يُدمن عليه ويعتاد وجوده في جيبه دائمًا.

وبعد ربع ساعة تقريبًا، تكون حبيبات الدواء قد وصلت بنشاط إلى المراكز المطلوبة في دماغه، ويأتيه ذلك الشعور الرائع بالمطلَق، حيث عقله فارغ تماما من أي نوع سيءٍ من التفكير، إن الأفكار المؤلمة حد الإغماء، لم تعد تجد طريقًها إليه. يمدّ جسده ويستلقى فوق الأريكة، ثقيلا متكاسلا، يضع إبهامه في فمه. فالطفل الذي كان يفعل هذه الشيء في الزمن الماضي، راح يستيقظ في داخله من جديد.

وذات صباح، وبينما يُشعل العقيد سيجارته، ويحتسي القهوة جالسا على كرسيه في الشّرفة، يحدّق في السّماء الزرقاء الصافية، ويدفئ عظامه بشمسِ ذلك اليوم، رنّ جرس الباب رنّة واحدة، ولما وضع الفنجان بسرعة على صحنه فوق المنضدة، وفكر بأنه قد خُيّل إليه ذلك، جاءت رنةً قصيرة أُخرى تقطع الشّك باليقين، وكان ذلك نادرا ما يحدث منذ فترة ليست بالقصيرة، أن يدق جرس الباب ويأتيه زائرٌ ما، وفكر بمن عساه يكون هذا الضيف، إن الأصدقاء تشتتوا كلٌّ في

سبيل، ولم يوطّد علاقة جديدة منذ تأريخ تقاعده المشؤوم من الجيش، وفكّر، أيضا، بأنه لا يرغب باستقبال الضيوف اللذين يأتون وفق مزاجهم دون مواعيدٍ مسبقة، ألا يجدر بهؤلاء الأشخاص أن يحترموا كيان رجلٍ عسكري متقاعد، هل وصل به الحال إلى هذه المرحلة من قلة الإهتمام بشأنه ومكانته لكي يأتيه الضيوف، اعتباطا، ودون مواعيد مسبقة ومجدولة؟

وعندما نهض ومشي بهدوءٍ على رؤوس أصابعه، ونظر من العين السّحرية، رأى سيدة تقف بكاملٍ أناقتها المعهودة، ترتدي ثوبا أسود طويلا ومحتشما، بكمين طويلين، وتضع وشاحا صوفيا أسود كذلك يغطي صدرها ويديها. وفوق كتفيها، ينفلت شعرها البني القصير كالرّيش الناعم، ورأى في العدسة أنها اكتشفت وجوده المتلصّص، فقد راحت تُلوّح له بيدها مبتسمة، إنها الجارة التي تسكنُ في الشقة المقابلة تماما لشقة العقيد من البناية نفسها، وهي امرأة في أول الثّلاثين من عمرها، وكانت قد عادت مساء الأمس، فقط، من إجازة استمرت لما يقارب السّنة والنصف، أخذتها من عملها في أحد البنوك بدون راتب، وقد سافرت لتُرفّه عن نفسها لبعض الوقت عند ذويها في مدينة شمالي المملكة، وذلك بعد وفاة زوجها، صديق العقيد أيضا، فقد عانى في قسم العناية الحثيثة إلى أن مات جراء حادث مروري مروّع على الطريق الخارجي للعاصمة، وهو ما زال في أول الأربعين من عمره.

أدار العقيد المفتاح دورتين، وفتح الباب على وجه السّرعة، ابتسم هو الآخر من فرط سعادته الداخلية:

- مريم!

ضحكت المرأة بخفة، رغم مسحة الحزن المتبقية، كالطلاء، على وجهها، ومدّت يدها للعقيد. صافحها بحرارةٍ وطلب منها أن تدخل. قال:

- تفضلي، يا مريم، ادخلي.

ومطّ رأسه ونظر خارج الباب، قال:

- هل أنت وحدك؟

- أجل، نايف بيك.

هزّ رأسه:

- تفضلي إذن، ادخلي يا مريم

- شكرا، نايف بيك.

وقالت ملتفة إليه:

- كيف حالك يا رجل؟

وأردف وهما يتجهان نحو غرفة الجلوس:

- بخير. لكن لماذا كل هذا الوقت؟

ابتسمت مريم ونظرت إليه بعينيها. قالت:

- هل أطلت الغياب؟

قال العقيد:

obeikan.com

- بالتأكيد أطلت. لا بدّ أن الجلوس عند والدتك قد طاب لك.

- لا ليس هذا السّبب، إنما كانت أمي في حاجة ماسة لوجودي، قبل أن تموت منذ ثلاثة شهور.

توقف العقيد، نظر إلى عينيها:

- تقولين ماتت؟

- أجل، في المشفى، أصابها التهاب رئوي شديد.

ثم مدّ يده وصافحها من جديد، وربت على كتفها مواسيًا:

- أنا آسفٌ لذلك، فليرحمها الله في عليائه، إنه عام الحزن إذن يا مريم.

- لا عليك، لقد عانت كثيرا، فمنذ أن فارقها أبي قبل سنتين وهي في أسوء حال، لا بدّ لها أن ترتاح.

- أجل، إن الموت أصبح راحة جيدة هذه الأيام، وليس من السّهولة الحصول عليه.

وأخذ يقدم الإعتذارات لكركبة المكان، ويُعيدُ ترتيب بعض الأشياء المتناثرة، ويجمع الزجاجات الخضراء، والمنافض المتسخة وفناجين القهوة والشاي من فوق مساند الكنب والمناضد وبعض السراويل الداخلية المنشورة هنا وهناك. فسألت وهي تتلفّت وتتابعه متنقلا في أنحاء البيت:

- أين مليحة، نايف بيك؟ لا أراها!

obeikan.com

- لقد تركت العمل هنا، أنا بمفردي كما ترين، لقد ذهبت لتعمل في مكانٍ آخر، لكن لا يهم، تصرفي كما لو أنك في بيتك.

جلست مريم على حافة الكنبة، انتظرته إلى أن عاد وجلس قبالتها. تأملته لبرهة. رأت حجم الذّبول والشّحوب في وجه العقيد، قالت:

- تركتْ مليحة العمل؟ لماذا؟

- تركته وحسب، لم أعد بحاجة إليها.

كانت الخادمة العجوز قد ذهبت إلى شخصٍ آخر لتخدمه، فقد عجز العقيد أن يدفع لها مستحقاتها المالية:

- حليمة، يؤسفني أن أقول لك، أنه لم يعد بالإمكان أن أدفع لك مليما واحدا بعد اليوم. فأنت ترين بأم عينك،ففي كلّ يوم يبعثون لي خطابًا من أحد البنوك! ثم ما حاجة متقاعد بائس مثلي للخدمة؟

هزّت رأسها وفركت يديها المجعّدتين وهي تهمس بأشياء غير مفهومة، أضاف:

- أنا لا أقول لك، لا قدر الله، أن تغادري، فأنا لا أنسى تلك الأيام الرائعة التي قضيناها معا، كأخٍ وأختٍ كبرى له، لكنّ إن شئت بقيتي دون راتب، عيشي هنا.

وتلكأت العجوز من جديد ولم تحري جوابا، وهي التي تعيل عائلة ابنها الوحيد الذي مات شابا وترك طفلتين وزوجة، وبعد ثلاثة أيام، حزمت أمرها، ووقفت أمام غرفة العقيد، قالت:

- يؤسفني أن أقول لك بأنني أتألم كثيرا لفراقك، لأنني

obeikan.com

وجدتُ عملا آخر عند أحدهم، لذا علي الذهاب، وحتما سأزورك من وقتٍ لآخر، نايف بيك.

وهزّ العقيد رأسه، كما كان متوقعا، ولم يقل أي شيء، وكل ما استطاع فعله، أن وضع عشرين دينارا في يدها، وودعها بصمت، وبقلبٍ ليس بجديدٍ على الأحزان:

- في أمان اللّه.

صمتت مريم. أطرقت قليلا وهي تنظر للعقيد. قالت:

- يبدو لي أنك لست على ما يرام، نايف بيك.

- أجل، كما تقولين، لست على ما يرام، لقد حدثت أشياء كثيرة يا مريم. من أين يمكن لي أن أبدأ معك الحديث؟ لقد تهدّم بيت القندس!

ودخل لصنع فنجانين جديدين من القهوة. أحضرهما على صينية صغيرة، وراحا يرشفان القهوة وهما يتحدثان، وشرع العقيد، بعد أن جلس قبالتها على الأريكة، يحكي لها ما حدث من صبيحة التقاعد، حتى صباح هذا اليوم.

- هكذا إذن؟

قالت مريم.

- أجل، هذا كل شيء.

أجاب العقيد.

obeikan.com

– وماذا تنوي أن تفعل الآن، نايف بيك؟ لا أعتقد بأنك قد رفعت الراية البيضاء؟ هل فعلتها، هل رفعت أية راية بيضاء؟

اعتدل العقيد في جلسته، ونصب كتفيه بعد أن كانا متهدلين، قال:

– لا، بالطبع لم أرفعها، وهل أبدو كمن يرفع راية بيضاء؟

– لا يبدو ذلك، وكان هذا إيماني بك دائما. إنك من أجدر الأشخاص الذين عرفتهم في حياتي، عليك أن تشعل المصباح الذي على جبهتك وتبدأ بالمسير في السرداب من جديد.

تحسّس العقيد جبهته بيده، وقال:

– إنك تتذكرين مصابيح الرأس على ما يبدو؟

– وكيف لا أتذكر، إن كلماتك ما تزال ترن في أُذني كما لو أنها قد دخلتها الآن. وأذكر تلك الكؤوس الملآنة، لقد ساعدتني في محنتي أكثر من أي شيءٍ آخر نايف بيك. فيجدر بي أن أتقدّم بالشكر الجزيل منك الآن.

ومن جديد انتفخ صدر نايف بيك، وشعر بجرعةٍ من الهيبة والوقار تنسكب في أوصاله، وجاء ضبابٌ مبهم من ناحيةٍ ما ولفّه بين ثناياه على وجه السرعة، ومن الأعلى؛ من كنفات هذا الضباب، هبطت قبعة عسكرية ذات شعارٍ ذهبي وغطّت رأسه، ورأى النياشين والأوسمة ذاتها ترتصُّ متجاورة على صدره، وخرجت نجومٌ وتيجان من مكانٍ ما منٍ ذلك الضّباب أيضا، واستقرت ملتصقة على كتفيه، ووضع ساقاً على أخرى، وتنحنح وهو يمجّ من سيجارته. قال:

- لا تشكريني يا مريم، فهذا واجبي. لكني وإن كنتُ قد أخذت بعض الراحة، فهي استراحة المحارب بلا شك، وإن كان بيت القندس قد تهدّم بفعل الفيضان، فلا بد أن يُبنى من جديد، عزيزتي.

وعندما غادرت مريم لشقتها، بعد أن تناولت معه القهوة وأمضيا الوقت في الحديث عن كثيرٍ من الأمور والقضايا المختلفة، راح يُفكر بها وبمدى وحدتها التي عليها أن تواجهها منذ اليوم، وفكر أيضا بكلماتها المنعشة، إنها من أكثر الأشخاص إيمانا به، كيف لا، وهي التي عاشرته مع زوجها لأكثر من خمسة أعوام، إنها تقول الحقيقة بينما تراها ماثلة أمامها، إن النساء النّقيات مثل مريم، علاوة على ما هنّ عليه من جمال، بوسعهن ومن مسافة بعيدة، أن يتنبأن بدنو ذلك الضوء في نهاية السرداب المعتم، فكر بذلك، وفكر بما عليه أن يفعله في قادم الأيام حيال تلك الأنا، التي يراها تذوي وتموت أمام عينيه، كما لو أن بداخلها دودة طفيلية، تلتهم بنهمٍ كلَّ ما ينزل إلى أحشائها.

وراح في صباح إحدى الأيام، يُقلّب جريدة الأمس الموضوعة أمامه، كان يأخذها كل يوم من المقهى، بعد أن ينتهي القُراء منها، ولا يقرأها، يكتفي فقط بكسر رتابة يومه بحفيفِ أوراقها، وتقليبها والنظر إلى الصور التي تملؤها دون أن يقف عند خبرٍ واحد بعينه، كما كان يفعل أيام مكتبه في الكتيبة الخامسة، وتصفّحها الآن بهذه الآلية عدة مرات تقريبا، لكنه وفي المرة الاخيرة، توقفت عيناه على جملة ذات ايقاعٍ ساحر؛ دعوة لحفلِ توقيع كتابٍ ما!

إن كلمة "حفل" بحد ذاتها الشكلي، وبموسيقى صوتها، ذات وقع لا

obeikan.com

يُقاوم أبدا، كذلك فهو وقعٌ محزن في بعض المرات من حيث إن أحدا لم يعد يحفل به، لكنّ هذه الحروف الثلاث، وبمجرد أن تنطق أو تقرأ في سياقٍ آخر، تمسّ مراكز خاصة في عقله الباطن، محفزة بذلك كل مظاهر البهرجة والكرنفالية والفخامة، وتقدير الذات.

وكان الكتاب لأحد الخبراء المحترفين في البرمجة اللغوية العصبية، يوقعه في مقر ثقافيٍّ مهم، يتحدّث عن خلاصة بحثه واجتهاداته لأعوام عديدة، في الطاقة البشرية الكامنة، وطرق تفجيرها من مخابئها، ليس بالطرق التقليدية عديمة الجدوى، إنما بشكلٍ يضمن حدوث دويّ هائلٍ لتلك الطاقات المكبوتة.

عندئذ، وبسبب من هذين السّطرين المكتوبين، بعناية، والطافحين بالطاقة أيضا، كتوضيحٍ لأهميةِ الكتاب، تسلّلت ومضات برق مصغّرة من خلال السطور، ونخزت العقيد في مكانٍ ما من روحه، كما لو أن نحلة غاضبة هي التي قامت بلدغه في المؤخرة، فقد جعلته يقفزُ، كأيّ كنغرٍ يافع، عدة قفزاتٍ على فوره من فوق الأريكة، ملوحا بساقيه في الفراغ الذي ارتفع إليه، وقبل أن تخبو طاقته التّقافزية، مشى في الغرفة عدة جولات جيئةً وذهابا، وقرر أن يكون أول المتواجدين في حفل التوقيع.

مساء ذلك اليوم، حلق العقيد نايف صالح ذقنه وتأنَّق، ارتدى البدلة السّوداء، التي يحتفظ بها للمناسبات الراقية، والقميص الأبيض بربطة عنق خمرية، وجلس يُدخن في الشرفة، مفكرا في تلك الطاقة، أين عساها أن تكون وهي قابعة الآن في جوفه؟ ما هو مقدار الدَّوي المتوقع

obeikan.com

من انفجارها؟ فلطالما سمع جنوده في الكتيبة، يتهامسون بمدى هذه الطاقة والحيوية المخبأة لديه، ولا عجب أن أقالوه، وهو في أوج عطائه، خوفًا من هذا الدَّوي الرهيب المرتقب، الذي كان لا بُدَّ وأن ينفجر يوما ما، وتذكَّر، أيضا، حادثة الدُّلفين الصَّغير، كيف كان يغوص وينساب خلفه في الماء كما لو كان هو دلفينا آخر على أقربِ تقدير، والخوف الذي كان مرسوما على وجوه البحرية الاسرائيلية، حالما رأوه يمخرُ أعماق الماء كسمةِ قرشٍ قديرة، لذلك تدجَّجوا بالسلاح وغاصوا ليواجهوه، كما يفعلون غالبًا، وهو أعزل.

وتذكر أيضا، في غمرة هذه الذكريات، المفعمة بالطاقة، ما كان يُفجّره من ابداعات أثناء عزفه على آلةِ البزق المهترئة؛ هدية الغجرية أرمندا، فوق السّطيحة، أيام الطفولة التي خلت، وابتسم بخفةٍ، لأن تلك الطاقات الإبداعية لا زالت كامنة، لم يتأتَّ لها أن تخرج بعد، ووضع يده على صدره وتحسّسها، قابعة مستقرة، طاقة كامنة ومغلَّفة، سيكون لها أن تنفجر يوما ما، مطلقةً نثارا هائلاً من الوهج، اللّه تعالى وحده يعلم بحجمه.

بعد أن دخَّن بما فيه الكفاية، نظرَ العقيد إلى ساعته القديمة، مطبوع عليها شعار القوات المسلحة، ثم تناول هاتفه النّقال، وطلب الرقم:

- أهلا نايف بيك.

- أهلا عزيزتي مريم، هل لكِ أن ترافقيني بعد ساعة من الآن؟

صمتتْ السيدة مريم قليلا، وهزَّت طفلها بين يديها، وهو على وشك

obeikan.com

البكاء، وقالت:

- فكرة جيدة. إنني أشعر ببعض الملل، لكن إلى أين؟

- حسنا مريم، إنني مدعوٌّ، كغيري من المهمّين، لحفلِ توقيع كتابٍ قيّم، عزيزتي. في تمام الساعة الخامسة. وقد نجلس بعد ذلك في مكان ما.

بكى الطفل قليلا، بكاءً مُدللاً ومتقطعا، ثم استرخى وغفا فوق صدر أمه، ردّت مريم:

- كما تريد نايف بيك.

مساء ذلك اليوم، عاد العقيد من حفل التّوقيع، مُفعما بالطاقة، يدندن من أنفه فقط: "مممممم..مممممم...ممااامممم" وهي الدندات ذاتها التي كان يدندنها في أوقات السعادة والرخاء، مثلما كان يفعل وهو يحلق ذقنه، إبان حياة الجيش، أمام المرآة في بيته.

وكان يُقلّب صفحات الكتاب، ويقرأ بعض السّطور والفقرات منه، بينما يجلس في السيارة إلى جوار السيدة مريم، وطفلها مثَّبت في مقعده في الكرسي الخلفي، تصدر عنه هممهات وبكاء متقطّع، لكنه يصمتُ عندما يُطل عليه العقيد برأسه من الأمام، يمدُّ لسانه له ويشوّه وجهه في محاولة لجلب المرح لطفل صديقته اليتيم. عند ذلك سألت مريم، وهي تقود:

- لقد انشغلت بالطفل أثناء حفل التوقيع، عمّاذا يتحدث الكتاب بالتحديد، نايف بيك؟

- عن الطاقة، عزيزتي.

- الطاقة؟ أي نوع من الطاقة؟

- أجل الطاقة. الكتاب يتحدث عن شيء اسمه الطاقة الداخلية.

وكان جوابه مختصرا، لأنّه راح يمدُّ لسانه مرة أُخرى للصغير، ويلوّحه يمنة ويسرة كما لو كان حيوانا بلسانٍ طويلٍ ومضحك، وأردف:

- ها أنا أمد ابنك بهذه الطاقة، عزيزتي، لذلك ترينه يضحك بملئ فمه.

ونظرت مريم في المرآة الفوقية إلى صغيرها، رأته منكمشا، مُقطّبا جبينه، على وشك البكاء، جراء وجه العقيد المستطيل، القادم إليه من الأمام، مثل وجه جملٍ يُحاول أن يكون لطيفا.

توسَّلت مريم:

- توقّف بربك. إنك تُخيفه، يا نايف!

استدار العقيد، متطلعا إلى الأمام، بعد فشله في التَّسرية عن الصَّغير:

- لا، لا أخيفه، لكن كما توقّعت، جُرعات الطاقة ثقيلة عليه، عزيزتي.

- أي طاقة، نايف بيك؟

تنحنح العقيد، غاص في مقعده أكثر، ولأنّه نظر من خلال النَّافذة

obeikan.com

إلى السماء المسائية المحمرة، فقد تذكَّر، لبرهةٍ، حواره مع مؤلف الكتاب في بهو القاعة، عندما توجه إليه العقيد من خلال الزّحام، واستطاع أن ينفرد به لبعض الوقت، فبعد أن حصل على توقيعه، راح يوجّه له بعض الأسئلة المتعلقة بموضوع مُؤلفه:

- من فضلك، لو سمحت لي ببعض الوقت، حضرة المؤلف.

- نعم، بالتأكيد، تفضّل.

مسّد العقيد على ربطةِ عنقه، تنحنح وسأل ملوحًا بيديه كمتحدثٍ يُجيد الإشارات الواثقة:

- لقد سمعتك فوق المنصة، قبل قليل أثناء الكلمة التي تحدثت بها، تتكلم عن وجود شيء اسمه الطاقة الكامنة، في كل جزء من أجسادنا.

- أجل، الطاقة الكامنة، في كل جزء، إنها شيء حقيقي.

ابتسم العقيد، قال:

- هل لك إذن، أن تتحسّس وجودها لدي، من فضلك، فالأمر في غاية الأهمية، إنني كما سمِعتك تقول في خطابك؛ بأننا نشعر بها في بعض الأوقات، أستطيع أن أُحسّ بها تكاد تنفجر من وقتٍ لآخر، لكن لا أدري كيف لي أن أحسن تنظيم خروجها.

ابتسم المؤلف:

- بالتأكيد، دعني أرى.

اقترب منه أكثر، ووضع يديه حول صدر وظهر العقيد دون أن يلمسهما. أغمض المؤلف عينيه وخشع قليلا، حرك يديه إلى الأعلى والأسفل كأنه معالجٌ روحي. قال بعد قليل:

- تتمتّع بهالة قوية، أستطيع أن أشعر بمدارات الطاقة الشعاعية حول جسدك، أهنك لذلك يا سيدي.

سأل العقيد، بجدية:

- طاقة شعاعية؟ أين بالتّحديد، من فضلك؟

- إنها حولك تماما. إنك تُشعّ كاليورانيوم.

ووضع المؤلف يده على الجهة اليُسرى من صدر نايف صالح:

- إنك مليء بالطاقة، كما أؤكد لك. كقائدٍ عتيد، كما أرى.

- نعم، كنت لأصبح قائدا عتيدا، لولا تسريحي باكرا من الجيش، حضرة المؤلف.

ثم نظر المؤلف إلى عيني العقيد، نظرة طويلة فاحصة:

- إذن لا ترمش.

واستجاب العقيد، فاتحا عينيه، كأيِّ ثورٍ بحدقتين واسعتين، محدقا بالرجل دون أن يطرف. قال المؤلف، وهو يشرع بالمغادرة، تاركا العقيد:

- لن تصل بيتك، أيّها السيِد، حتى تنفجر هذه الطاقة. رأيتها في عينيك، إنك بركان من الطاقة. أُقسم لك.

رمقه العقيد، بنظرةٍ مليئة بالإعجاب، يبدو كأيٍّ رجلٍ مهم، يجذب الاهتمام وسط هذه الجموع الغفيرة، المتراصة من حوله، من الصحفيين والمرافقين ورجال العلاقات العامة، وأولئك المواظبين على حضور الفعاليات دون أن يدركوا ما الذي يجري من حولهم، وظلّ واقفا لبرهة ينظر إليه.

قال المؤلف لصديقه الذي كان ينتظره في البهو:

- لقد تأخرتُ عليك بسبب ذلك الرجل المخبول.

وأشار بيده نحو العقيد، الذي شعر بالأهمية، من جديد، حيث يخبر المؤلف صديقه عن مدى حوزته من الطاقة، ثم لوّح له بيده مبتسما، ونزل أخيرا للسيدة مريم، وكانت تنتظره منذ ربع ساعة مع طفلها في السيارة.

- نايف بيك.

- ها؟

- سألتك، ما هي الطاقة؟

عاد العقيد من شروده قال:

- إنها طاقة كامنة في صدورنا، عزيزتي!

وقبل أن تهمس مريم، كان العقيد، قد وصل لمنبع تلك الطاقة، فقد دخل عليه، بطبيعة الحال، عصفور الإلهام الأزرق الصَّغير، من النَّافذة، حينما فتح جزءا منها ليتنفّس هواء عليلا، وزقزق في أذنه اليمنى، بينما يُطنطن بجناحيه، تلك الزقزقات الموثوقة التي لا

تخيب،فقفز العقيد في كرسيه، كما لو كان ضفدعًا رشيقا، وبسببٍ من حزام الأمان الممسك به، فقد كانت خبطة السقف على رأسه، خفيفة الأثر، وارتبكت مريم، كادتْ أن تصطدِم سيارتها بحافةِ الرصيف، صرخت:

- ماذا هناك، نايف بيك؟

- الطاقة!

- الطاقة من جديد؟ ما بها؟

- تفجَّرت أخيرًا.

obeikan.com

obeikan.com

الإشارات الإلهية الحاسمة

عمّان/ بيت العقيد نايف الصالح

ذات مساءٍ رائق، وبعد جهود مضنية من التفكير والتأمل فوق الأريكة، كانت الفكرةً الرئيسة حول تلك الطاقة الكامنة والتي قاربت أن تنفجر بدويٍّ هائل، قد نضجت في ذهن العقيد، إنه احق الناس بالتأليف، ونشر الكتب المهمة وذات الشّأن، وبصق، لكن دون الحاجة إلى لعاب، على الغالبية السّاذجة من المؤلفين، بصقة طال كيانه شيئا منها، وجعلته يُفكِّر جليا أيضا؛ لمَ لا يكون هو المؤلف؟ ما الذي يحول دون مكافأةِ نفسهِ باصدار كتابٍ ما؟ إنّ كتابا من كتب الطاقة تلك، يلقى مثل هكذا رواَج ودعاية، فكيف بكتابٍ من طراز رفيع، يُلقي بظلاله على المجتمع، ويفتح به طريقا آخر للشُّهرة، لذلك قفز رشيقا من فوق الأريكة، يصرخ بلسان حاله:

- يوريكا، يوريكا...وجدتها.

وشرعَ يمشي، من جديد، جيئة وذهابا في الشُّرفة، قلقًا حيال مادة الكتاب، ومحتواه الفكري العميق، وفكَّر مليا بذلك، صرفَ ساعة كاملة من وقته الثمين، مرددا؛ ماذا أؤلف؟

واستعرض قدراته الفكرية، وماذا يمكنه أن يكتب، وأي كتابٍ من شأنِ رجلٍ مهم مثله أن يؤلفه، مراعيا شُهرة الموضوع وصداه الكبير؟

خلص العقيد نايف صالح، في النهاية، إلى أن تأليف كتابٍ جيدٍ

حول تاريخ العائلة المالكة، وما إلى ذلك من الأمور المتعلقة بهم، لكفيلٌ بأن يملأ، وبالخط العريض، الصفحات الأولى في الصحف الرسمية؛ العقيد نايف صالح يوقع كتابه الأول حول العائلة المالكة؛ العقيد نايف صالح يشهر كتابه الأول؛ العقيد نايف صالح يخوض غمار التأليف حول العائلة المالكة، وغيرها من الجمل التي تبدأ بالعقيد نايف الصالح، ومن شأن هذا الكتاب أن يضعه، دون أدنى شك، في منصبِ مستشارٍ جيدٍ في الديوان الملكي، أو وزيرا للثقافة أو الإعلام وما إلى ذلك.

وفكّر بتلك الجمل الصغيرة، التي سيكتبها للمتواجدين في حفل التوقيع، وراح يتمرّس، طيلة الوقت، مستهلكا رزمة من الورق الأبيض، على الإمضاء وكتابة الإهداءات الجيدة، فقد رأى أن مؤلف كتاب الطاقة قد كتب له جملة صغيرة ليست ذات وقع مهم: "مع تحياتي". فكتب العقيد؛ "مع خالص حبي وتقديري، نايف الصالح". وفكر بأنها ليست بذات القوة. كانت أنا ركيكة، لا تفي بالغرض. عاد وكتب بخط حرص أن يكون أنيقًا؛ "امنياتي الجميلة لشخصكم، نايف الصالح". ورأى أنها جملة أقوى من سابقتها. وفكّر بأن ذلك الكفاح والجهد أبدا لن يذهبا أدراج الرياح، بل إن الرياح ستحمل هذا الجهد العظيم، بخفةٍ بين يديها، وتخبطه في وجه كل الحاسدين والمتسبِّبين في تعاسته جراء كيدهم المتزايد، وامتعاضهم من نجاحاته.

وكانت هذه الفكرة، مثل شرارةِ وميض، قد جلبت جوا مغايرا إلى الأرجاء التّعيسة من حوله، جوا مفعما بالسّعادة والآمال الجسام التي أمَّل ذاتَه بها.

فرأى العقيد نفسه، بتلك البدلة السّوداء الأنيقة، وربطة العنق

الحمراء، يرتديها فوق قميصٍ أبيض، يجلس على المنصة، حاملا قلما مُذهبا بين أصابعه الرشيقة، وقد أصبح بؤرة وحيدة لأضواء الكاميرات التي تبرق باتجاهه فقط، في حفلِ توقيعِ مهيب، لتنهال عليه أسئلة الصحفيين والإعلاميين، وتمتلئ الصحفُ، مثل هذه اللتي بين يديه، والمجلات، والمواقع الإلكترونية، بهذا الخبر الرائع، وتأثّر جدا بهذه الصورة الدرامية التي تَخيَّلها، وخبطَ جبهته بيده، مُقرِّعا نفسه ومعاتبها، لماذا هدر كل تلك الأموال مغامرا في انتخابات هزيلة مزوّرة، ولم تخطر له تلك الفكرة من قبل، لكان الآن في طورِ طباعة الكتاب ونشره.

قام بدعوةِ صديقه، أحد رواد صالوناته السّياسية فيما مضى، إمام وخطيب الجامع، القريب من بيته، الذي كان قد بدأ يصلي فيه أيام الجمع فقط تسرية عن قلبه المتعب، دعاه إلى منزله، تناولا القهوة بودٍ وحميمية، وأخبره بأنه بصدد تأليف ذلك الكتاب المهم جدا، صحيح أنه خفيف التّدين، ويعاقر الخمر من وقتٍ لآخر، لكنه تساءل طالبا الفتوى من صديقه الشيخ؛ إن كان ما ينويٍ القيام به يندرج ضمن ما يُسمى بعلماء السلاطين ومؤلفيهم، وحول مدى حُرمة هذا العمل أو درجة النفاق فيه، لأنّه، والعياذ بالله لن يُقدم على هكذا عمل، قد يستمر إزره إلى يوم الدين، كلما قرأه مئات الآلاف من الأشخاص والمعجبين، إنّ حمل وزر شرب الخمر الشخصي أيسر من ذلك المجد بكثير.

لكنّ خطيب الجامع، والذي تصله الخطبة مكتوبة في أغلب أيام الجمع، بمغلف مُغلق، ومرفقة بين ثناياها عشرة دنانير، من دائرة المخابرات العامة، اسشتاط غضبا لهذه الأفكار الهدّامة في رأس

العقيد، وأخبره بالواجب الملقى على كواهل المؤلفين والمهمّين من أمثال نايف بيك، لكي يُبينوا للعالم جانبا يسيرا من حياة ملوكهم وزعمائهم ورعاة أمرهم، ونصحه فضيلة الخطيب، إن كان العقيد مترددا، فعليه بصلاة الإستخارة وطلب العون منه تعالى.

كانت الحالة مستعجلة، لذا لم يُصلِّ نايف بيك صلاة الاستخارة التي عليه تعلمها أولا، ثم إنها تأخذ وقتا، لا يمكن انتظاره، لكي يهديه اللّه لشيء ما، بل قرَّر العمل بالطريقة البديلة المقترَحة من الشيخ ذاته، فقد أمسك القرآن وفتحه بعشوائية، ليرى ماذا تخبره الآية التي يقع بصره عليها، وفجأة وقعت عيناه على مقطع من آية؛ "كمثل الحمار يحمل أسفارًا."

وانفعل نايف بيك غاضبا جراء ذلك الشيء، قال:

– ما هذا الهراء؟ هل مصيري متعلق بضربةِ حظٍ في صفحات هذا الكتاب؟

لكن صديقه، تدارك الموقف، وابتسم ممسدًا على لحيته الطويلة، وقال:

– لا عليك نايف بيك. إن اللّه يسخر من أولئك الذين يؤلفون كتبهم دون علم أوسلطان، تحلى بالصبر ،فقط، ولنقم بالجزء الثاني من الإستخارةً، وسترى أن اللّه يبارك ما أنت قادم عليه إن شاء اللّه

– الجزء الثاني؟

– أجل. الجزء الثاني

وبعد ذلك طلب من نايف بيك أن يستخير هو بدلا عنه، ووافق العقيد، وتمّت الإستخارة، وبسمل الرجل وفتح الكتاب ببطء، وقرأ خاشعًا ما وقع تحت عينيه على الفور: "نون، والقلم وما يسطرون".

وكم كانت فرحة العقيد غامرة بهذا التأييد الإلهي الواضح، وصرخ: "الله أكبر!" وقال الخطيب مبتهجا:

- أريت، إنّ الله، بعد أن سخر من أولئك الحمير الحاملين للأسفار في الجزء الأول، يطلب منك، أن تسطر كتابك في الجزء الثاني، لقد تمّت الاستخارة كما يجب، فسطّر كتابك يا نايف بيك إذن، ولا تأسف لما كانوا يفعلون.

ولم ينتبه نايف بيك، إلى أن الإمام كان قد فتح الكتاب على صفحةِ سورة القلم بغفلة منه وهو يتذمّر من نتيجة الجزء الأول، ووضع طرفَ اصبعه في ذلك المكان، لكنه قام بأخذه في الأحضان الدافئة، وذرف دموع فرح أبت إلا أن تنزل من عينيه، جراء تلك الإشارات الإلهية الحاسمة، ورغم شح الإمكانيات، إلا أن نايف بيك، وفي لحظة سخاء غير مُسيطَر عليها، أخرج من محفظته عشرين دينارا، ووضعها في يد إمام الجامع، كردٍّ فعلٍ لآئقٍ وعفوي على هذه البشارة التي أتت على يديه المباركتين، ورفض الرجل، بشكلٍ قاطع وبصيغة غير نهائية قابلة للتفاوض، أن يأخذ المبلغ، لكنّه سرعان ما دسَّه بلاً مبالاة في جيبه عند أول يمين قطعه نايف بيك.

وأكدّ العقيد المتقاعد بأنّه لن يتخلى عن صديقه في المستقبل القريب، وذلك عندما تُشرع له أبواب السلطة والنفوذ على مصراعيها،

وستكون وزارة الأوقاف والشوؤن والمقدسات الإسلامية، من نصيبه بإذن الله تعالى.

استلقى العقيد على ظهره فوق أريكته المعتادة، وضع ساقًا فوق الأخرى، وراح يُحرّك قدمه ذات الأصابع الطويلة الرفيعة، يمنة ويسرى، وذلك بسببِ من بقايا الطاقة التي زوده بها مؤلف الكتاب، وأخذ يفكر ويضع الخططً اللازمة للخروج بمؤلَّفه الخاص على أكملِ وجه، وتعدّى ذلك، وبكميةِ تفكيرِ أكبر، إلى حاله وشأنه فيما بعد هذه الخطوة، وكيف سيتصرف فيماً يتعلق بمنصبه الجديد، وبالتحديد كيفية تعاطيه مع بقية الأصدقاء والمعارف، هل سينأى بنفسه عن كلّ من يطرق بابه، وهم كثر في مثل هذه الحالة، لا سيما المختار صقر السالم، بذلك العكاز المهترئ، والذي تجاهله أيام حملة الانتخابات العصيبة، وشجرة التين في الفناء تشهد بذلك،فلم يقدّم له أدنى مساعدة تُذكر، سيأتي إليه وينهق من جديد؛ طالبا من العقيد أن يتذكر تلك الأيام الفائتة من الطفولة الجميلة، وينظر بعين الصداقة الحميمة في شأنه:

- من فضلك يا نايف الصالح، بحقّ صحبتنا القديمة والجميلة، أن تتحدث لزميلك الوزير بشأني.

- أولا؛ أنامعالي نايف الصالح، وليس نايف صرف! وثانيا؛ ما هو شأنك، يا صقر السالم؟

- أعتذر بشدة، لكن لو تتحدث معه يا معالي نايف الصالح، لكي أُعيّن رئيسا للبلدية، فأنا أحق الناس بذلك كما تعلم. لقد سلخت

أكثر من خمسة عشر عاما من عمري في خدمة هذه البلدية.

- نعم أعلم ذلك تماما، وأعلم فسادك وتواطؤك مع رئيس البلدية، وصلني كل شيء، لكنّ ماذا بوسعي أن أقول؛ فلا ريش على الأجنحة لكي تطير معك يا صقر السالم.

وفكر بأنه سيُصعّر خدَّه له ولأمثاله المنافقين، ويخبرهم، عن طريق خدمه، بأن ينقلعوا على فورهم من باب بيته، لأنّه من الشّرف بمكان، ألا يخوض مثل هذه الغِمارات، ولا يرغب مطلقا إقحام نفسه في أيّ من أمور الواسطة أو المَحسوبية، إنه ليس رجلَ خدمات كما يعتقدون؛ بل رجل وطنٍ ومواقف مُشرفة.

ثم لماذا يساعدهم بحق الجحيم، إن كانوا قد خذلوه أيما خذلان في تلك الانتخابات النيابية سيئة الذكر، صقر السالم ذاته لم يكلّف نفسه بشيء، لقد تركه بمفرده في تلك السجالات كقاربٍ وحيد يصفقه الماء فوق عباب الموج، حتى أولئك الذين انتخبوه ودعموه بأصواتهم وحناجرهم هاتفين له، وملوّحين بقبضاتهم، كانوا قد قبضوا الثمن وأطبقوا عليه جيدا في تلك القبضات، وأكلو المزيد من الكنافة الساخنة في تلك الليالي.

لكن ما أقلق العقيد، هو كيفية تصرفه حيال بعض الأمور الحسّاسة، التي لا تحبّذ الدولة الحديث فيها أبدا، والتي كان فيما مضى مُنظرا جيدا لها، لا سيما إن أصبح وزيرا للإعلام، كيف سيتحدّث عن تلك الأشياء التي أشبعها صراخا واعتراضا، ماذا سيقول عن سارقي الدلافين المائية، الذين نعتهم بأبشع النعوت والصفات، أيامَ كان

عقيدا على رأسه عمله، وبعد ذلك في كل منبرٍ وصالون سياسي يلوح له ويُقحم نفسه فيه، لا سيما، منبر الانتخابات ذاك، الذي، ومن خلاله، نالهم ما نالهم من بصق وتوبيخ وسُباب، وطالهم وبشكلٍ مكثّف من تلك العبارات والأقوال الثورية، الّتي راح يقتبسها من "تشيً جيفارا"، ويعلنها على الملأ. لكنه هزّ رأسه، وأرجأ كل ذلك إلى وقته.

وبناء على نصيحةِ صديقه خطيب الجامع- الذي خضع من قبل لـدورة رسمية على استخدام الإنـترنت، لأنـه ووفقا للحداثة وزمن السّرعة والطوارئ، أصبحت تأتيه الخطبة في كثيرٍ من الأحيان، عن طريق البريد الإلكتروني- بأن يستخدم محركات البحث على الإنترنت للحصول على المادة التي يريدها، وأن كتابة كلمة واحدة، على "غوغل" تؤدي إلى تأليف العشرات من الكتب،لذلك قرّر العقيد أن يشترك على فوره، في خدمة الإنترنت.

وهناك في البيت، جلس بالقرب من المدفأة، وبالرغم من قسوة الشتاء وغزارة الأمطار، التي تطرق النّافذة، نقرات جماعية وبشكل ملح، إلا أنه قرفص امام جهاز الحاسوب، كأنه دبٌّ أليفٌ سعيد، واضعاً جبَّة مبطنة بالفرو الطبيعي فوق كتفيه، مرتديا قبعة صوف حمراء، كما لو كان مُهرِّجا يُقرفص أمام مدفأة، وكان قد طلب من مريم، بحكم المودة والاحترام المتبادل، أن تساعده لحين الانتهاء من مشروعه المهم، طبعا إن لم يكن لديها مانع، وأقسم لها بشرفه، أن تكون أول شخصٍ يُفكر فيه عندما تحين الفرصة وتتم الموافقة على تعينه في منصبٍ مهم ونافذ، وبحكم خبرتها السكرتارية طيلة خمسة أعوام، ستكونً في طاقمه الوزاري أو أمينة عامة في إحدى الوزارات على أقل

تقدير، وقال لها بكل صراحة:

– بوسعك أن ترفضي، عزيزتي، فأنا لا أُجبرك على شيء.

لكنّها وبدافع قوي، من بارقةِ الأمل المتعلقة بمنصبها كأمينة عامة، وهذا المنصبُ، بأمله المعقود، أفضلُ مئة مرة من عملها الحالي سكرتيرة في أحد البنوك، وأجابت بكل سرور:

– لا تقل ذلك، نايف بيك، فنحن أصدقاء منذ زمن، سأبقى إلى جوارك بالطبع، فأنا أثق بك ثقة عمياء، وأنت تعلم جيدا مدى اعتزازي بك وبوجودك معي.

وربت على كتفيها، ربتة حانية:

– كم أنت رائعة، عزيزتي مريم.

وبتصرفٍ نبيل، وتجنبا لنخزات تأنيبِ الضمير الموجعة، أنزل صور زوجته من فوق الجدران، ووضعها في الجارور الأخير لخزانته وذلك بشكلٍ مؤقت طيلة مدة وجود السيدة مريم في بيته ومساعدتها له، ليس لأنه سيقترف الرذيلة لا قدر اللّه، إنما لكي لا يُقلق راحة زوجته المتوفاة، وهي تنظر من إطار الصورة، كالحبيسة، دون أيةِ حيلة، إلى إمرأة أُخرى تصول وتجول في بيت زوجها المحب.

وشرع يتناول "الفشار" المملّح، من صحنٍ كبير صنعته له مريم كأول عطاءٍ لها في خدمة العقيد لتحقيق هدفه الذي يصبو إليه، وحاولت قدرَ الإمكان أن تكون أكثر اهتماما بطفلها لكي يلتزم الصمت ما أمكن، فلا يُقلق راحة العقيد وتفكيره المبدع.

وبدت مريم، وكما هي الطبيعة الأزلية للمرأة، كما لو أنها في بيتها؛ سعيدة جدا لخدمتها رجلا محبًا ولطيفًا ومستعدا دائما للأخذ بيدها، وراحت توضّب الغُرف، وتمسح الغبار عن الأثاث المركون فيها، تشطف بلاط الشّرفة، وتعيد ترتيب الكراسي فيها، وتصعد لبيتها بعض الوقت، ثم تعود مساء لكي تُعدّ له عشاء لذيذا وفنجانا من القهوة احتفالا بهذه المناسبة، بداية خوض غمار التأليف من قبل العقيد المتقاعد نايف بيك، وما يحمله ذلك من مجدٍ في قادم الأيام لكليهما.

وراح العقيد يكتب بعض الكلمات في خانة محرك البحث، ثم ينقر على روابط المواقع الالكترونية والموسوعات التي يزوده بها، ينسخ ويُلصق في ملف خاص أنشأه لهذا الغرض، كان يمرّ مرورا سريعا على المقالات والمواضيعٍ، يُظللها بالكامل ثم يلصقها في الملف، أحيانا كثيرة، يقرأ السطور الأولى فقط، ثم ينادي:

- مريم.

- نعم، عزيزي.

- كوب ماء، من فضلك.

- حاضر، عزيزي.

واستمرّ يواصل النّبش في الروابط والصفحات الإلكترونية والمدونات، وأكثر ما هاله وأفرحه، وجود الكم الهائل من النصوص المكتوبة، المتعلقة بموضوع كتابه، وابتسم لنفسه، ابتسامة الواثق المتأكد، وفكر للحظة بأنه قد وقع على كنزٍ ثمين، ربما لا يعلم عنه أحد، وتأهَّب لاقتناص كل مقالةٍ تدور حول كنف الموضوع وحيثياته.

وراحت مريم تجلس مستعدة دائما لأي طارئ، تنظرُ إلى شاشة التلفاز، تغفو ويسقط رأسها بين الفينة والأخرى، وقد خفّضت صوته لكي لا ينزعج العقيد، وعندما يـراوده النُّعاس، ينتفضُ ويصحو متحمّسا،فلا وقت لديه لإضاعته في النوم، ثم يشرع في النظر إلى جهاز الحاسوب، وينادي من جديد:

– مريم.

– نعم، عزيزي

– فنجان قهوة، من فضلك.

– حاضر، عزيزي.

أسبوعان كاملان مرَّا على هذا الحال، وخلالهما، وفي بعض المرات، اضطرت مريم للمبيت في الغرفة الأخرى، لأنّ العقيد، كما لو كان آلة مبرمجة، لم يكن يعرف الليل من النهار، أو الصبح من المساء، وقد جمع مادة كفيلة بتأليفِ عشرة مجلدات حول تاريخ العائلة المالكة، القديم والحديث، لكنه انتقى منها، وحصل على المزيد من الصور، التي أراد أن يُرفقها في الكتاب أيضا.

عشية إلصاق المادة الأخيرة في الملف، تنفَّس العقيد الصعداء، وكانت مريم كما لو أنها كائن غريب، بعينين حمراوين، إذ أنها اعتكفت في الأيام الأخيرة لإعداد مادة الكتاب، ولم تنل قسطا وافرا من النّوم بما فيه الكفاية، حتى أنها لم تأخذ أية قيلولة تذكر عندما كانت تعود من عملها، فطيلة تلك الليالي، كانت لحظات النّشاط والإلهام تأتي للعقيد في أعمق ساعات الليل وأحلكها، فيقفزُ من سريره، مناديا:

obeikan.com

- مريم، عزيزتي

فتفزع مريم من سريرها في الغرفة الأُخرى:

- نعم، عزيزي.

بالكاد تخرج الكلمات النّعسة من شفتيها.

- أشعلي الحاسوب، وجهّزي صحن الفُشار، سأبدا العمل، عزيزتي.

- حاضر، عزيزي.

في إحدى العشيات، عشية إطفاء جهاز الحاسوب بشكلٍ نهائي، والتّخفف من الأحمال الثقيلة التي حزّت ظهر العقيد وشوّشت مزاجه، جاءت منه نظرة لطيفه نحو مريم وهي ترتدي لباسا رياضيا ضيقا، ولأول مرة، شعر بأنها امرأة شديدة الجاذبية والجمال، وتعجّب كيف أنه لم يلحظ، من قبل، أن صدرها بهذا الحجم الكبير، وفكر إن كان قد كبر في الفترة الأخيرة فقط، لكنها ،وفي جلسةِ مزاح وضحك، فيما بعد، صارحته بأنها لطالما كانت ترتدي مشدّا ضاغطًا على صدرها أثناء خروجها من المنزل تجنبا للوقوع في المشاكل، لا سيما في العمل، فقد استدعاها المدير العام ذات صباح، وقال لها نقطة واضحة وحاسمة:

- إن كنتِ تريدين الإستمرار معنا، فلا أثداء كبيرة في بيئة العمل.

ثم قدّم لها حلولا نافعة على شاكلةِ ارتداء المشد، وذلك لأجلِ أن

مديرها المباشر، والذي يقوم بعمله المهني بشكلٍ ممتاز، يُعاني من حالةِ سعارٍ غريبة تجاه الأثداء الكبيرة المهتزة، ما ينعكس سلبا على المخَرجات.

وفكر العقيد كيف أنه، ومنذ زمن بعيد لم يظفر بجسد دافئ إلى جواره في السرير، إن النّوم إلى جانب جسدٍ كهذا لهو السعادة الحقيقية، فالأجساد التي تحمل الأرواح المنسجمة بداخلها، ترغب هي الأخرى، وبشدة، إلى الذوبان ببعضها البعض، فكما تؤول الأرواح، في سبيل سعادتها الأبدية المنشودة، إلى روحٍ واحدة، كذلك ينبغي أن تفعل الأجساد، إلى أن تفنى وتذبل.

obeikan.com

obeikan.com

الأنا الفحولية

وفكّر العقيد في داخله أيضًا، بأنه ولانهماكه الشديد بالعمل على مشروعه المهم، لم ينتبه لوجود هذه المرأة الجميلة في بيته؛ تسهر على خدمته وراحته، كم كانت هذه المرأة الجميلة، لطيفة ومحبة ومعطاءة، لماذا لا تقنع الأنا الذكورية بإمرأة كهذه وحسب؟

وكما قال زوربا اليوناني لصديقه ذات مرة: "إن نامت المرأة وحدها أيها السيد، فهذه خطيئتنا نحن الرجال!" ومن هذا المنطلق، ترحّم العقيد نايف على زوجها في قرارةِ نفسه، وقدِم إليها بعد أن دخل إلى الغُرفة المخصّصة لها، أطلّ من الباب وقال دون أيةِ مقدمات:

– لماذا نبقى غارقين في أحزاننا حتى تطمسنا ظلمة القاع يا مريم؟

رفعت مريم رأسها من أسفل الغطاء، قالت مشدوهة:

– ماذا؟

– أقول بأننا نُواصل الغوص في أحزاننا على أشياء فقدناها دون رجعة، فليرحم الله زوجتي وزوجك، عزيزتي مريم.

واستغربت مريم هذه المداخله الحكيمة منه، وخمّنت بأنه قد قرأها أثناء تصفحه لمواقع الإنترنت في الأيام الماضية لاعتكافه على التأليف، أو على الأجدر، قد سمعها في إحدى أفلامه الوثائقية البيئية،

obeikan.com

قالت:

- أجل، فليرحمهما الله تعالى. ماذا نفعل، هذا حال الدنيا، عزيزي نايف.

وهزّت رأسها مواسية، وهي تواصل النظر للعقيد الواقف على حافة باب غرفتها، والذي أضاف:

- لماذا إذن، لا نصعد من ذلك القاع إلى سطح الماء المليء بالضوء، لنرى ونسمع أصوات الطيور والنوارس السّعيدة، ونمارس الحب، عزيزتي مريم؟

وانتفضت مريم من مكانها، بالرّغم من أنها، وفي عميق لا شعورها الباطن، ومنذ وفاة زوجها، كان جسدها بحدّ ذاته؛ الأنا الأنثوية الغائرة، يتوق لسماع هكذا جملة، لكنها أتت الآن بشكلٍ مباغتٍ وغير مدروسٍ بطريقة ما. قالت وقد نهضت منفعله:

- هل جننت؟! وتحت أية ذريعة نفعل ذلك، نايف بيك؟ أرجوك ألا تستغل وجودي لمساعدتك كما طلبت مني.

اقترب منها العقيد، وقد جلستْ مرتبكة فوق السرير بعد أن كانت مستلقية، وهمس:

- بدون أية ذريعة، يا مريم، فلنُبعد الذرائع عن الحبّ قليلا.

وتحت وطأةِ ضرورة جلب المبررات في موقف كهذا، قالت مريم وهي تكتم أنفاسَها المتفجرة، وتتحفّز داخليا لما سيأتي:

- لا وألف لا، أيّ حب هذا الذي تتحدث عنه؟ لسنا عاشقين،

أو حتى صديقين حميمين جدا على أقل تقدير.

لكنّه قال مبتسمًا، وهو يقترب منها، كما لو أنه قد سمعها قالت: نعم، وألف نعم:

– فلنمارس الحب إذن ببركة المودة التي بيننا، وبغضّ النظر عن المسمّيات، عزيزتي. ثم إنني، ودعيني أصارحك بشيءٍ كنت أود مصارحتك به منذ مدة، فلقد أصبحتُ أجدك لطيفة جداً وجميلة. تروقينني جدا يا مريم.

وصمتت مريم، ولم تقل كلمة واحدة، ليس لأنها لم تفضل الكلام، إنما لعدم قدرتها على ذلك أمام أنفاس العقيد السّاخنة والمرتجفة، التي تقترب من وجهها دون هوادة. وشعرت برجفانٍ يوشك أن يجد طريقه إلى جسدها. وتابع العقيد:

– أجل، لقد كنتُ، طيلة الفترة الماضية، مشغولا جدا، لدرجة أنني لم ألحظ وجودك الجميل في بيتي، حتى أنني لم أعر جمال عينيك أي اهتمام، يا لغبائي يا مريم!

احمرّ وجه مريم وقد صعد الدّم إلى وجنتيها، وقررت أنها ستواصل معركة الرّفض والتّمنع لكنّ بقدرٍ غير منفّر لمحاولات العقيد الجادة، وعلى حين غفلة، أمسكها من كتفيها، وهي تتفلّت منه، في خضمّ معركتها تلك، بغنج وتأوه، تُزيل يده ثم تسمح لها بالعودة إلى مكانها، كرٌّ وفر، كما هوالحبّ الحقيقي. وتقول بغضبٍ مصطنع:

– قلتُ لك لا لا لا

books4arab.com

وغير عابئٍ بتلك الـلاءات المتتالية ذات القيمة الشّكلية فقط، والتي تنطوي على موافقة ضمنية بائنة بنغمة الصوت، وهذا هو المهم والمطلوب الأخذ به كما هوٍ معروف ومستهلك؛ المضمون لا الشكل، راح يواصلُ البحثَ عن موطنِ يدٍ له على جسدها، ويمسكها من خاصرتها، وهي تقول جملتها الشهيرة، التي دأبت على قولها كثيرا فيما بعد:

- لا تجعلني أضحك، بالله عليك!

وبما أن الأمور قد وصلت إلى هذا الطلب المقدور عليه؛ عدم جعلها تضحك، فقد رفع يديه عن الخاصرة،وبدأ يُقبّلها بلهفة محاولا حثّها على فتح شفتيها ليتمكّن من لعقهما على أكمل وجه، بينما تُصر هي، وفي تلك السجالات، على الحفاظ عليهما صامدتين متكاتفتين في وجهه، فليس بهذا القدر من السهولة تؤخذ القبلة الأولى من امرأةٍ جميلة، فلتكن دونها الحرب الضّروس إذن، ثم إن محاولة فتحهما عن بعضهما البعض أقرب ما تكون لفتح مصراعي بوابةِ مدينةٍ حصينة، فإن كان مُقْدِما لا محالة على غزوها، فلتصمد قبل السقوطٍ الأخير، شرفيا على أقلّ تقدير.

وأخيرا- وكما هو متوقّع- نجحت محاولاته، المعزّزة بتواطئٍ خفيّ منها؛ بإبعاد تلك الشّفتين المطبقتين عن بعضهما البعض، إن فتح مصراعي البوابة بالتّواطؤ؛ مقدمة خطيرة لاحتلال المدن العظيمة، وراح يقبلها ويدسّ لسانه في فمها، ويعرّيها من لباسها الرياضي القطني، وألقى نظرة على كل الجدران، واطمأنّ لعدم وجود صورة لزوجته هنا أو هناك، لأنه لا يقو على الدخول بحوارٍ مؤلم معها هذه الليلة فيما يتعلق بوخزها بتلك الإبر السّامة وهي في قبرها، وأخيرا،

وبعيدا عن طفلها الذي بدا وكأنه على وشك الإستيقاظ، قام بحملها، أو هي حملت نفسها، إلى غرفة النوم ذات السرير الأرحب، وفكر بشكلٍ سريع، إن كان قد أحبّ روح زوجته المتوفاة، فهذه الروح ذاتها، وفي مشوارها التّناسخي، قد سكنت جسد مريم الآن، وقرر بأن العبرة في الروح لا في الجسد، كما كان يقرأ ذلك في كتاب "الشخصية المبهرة"، ثم إنّ القدسية التي طالما جاهد في الحفاظ عليها، لن تُنتهك أو يمسها أي سوء، إنما على النقيض من ذلك، فلأجل أنّ الغاية شريفة ومكللة بالحب الصادق، سيضاف إلى الفراش مسحًا آخر من تلك القدسية، وواصل تقبيل مريم، بمرارةِ كلّ تلك الإخفاقات والنكسات التي مرّ بها، بنهمٍ ووحشية، على وجهها وفمها وأذنيها ورقبتها وبطنها وحافتي كتفيها، وًحتى على اصبعِ قدمها الكبير، وفي أي مكان استطاع فمه الوصول إليه، ودار بإصبعه السّبابة حول السُّرة، وبعيدا عن شهوته البحتة، والأنا الفحولية، شعر بشعورٍ لطيف تجاهها، ووجد أنه لم يكن يكذب أبدا في صدق مشاعره نحوها، إنه يحبها الآن من كلّ قلبه، يشعر بها كأي شيء ينتمي له، وهي ما زالت تخوض المعركة حتى آخر رمق،ولأننا جميعانعرف الطابور الخامس بداخل المرأة المتمنّعة، فقد راحت تقاوم وترفع حوضها بمواطأة مدروسة، لكي يتمكن من خلع سروالها الداخلي، بعد أن قذف حمالةً صدرها إلى أبعد ما يكون، وهي تقول:

- اتركني، لماذا أنت شقي هكذا؟

ولم يجد الوقت الكافي، ولا هي أيضا، لكي يجيبها على تساؤلها؛لماذا هو شقي.

obeikan.com

وفي صباح اليوم التالي، ذلك الصباح الجميل المغاير لكلّ الصباحات التي قبله على نحو ما، فعندما تُكسر الحواجز، بالمطلق، تهيم الأرواح المتحابة كالظباء في الحقول، خرجت مريم من الحمام، كما لو أنها في بيتها، منتعشة ومتورّدة الوجه، ترتدي روب الحمام القطني، وتلفّ شعرها بمنشفة زرقاء، وبينما تُعد له القهوة، أنكرت موافقتها على ما حدث ليلة الأمس، ورغم أنها ترغب بدقّ طبول حربٍ كتلك الحرب مرة أخرى، إلا أنها قالت له وهي تضع الفنجان أمامه:

- لا تنظر إلي هكذا. ثم إنك إن عاودت الكرّة مرة أخرى، سأغضب منك نايف بيك. فبأي حق تصنع بي هكذا؟

لكنه استمر بالنظر إليها طويلاً متأمّلاً عينيها بصدقٍ مفضوح، ثم قال بهدوءٍ ولهفة:

- وماذا لو قلت لك إنني، وبكامل قواي العقلية، أُحبك من كل قلبي يا مريم. أحبك كما لو أنني لم أحب أية امرأة أخرى في حياتي.

واحمرَّ وجه السيدة مريم، ولمعت عيناها، وأدارت وجهها إلى ناحيةٍ ما خجلاً وهي تسكب القهوة في الفنجانين.

وفي أواخر أيام التأليف المرهقة ووضع اللمسات النهائية، فتح العقيد التلفاز ليرى ما جدّ من أخبار، فقد كان، وبسببِ انشغاله بتأليف الكتاب، في انقطاع عن عالم القنوات الفضائية، ويا لغرابة القدر، كانت النشرة الإخبارية تذيع تقريرا خاصا عن توقيع أحد الباحثين المشهورين لكتابه الجديد؛ حول تاريخ الدولةِ الحديث، وكان الحضور على درجةٍ عالية من الأهمية، رجال دولة ووزراء ونوّاب وصحفيون

وكتّاب ورؤساء تحرير صحف ومجلات، وما كان من نايف صالح إلا أن علته رعشة سريعة من الطاقة، كانت أقوى من تلك التي مدّه بها فيمامضى، مؤلف ذلك الكتاب، حينما جسَّ صدره.

إن الأشياء تتعاون لصالحه الآن، ها هي الإشارات الالهية، زيادة عن تلك المتعلقة بالاستخارةِ القرآنية، وأمرُ اللّه له أن يسطر كتابه، تُواصل إخباره، إشارة تلو الأُخرى، بضرورة تأليف الكتاب، تأتيه من كلٍ حدبٍ وصوب، ولم يرَ، في ذلك التقرير، وجه المؤلف على الشّاشة، بل رأى وجهه هو؛ إنه نايف بيك، يجلسُ هناك فوق المنصة، إن تلك الأنا المنبهرة، تتواجد خلف حزمة كبيرة من "المايكروفونات" الملونة المتزاحمة، لا يستطيع حتى أن يعدّها أو يعرف لأي مؤسسة تتبع، وتومئ أضواء الكاميرات في وجهه بشكلٍ متتالٍ، وحوله النّقاد المتحذلقون، يقرأون أوراق عملٍ مطولة عن كتابه، ويوسعونه تحليلا وتقريضا، ويحمّلونه أكثر مما قاله بكثير عن طريق التأويل وقراءة متأنية لما بين السّطور وفوقها وتحتها وخلفها، ومن يسارها ويمينها، ويسارع الناس إلى مدّ الكتب إليه لكي يُتحفها باسمه وإمضائه الشّخصي.

لذلك قفز، مجدِدا، من فوق الأريكة قفزاته المعهودة، واستمدّ بذلك طاقة إيجابية أُخرى، دفعته لكي يسرع لصنع فنجانٍ من القهوة بنفسه، ليواصل بناء الخطط والتفكير الجيد للأيام الحافلة القادمة، التي أوشكت على القدوم مثلما يتضح له يوما بعد يوم.

ولأنّ لنفسه عليه حقا، فقد تنبّه أخيرا لهذه النفس، ولهذا الجسد المتعب بسببٍ من روحه المتطلّعة دائما نحو الأعلى، ولجأ في آخر تلك

الأيام المضنية من التّأليف، بناء على نصيحة مريم، إلى الاستلقاء على ظهره فوق الأريكة، ووضْع مكعبٍ من الثّلج، فوق كل عين، وقامت هي بنفسها بعمل ذلك، لأن الشّرايين الدقيقة في حدقته قد انتفخت وتفجَّرت أو تكاد، وغدا كما وحشٍ بعينين حمراوين يُفزع النّاس لكنه وادع، وواظب على شرب اليانسون السّاخن في تلك الأثناء أيضا، لأن حُمَّى السَّهر والعمل المضني قد أنهكته، وجلبتْ لأحشائه الأرق المسهد، لكنّ ذلك كله يهون، فقيمة الجسد تتضاءل بوجود الرّوح التّواقة، وحلقَ ذقنه، والتي هي من الجسد أيضا، حيث لم يستطع، ولا بأيِّ شكلٍ من الأشكال، التّفرغ لحلقها طوال تلك المدة، ضاربا بعرض الحائطً ما تربى عليه من التّقاليد العسكرية اليومية في كل صباح، لذا فقد كان بذقنه الطويلة تلك، أشبه ما يكون براهبٍ زاهد من الزّمن الغابر، معتزل في ديره النّائي البعيد.

أصبح العقيد، بعد ذلك، ينامُ نوما عميقا مُطمئنًا لصق مريم، وقد راحت تنام في بيته أكثر من بيتها، النّوم العميق المطمئن، نوم القادة المنتصرين، الذي افتقده لأشهرٍ طويلة، يُطوّقها بيديه، وقد اكتشفت حلاوة السّلم، رافعةً الراية البيضاء، دون أيّة نية لديها لخوضِ معارك أو حروب.

ومرَّ أسبوعٌ إضافي آخر على جهوده الجبّارة، من الصاق المادة وتنسيقها، وقراءة المقالات المطوّلة التي تفي بالغرض. وفي نهاية هذا الأسبوع، كان نايف بيك قد ارتدى أجمل بدلة رسمية لديه، حلق ذقنه، مدندنا كالعادة، ورشّ قليلا من العطر، وحمل مخطوط الكتاب بين يديه ذاهبا به إلى المطبعة، تغمره سعادة لا يُعرف لحجمها تخمين.

جَوقة القرود الشّامتة

مرّ أسبوعان كاملان على طباعة الكتاب ونشره، ولما كان العقيد المتقاعد، ليس من أولئك الكُتّاب المشهورين، أو حتى المغمورين، فلقد مرَّ الخبَر في الصحف المحلية، مرورا عابرا. خبرا صغيرا بعدّةِ كلمات، في زاويةٍ سُفلية لإحدى الصفحات الثّقافية.

وأثناء حفل التوقيع الذي حضره عشرة أشخاص فقط، من ضمنهم صديقه إمام وخطيب الجامع، وبعض أولئك المواضبين الدائمين والمترصدين لحضور أية فعالية في الجوار، باع نايف بيك خمس أو ست نسخ من الكتاب.

كان العقيد قد ادخر جزءًا غير يسير من راتبه الشهري، وذهب إلى متجر التّحف والشرقيات في وسط البلد، وتكلّف عناء البحث عن علبة أنيقة تصلح لوضع الكتاب فيها، كان يؤمن بأن الأشياء القيمة لا بدّ لها، بالضرورة، من عناية قيمة أيضا، فلا يصلح أن تجري الأمور على نسقٍ من اللامبالاة والإهمال، فكيف يبعثُ بكتابٍ قيّم إلى العائلة المالكة، هكذا بشكله المجرد البسيط، إن أبسط معايير اللياقة والرقي والمسؤولية، من شخص يوشك أن يصبح من رجالات الدولة، تقتضي أن يكون على قدر هذه المسؤولية واللياقة، وأخيرا ابتاع علبة خشبية ذات قيمة عالية، نصحه بها التاجر، كانت متوسّطة الحجم، مصنوعة من خشب الأرز، المطعّم بخشب الأبانوس الأبيض، وعلى حوافها وأحرفها أشرطة رقيقة من الفضة المزخرفة، وقام بوضع نسخة

obeikan.com

من الكتاب فيها، وبعثها بيده شخصيًا إلى الديوان الملكي، كتب على الصّفحة الأولى منه إهداءً جميلا ومعبّرا عرفانًا بالفضل والمنّة إلى العائلة المالكة، وانتظر في بيته فوق الأريكة ذاتها، التي كانت ملاذه الوحيد ومصدر إلهامه في كل سجالاته التي خاضها، مفكرًا بعمق؛ متى عساه أن يصل الكتاب إلى يد الملك شخصيا، ومتى تفتح تلك العلبة ليروا ما فيها من جهد وتعب مُضني، وفكّر مليا على نحو استشراقي، ما الذي يمكن له أن يترتّب على هذا الأمر؟ واستهلك علبةً سجائر كاملة في تلك السّاعة الحافلة بالتّفكير العميق.

خلال ذلك، ريثما يأتيه الرّد الملكي، نأى العقيد بنفسه، واعتزل جميع الناس من حوله، لا يتحدّث إليهم إلا نادرا وتكلّفا، تجاهل مكالمات صديقه إمام الجامع، في محاولة مبدئية لإقصاء رجال الدّين من حياته، وراح، في ذلك الضّباب المعتاد، الذي لم يأتيه تلك المرة بنياشين ونجوم وقبعات عسكرية، إنما جاءه بلباس رسمي أنيق، بدلة سوداء فاخرةً، قميص أبيض، وربطة عنق خمريةً اللون ببكلة ذهبية واضحة اللمعان، وراح يجري تدريبات أولية على كيفية التَّحدث مع العامة، وفكّر بنوع ومواصفات السيارةً التي عليه أن يبتاعها، وفكر، مليا أيضا، بطريقة لتدبر أمر خالد بيك، والنيل منه، وحاول أن يتذكّر، ليكتب على الورقة أمامه، أسماءً أخرى من شأنه أن يُلقّنها درسا عظيما لن تنساه مطلقا في حياتها، جراء سوء أفعالها وصنائعها الشّنيعة معه، إنه لا يحقد أبدا أو يعرف ما هو الحقد، لكنه رجل لا ينسى من يُسيء إليه، فكلّ واحد من هؤلاء سيتلقى العقاب المناسب له دون الحاجة لتسويد قلبه المحب بالأحقاد والضّغائن، وكتب أيضًا اسم صديقه

السّابق، أمين المرزوق، الذي سرق منه عشرات الألوف في فترة الانتخابات المشؤومة تلك، عندما كان مديرًا لحملته، ومُنسّقًا لعملية شراء الأصوات، التي ندم عليها العقيد أشد ندم، لا لأنه خسر النقود- لا قدر اللّه- ، إنما لأنّ الضمير، الذي آن له أن يستيقظ، كان ينخزه بألم كلما تذكر تلك الأمور المتعلقة بالرشوة والتزوير وشراء الأصوات، وقرر أنه سيأتي به ولو من تحت الأرض، سيدخل عليه، ليجده صاغرًا ذليلاً، عند ذلك لن يعرف من هو هذا الرجل؛ نايف بيك، لأن رجال البيك المأجورين، يكونون قد أوسعوه ضربًا على قفاه الضئيلة، وخدروا قدمه الوحيدة من جلدات الفلقة المحترمة، وبعد ذلك يتقدم نايف صالح بضع خطوات، كالرجال أصحاب النفوذ، ويبصق في وجهه فقط، ولن يوجه له أكثر من هذه الإهانة.

ومرت شهورٌ مقلقة دون أن يأتيه الرد، واضطر عدة مرات أن يذهب إلى الديوان الملكي، والإنتظار لعدة ساعات لكي يسأل مُحرجًا عن تداعيات إهدائه الكتاب – وكأن للإهداء تداعيات- وفي كل مرة كان يتلقى الرد؛ عليك بالإنتظار سيد نايف.

وذات يوم، وفي إحدى صباحات الانتظار المقلقة، وبينما العقيد يشرب القهوة في الشرفة، جاءته مكالمة من رقم لم يظهر على الشّاشة، كان الرجل في الجانب الآخر من الهاتفً يخبره بمصدر المكالمة؛ الديوان الملكي. ويخبره بضرورة المراجعة:

- نبعث إليك تحياتنا سيد نايف صالح، ونطلب منك، من فضلك، أن تأتي إلينا في أقرب وقت ممكن.

ولفرط سعادته، ازدحم فم نايف بيك بالكلام، أرادت الكلمات أن تخرج جميعها دفعة واحدة، كقذيفةِ مدفع هوائي، لكنّ فمه بطبيعة الحال لا يكفي لذلك، ولم تخرج كلمة واحدةً من بين شفتيه، ولسببٍ وجيه آخر؛ فقد انحبست الأنفاس داخل صدره، وغصّ بها، وعندما لم يسمعْ الرجل أية كلمة مفهومة، غير مغمغات ومحاولات بائسة للكلام من أسفل الحلق، ظنّه رجلا أخرسا يجاهدُ توضيحَ الفكرة،فأنهى المكالمة بلباقة، وبعث رسالة نصية إلى هاتفه:

"نرجو الحضور صباح الغد، إلى الديوان الملكي العامر، سيد نايف صالح".

وفور قراءة الرسالة التأكيدية، قفز نايف بيك عدة قفزات في هواء الصباح المنعش، كتلك القفزات المعهودة التلقائية، ودار في البيت ممسكًا الهاتف أمامه كما لو كان حصانا يركض خلف جزرةٍ مُعلّقه، إنه لا يرى أيّا من أحلام اليقظة تلك، الرسالة الواضحة الصريحة، ماثلة في صندوق الوارد في هاتفه، وتمكّن من حذف كل الرسائل من حولها وأبقاها وحيدة، لأنّ رسالة أخرى غيرها، لا تستحق أن تكون في هاتف معالي الوزير.

وعندما جلس صباحًا في بهو إحدى قاعات الدّيوان الملكي، لم ينتظر الكثير من الوقت، فلقد جاءه رئيس الدّيوان شخصيًا، صافحه بحرارة، وجلس معه جلسة مطوّلة، أسفرت أخيرًا، وخلال التّعديلات الوزارية الجديدة، المكلّف بها رئيس الوزراء، عن تعينه وزيرا للدفاع، كان القرار سريعًا ومفاجئًا للجميع، وأقام له الرّفاق في المقهى، حفلا

يليق به، لكنه اعتذر عن القدوم بسبب المشاغل والمهام التي بدأت منذ اليوم الأول، واكتفى ببعثِ مجموعة من الهدايا للرّفاق القدامى، ووعد أن يلتقي بهم في المرات القادمة، فردا فردا، وأن يسمع منهم بعض المطالب حتى لو كانت شخصية، وتوافد الناس إليه والأصدقاء والمهنّؤون، وذهب العقيد إلى القيادة العامة، في زيارةٍ حرص أن يجريها منذ الأيام الأولى من تولّيه المهام الوزارية، دخلً إلى مكتب خالد بيك، وعندما قام الأخير من خلف مكتبه للسلام عليه، قال :

- معالي نايف الصالح. احترامي سيدي

بالكاد مدّ العقيد يده:

- أهلاً.

وعندما صافحه، همس العقيد نايف الصالح في أذن خالد بيك وهو يدنو منه:

- سأبذل كل مابوسعي لكي تكون في راحةٍ تامة خالد بيك-

وابتسم في وجهه وشدّ على يده، وأكمل :

- في بيتك طبعا! فلقد تعبت كثيرًا في عملك، وآن لك أن تستريح.

وراحت الشركات الكبرى، وشيوخ العشائر، وبعض الشركات الصغرى،يضعون عشرات التهاني لمعاليه في صفحات كاملة في الصحف والمجلات، وأخذ مكتب الوزير نايف يمتلئ بالمهنّئين والمحبّين والأصدقاء والغرباء، كلٌّ يمسك ورقة يحرص أن يُعطيها

شخصيا لمعاليه.

وفي جولة ميدانية أُخرى لإحدى المؤسسات، التفّ الناس من حوله، للسلام عليه، وأخذِ بعض الصور التذكارية، واقترب الأطفال للسلام أيضا، لكنّ أحدهم وقد كان بهيئة رثّة جدا، كما لو كان قادما من أحد مخيّمات اللجوء، قد مدّ يده الصّغيرة المتّسخة، وعندما انحنى له نايف بيك، بكل طيبة ومحبة، وبدلا من السلام على العقيد، صفعه الطفل صفعة مدوية على وجهه.

وقبل أن يستوعب العقيد ما حدث، كان الطفل قد وجّه له صفعةً أُخرى، ثم ولّى هاربا يمسك بنطاله لكي لا ينزلق عن مؤخرته وسط ضحكات متوارية وشامتة من الحضور، ثم ارتفع صوت القهقهات، لكنه لم يتمكّن من رؤية أيّ منهم يضحك، لذلك غضب وطلب منهم أن يكفوا عن الضحك، لكنهم لم يفعلوا، "اخرسوا أيها الحمقى!" ولم يخرسوا أيضا، ووضع يديه على أذنيه لكي لا يسمع شيئا من ضحكهم الجماعي المؤلم والمستفز، والضحكات ما زالت ترتفع وتستمر كجوقةِ قرودٍ شامتة.

واستيقظ العقيد أخيرا من فوق الأريكة على صوت الجماهير الخفية وهي تضحك على مواقف مضحكة في برنامج مقالبِ كاميرا خفية شهير، حيث كان التلفاز ما زال يعمل، وكان العرق ينزُّ عن جبهته، ونظر إلى الساعة فكانت الثالثة والنصف فجرا.

وسمع صوت ديك يصيح في الجوار عدة مرات، لكنّ صياح الديكة لا يعني بالضرورة أن الفجر قد بزغ، فانتظر بلهفةٍ شروق شمسِ

صباح اليوم التالي؛ولم يستطع العودة إلى النوم،استلقى على ظهره فوق الأريكة، يُدخن ويمدُّ يده إلى داخل تلك الغيمة فوق رأسه، يُقلِّب الأحلام واحدا تلو الآخر ويستعرضها، يُطيل المكوث عند كل واحد منها، وعلى هذا الحال، أشرقت عليه شمس الفجر الباردة، كأنه حمامة تقف مستعدة على حافةِ عُشّها لكي ترفرف مع أولِ خيوط الضّوء صوب التلال، وحلق ذقنه وهو يدندن من أنفه، "مممممممم..ممممم" وصبّ في يده قطرات من "كالونيا فريسكال" للرجال، فرك يديه ببعضهما ومسح وجهه بعناية، ووضع، خلف أذنيه، عدة رشات من عطرٍ أنيق، حصل عليه كهدية ذات مرة، ويحتفظ به للمناسبات الفخمة والمهمة. عطر يليق جدا بفخامةِ المؤلف، ومعالي الوزير، أو حتى دولة الرئيس.

طلب نايف بيك مريم في الهاتف، وكان قد أخبرها صباح الأمس وشاركها فرحته بذلك الخبر، وطلب منها أن تستعدّ للذهاب معه في هذا اليوم، وما إن ردّت على مكالمته، حتى أخبرته بأنها في الأسفل:

- إنني أنتظرك في السيارة منذ ربع ساعة نايف بيك.

وانطلق بسيارتها تملؤه البهجة، إلى الديوان الملكي.

كانت اللجنة الموكلة بتقييم الكتب الواردة إلى الديوان بغزارة، قد رأت مقدار الجهد الذي بذله نايف بيك في تأليف كتابه، قدّرت حجم التعب المضني في تجميع المواد من الإنترنت والعناية بها، ومن ثم نسخها ولصقها كما هي، لأن المزيد من صفحات الكتاب كانت ما تزال تحتفظ بروابط المواقع الإلكترونية مكتوبة ضمن الفقرات، بعض المواضيع ما يزال مكتوبا في آخرها بخطٍ مائل: "الرجوع إلى البداية "

أو "أنقر هنا"، مع وجود العديد من الروابط للإعلانات التجارية، والأفلام الإباحية، التي تم نسخها ولصقها أيضا ضمن المادة، كذلك الكثير من الأخطاء على صعيد اللغة، أو من حيث الأخطاء التاريخية في المضمون.

فقدّرت اللجنة مدة إنتاج هذا الكتاب، وتكلفة طباعته، وقررت صرف "شك" نقدي باسمه لكي لا يضيع هذا الجهد من قبل نايف صالح.

عندما تسلَّم العقيد المتقاعد، المبلغ المتواضع، الخمسمائة دينار، وقف ينتظر. قال الرجل:

- ما الذي تنتظره من فضلك؟

ردّ نايف بيك:

- هل هذا كل شيء؟

قال المسؤول:

- نعم هذا كل شيء.

فقال نايف بيك بضراعة:

- أقصد، هل هناك منصب مُعين، سيوكل إليَّ به؟

ضحك الموظف، متمحّصًا هيئة العقيد، أضاف:

- منصب معين؟ نحن لسنا ديوان خدمة مدنية كما ترى يا سَيدي.

وأخبره بضرورة الانصراف، وأن عليه أن يتفضّل ويبتعد من أمامه،

obeikan.com

لأنّ آخرين ينتظرون أخذ شيكات، تُصرف لهم، بدل أتعاب تأليفهم كتبا وأبحاثا على الغرار ذاته.

وذهب نايف بيك في دوار بسيط، بالكاد تماسك نفسه، أمسكت مريم بيده وذهبت به إلى السيارة، عاد إلى بيته مهزوما من الداخل، شعر بأن شيئًا ما حادا يواصل الحزَّ في أحشائه،وأخذ يشعر بالغثيان والدوار الشديد، ماذا عن تلك المناصب العليا، ماذا عن وزارة الثقافة، وزارة الإعلام، مستشار في الديوان أو غيرها، ما الذي يحدث بحق السماء؟ إن الاكتئاب الذي، بالكاد، ذهب عنه قبل فترة قصيرة، بدأ يتسلل عائدا إليه بنهم وشراهه، وبكل لطف طلب من مريم أن تتركه وحده لبعض الوقت، وجرع، فوق الأريكة، عدة جرعات من البيرة التي عاد بذلك إلى شربها، ورغم أنه لم يتناول شيئًا منذ الصباح، إلا أن رغبته في الأكل قد تلاشت لصالح رغبة عارمة في تدخين المزيد من السجائر، وفتح الزجاجة تلو الأخرى، وقلَّب المحطات الفضائية دون وعي لما يفعل، إن كان القادة العسكريين المغتاضين منه، قد حاربوا نجاحه، بكل ضراوة، أثناء الخدمة العسكرية، فمن يحاربه الآن في هذه الحياة المدنية؟ وناجى ربه بصوتٍ خافتٍ مخنوق:

– من يفعل ذلك يا رب، من هو ذلك المخلوق المتربّص بي يا رب، من هو؟

واعتلته نفحةٌ إيمانية أخرى بعد صمتٍ خاشع، ومن جديد، وعلى أثر السكرة، المترافقة مع حبةٍ من ذلك الدواء، همس متوسّلا إلى إلله بلسان حاله:

– يا الله، إن كنت موجودًا هناك في الأعلى، أو في أي مكانٍ من

حولي، أو كنت إلى جواري فوق هذه الأريكة، تسمع همساتي المخنوقة، فارحم عبدك المسكين؛ عبدك الذي يُشبه خروفا الآن، ارحمه يا اللّه من عليائك البعيدة، ارحم هذا الخروف الضعيف وأبعد عنه أنياب الذئاب المتجولة في الجوار، تلك الذئاب التي تشتم رائحة نجاحاته من بعيد، لتركض إليه وتنتشه في ظهره دون أدنى رأفة أو رحمة، اقض عليها يا اللّه، لقِّنها مزيدا من دروسك القاسية يا اللّه!

ومسح دمعة كادت أن تنحدر بعد أن نزَّت من حافة عينه، وفكَّر مليًا بإمكانية وجود المسوِّغات لفشله المتواصل، لكنه لم يهتدِ إليها، ودارت من حوله الجدران مرة أخرى، وتفتّت غيمة الأحلام وتشظّت كالزجاج المكسور من فوق رأسه،فقذف وجهه فوق وسادة الأريكة، ودخل في حالة مرهقة من التّعاسة، هدَّت قواه، واستلقى مقاومًا الرغبة الطفولية، الملِحة باستمرار، في حالةٍ كهذه، لكنه لم ينجح، وأخيرا تشرنق ووضع إصبعه في فمه وراح يمصه، مغمضا عينيه، إلى أن نام فوقها من جديد.

العقيد يُحاول البَوح

أنهى المحقق المكالمة وهو ينظر طويلاً إلى عيني العقيد، والأخير جالسًا في المقعد بصمتٍ غائرٍ في العمق. ثم طلب رقما آخر:

– مرحبًا أيها العم فارس.

– أهلاً بك، تحياتي سيدي.

– أهلاً بك. كيف هي أمور المقبرة؟

– كل شيء تحت السيطرة، أحيانا يخرج أحدهم متسكعا في الليل، لكنه يعود قبل شروق الشمس. كل شيء على أحسن حال.

ألتفت الرجل إلى العقيد ضاحكا، وقال:

– ظريف هذا العم فارس؛ الأموات يتسكعون في الليل!

لبرهة طرأ له خاطر رهيب، وفكر إن كان بإمكانه أن يذهب إليه في تلك المقبرة، متظاهرا بأنه أحد الأموات الذين يراهم متسكّعين في عتمة الليل، ثم يُجهز عليه ويقتله. وسأل العقيد:

– أين هي المقبرة؟

رفع المحقق يده في وجهه ليصمت. وهو يعيد الهاتف إلى فمه:

– دعهم يتجولون براحة تامة، لا تشدد عليهم الخناق. لكني كنتُ أتساءل، ما الذي قاله العقيد، بالضّبط، وهو يركب على كتفيك

obeikan.com

بعد انتهاء صلاة الجمعة في اليوم الثاني لنتائج الانتخابات؟

– كما أخبرتك بالهاتف، وجدني محني الظهر وأنا أرتدي حذائي، فركب مثل قردٍ فوق كتفي وتوسّل إلي أن أحمله بعضَ الوقت، وأنا بطبيعتي لا أستطيع أن أرفض أيّ طلبٍ، مهما كان، للناس من حولي، فجعلته يصعد بخجلٍ وحياء، وعندما سمعته قد بدأ يسبُّ ويشتم، ولم يسلم أي شيء في الحكومةِ من لسانه، سارعتُ على الفور بطرحه أرضًا!

– أها، وماذا عن طلبه بشأن النّبش في تلك الخربة الأثرية، والتي أوكلتك الحكومة بحراستها؟

– كما قلت لك أيضا، فقد حاول رشوتي بمبلغ كبير، عشرة آلاف دينار، تخيّل! وقال بأن لديه معلومات عن وجود كنوزٍ عظيمة فيها، لكنني أبدا لا أبيع أمانتي وضميري، لم أسمح له بالتنقيب ولو حتى بضربة فأس واحدة، لكنه جاء إلى البيت في غيابي، اقتحم حرمته، وراح يصرخ في وجه زوجتي ويهددنا ويشتمنا.

– يهدد ويشتم؟ عظيم! شكرا لك عم فارس. انتبه ألا يباغتك أحد المتسعكين.

وأغلقَ المُحقّق السماعة الخارجية والهاتف، وقال للعقيد:

– أعتقد أنك لا تستطيع أن تنكر، أبدا، بعدما سمعت كلّ كلمة بأذنك.

لكنّ العقيد كان قد فقد السمع و الحواس كلها تلك اللحظة، فكر بأن

فارس لا يعمل من تلقاء نفسه، لقد طلب هذا الرجل منه ذلك بكل تأكيد، أن يأخذ آخر مدّخراته لكي يغرق في ظلمة الفقر والأعباء المالية، ثم فكّر بأن رداءً أبيض، عليه بعض اللطخات الحمراء والصفراء المقرفة قد يفي بالغرض، سيضع شيئًا على وجهه ليبدو شاحبا كوجه ميت حديث العهد، ورأى نفسه يدخل خلال جدار الظلام، يتسلل حبوا كأي تمساحٍ متربص، وما إن يتقدم نحو العم فارس، حتى يجعل أمر المتسكعينً في الليل حقيقة لا خيال وتهكّم، ثم يكشف له عن هويته، لا يكفي أن يموت هكذا، لا بد أن يعرف الجاني من هو آخذُ الثأر منه، ثم يفاجئه بطعنة مميته، وقد يتسع له الوقت لكي يواري، بطيبٍ منه، جثته في حفرةٍ جاهزة ضمن القبور.

والتفت نحو المحقق الذي نكزه، برفق، على كتفه ليعيده من حالة الشرود، أراد أن يقول له بأن العم فارسً ابراهيم ضحك عليه وأخذَ منه مبلغا كبيرا من المال، وأن الأمور، بلا شك، لا يجب أن تتم على هذا المنوال من الإتهام الجزاف وصرف الأباطيل، وأنهم، وبلا شك، يستطيعون التّحقيق في كافة المواضيع، لكي تبان الحقيقة على أكمل وجه، لكنه، وتحت فرضية أن محدثه متورطٌ بذلك، فضّل الصمت هذه المرة أيضا. وتابعَ الرجل القراءة من الورقة أمامه:

– لكنها لفتة طيبة منك أيها العقيد، أن تذكر قائد بلادك بالخير، وتبدأ بتأليف ذلك الكتاب الذي قمت بتأليفه، لكنك ارتكبت خطأ جسيما، لقد سرقت كتابا كاملا من الانترنت، أضفت عليه بعض النّصوص والمقالات التي اقتبستها من هنا وهناك، وفوق ذلك، تسأل موظف الديوان، بعد تسلمك مكافأة جيدة، إن كان سيوكل لكَ بوظيفةٍ

ما عُليا. فهل قمت بإصدار الكتاب لهذه الغاية أيها العقيد؟ ألم يكن دافع ذلك من صميم اعتقادك؟ هل هكذا تُملأ الوظائف العليا الشاغرة في هذا البلد؟ هل نذكر رؤساءنا بالخير، لكي نُحرجهم ونطلب منهم بعض الوظائف العليا؟ هل وصلنا إلى هذا الحال برأيك؟

شعر العقيد بالنّمنمة والخدران تزدادان في قدميه، شعر بأنهما يتحوّلان إلى قدمين من رخام، لذلك مدّ رجليه قليلا إلى الأمام،وقال:

- أشعرُ ببعض التّشنج. أُريد أن أتمشّى قليلا.

- لا بأس. كدنا أن ننتهي. سنخرج الآن، وبإمكانك أن تتمشى معي إلى حيث أركن سيارتي.

وبعد لحظةٍ تساءل المحقق:

- هل لديك سيارة؟

قال العقيد:

- دعني، من فضلك أسألك انت، هل لدي سيارة؟

ضحك المحقق ضحكة مصطنعة، وقال:

- لا تظلمني كثيرا، أيها العقيد. كنت أمازحك فقط.

ما إن وقفا، حتى رأى المقهى وقد عاد إلى سابق عهده، وفوجئ بأنه أبدا لم يلحظ دخول الرجال، حتى إنه لم يسمع صوتهم أثناء حديثه مع المحقق، وفكر بأن ذلك ربما مردّه إلى أنه كان يجلس منهمكا في التفكير والحديث، وظهره إلى المدخل، وربما، وعلى الأغلب بأنه كان شارد الذهن عندما دخل إلى المقهى، فلم يلحظ وجودهم، ونظر

obeikan.com

إليهم نظرة غير مبالية، تمعّنهم قليلا، وبسببٍ من كنزاتهم الصوف الخضراء العسكرية، وظهورهم المحنية على طاولات النرد، فكر بأنهم أقرب ما يكونوا إلى قرون بازلاء عملاقة موضوعة فوق الكراسي، يقذفون أحجار النرد بصمتٍ قدسيّ رهيب ومفرط.

حاول ألا يتسبّب بإزعاجهم، مشى ببطءٍ وهدوء، وتوجها إلى الباب الزجاجي للمقهى، وقدم الشاب من المطبخ، تناول رزمة مفاتيح كبيرة من جيبه وفتح لهما الباب، أراد أن يسأله كيف دخل هؤلاء الرجال إذن؟ هل اقتضى الأمر أن تفتح الباب وتغلقه لكل واحد منهم؟ لكنه عدل عن ذلك وفكّر بلاجدوى سؤاله، وقرر، في أبسط الحلول، أنهم موجودون من الأساس لكنه لم يلحظهم عندما دخل أول مرة، فيحدث كثيرا أن يغيب التركيز لبعض الوقت، كما قد سبق له أن قرأ ذات مرة في كتبه القديمة.

وتمشيا إلى الشارع الآخر المحاذي لشارع المقهى، لم يحثا الخطى أو يسرعا في المشي، كانت الأجواء رائقة بصورة جيدة، والهدوء الناعم ينتشر في الأرجاء، ولاحظ أنّ الرجل يمشي إلى جواره بحسن صحبةٍ ودون تكلف، وبسببٍ من طوله المقارب لطول العقيد، لم يشعر من ناحيته بأيّ شيءٍ من الفوقية، وشعر بشعورٍ آخر غريب، كما لو كان اللاشعور ذاته، ثم ساورته نفسه، بشكلٍ مُلحٍ، أن يتحدّث إلى رفيقه، كأي صديقٍ حميم، بأمورٍ طالما شغلت بالَه وتفكيره، أن يبوح له ببعض الحزن الداخلي، الذي لم يستطع أن يبوح به لأحد منذ مدة ليست بالقصيرة، أن يقول له: هل تعرف يا صديقي، إنني أكاد أختنق! أو يقول له بعد أن يزفر تنهيدة: إنني لست على ما يرام، أيها الصديق!

ورنّح يديه إلى جانبهِ دون توتّر، واسترق بعض النّظرات إلى رفيقه، وبسببٍ من العتمةِ، وبعض الإضاءات الخافتة القادمة إليه، كان الغموض يكسو ملامحه إلى حدٍ ما، وقال في نفسه إنه شخص جيد على أية حال، ليس بذلك السوء، إنه يعرف أن الحبّ والموسيقى وجهان لعملة واحدة- رغم أن كلمة عملة لا تناسب الحب - لكنه يمارس عمله الموكول إليه، ولبرهة قليلة فكّر لو كان هو الآخر قد صُنف إلى شعبة الاستخبارات العسكرية، لكان الآن على رأس عمله، محققا جيدا، يعرف كل شيء، ويتصرّف برقي وذكاء حاذق مع المدانين؛ لكن من هم المدانين؟

وقبل أن يشرع بالكلام والبوح الذي أوشك أن يخرج عنوةً من جوفه المعذَّبة، طلب منه المحقق أن يصعد معه إلى سيارته المركونة تحت انارة العمود:

- سأوصلك بطريقي، أيها العقيد.

ولم يمانع أو يتردد، وفكر بأنه تصرف لبق من قبله نحو شخص العقيد، وفتح له الباب بنفسه:

- تفضّل

- شكرا لك

وبعد أن جلسا في السيارة، تسنّى له أن يرى بوضوح، تحت تلك الإنارة، وجه محدّثه، بعينين بنّيتين، وحاجبين مستّويين وليسا بالكثيفين، وشعرا مُصفّفا بعناية، ولأول مرة يشتم رائحة عطره، وفكر بأنها أزكى من تلك التي يملكها، والتي يحتفظ بها للمناسبات الفخمة،

حتى أنه تمنى، لو يملك واحدة مثلها.

ولم يدر الرجل المحرك، فبعد أن استند بظهره إلى النافذة مواجها العقيد، نظر إلى عينيه بشكلٍ مباشر. قال:

- لك عندي مفاجأة جميلة، سننهى هذه اللعبة الآن أيها العقيد.

opeikan.com

obeikan.com

النّاقوس

البلدة الجنوبية.

ذات صباح مبكر، وصلت مريم برفقة العقيد نايف الصالح في شأنٍ مهم إلى البلدة. وغدت سيارتهم الغولف السوداء كسلحفاةٍ تتقدّم بهدوءٍ في وطأة الليل، تبحث بروّيةٍ عن بيت أحدهم.

كانت أشجار السرو الشاهقة والنحيلة ذات الرؤوس المدببة، تحفُّ الشارع الرئيسي الوحيد في البلدة، وإلى الداخل، من هذه الأشجار الحرجية، توجد بساتين مليئة بأشجار الزيتون واللوز وكروم العنب، لكنها، لقلة العناية بها، ليست بذلك المحصول الوفير، وعلى الحواف تتجاور أشجار صبر (تين شوكي) عديدة، ذات ألواحٍ كما لو أنها آذان أرانب ضخمة متلفّتة برأسها.

كانت كلها أشياء داكنة وصامتة في عتمة الليل، بلونٍ أحادي، وهي تتشرّب ضوء القمر الخافت بهدوء، وغارقة في دخانٍ فضي منبعث من مداخن تنانير الخبز التقليدية، وكان هناك قطٌّ يتجوّل بحذرٍ رافعا ذيله بينما أقلقه صوت كلبٍ ينبحُ في الجوار.

تمهّلت سيارةُ الغولف ثم انعطفت إلى اليمين بين بيوتٍ متقاربة، لتصعد طريقا قصيرا غير مُعبّد، لكنه مُملَّس من كثرةٍ ما داسته الأرجل وسيارات الشحن الصغيرة في البلدة، وكان هناك بيت صغير على ناحية اليمين، بضوءٍ خافت ينبعث من نافذة إحدى الغرف، بينما

تتسلق كرمة عنبٍ برشاقة إلى سطحه.

وقفت السيارة عند مدخل البيت، ترجل العقيد نايف صالح، ومشى عدة خطوات إلى الأمـام، صافح الرجل الواقف بانتظارهم لصق الجدار، بكامل هيئته النّشيطة كأي كلبٍ سلوقيٍّ رشيق، وابتسم الرجل بخفةٍ والسيجارة ما تزال بفمه، و همس له:

– دعها تركن السيارة خلف البيت، من هنا.

وأشار بيده إلى ناحية ما.

وما إن ترجلّت مريم، حتى أخذهما بسرعةٍ إلى الفناء الخلفي للبيت، ولأن أغنامه تبيت هانئةً بداخله كل ليلةً، فقد كانت هناك بصحبتهم، وثمة رائحة قذرة للمكان، غير أنها ليست مزعجة بالنسبة إليه، فلم يضع يده على فمه وأنفه مثلما فعلت مريم والعقيد، فقد تربى منذ طفولته على هذه الرائحة التي غدت من منظومة الروائح التي اعتاد أنفه المدبب على استنشاقها، وراحت مريم والعقيد، يخرجان بالتناوب من باب الحضيرة الخشبي الصغير المصفّح إلى منتصفه بقطعةٍ كبيرة من حديد الزينكو، مستنشقين كمية وافرة من الهواء، ثم يعودان حابسين أنفاسهما إلى الداخل، وعندما تنبّه الرجل، قال:

– عذرا أيها العقيد، أعرف أن المكان هنا رديء، ومليء بروث الأغنام تحت أقدامكم.

ثم ابتسم وبان عدد أكبر من أسنانه الصفراء والمتعفنة، وأردف:

– لكن ماذا بوسعي أن أفعل هئ هئ

وضحك بخفةٍ بينما كان يُشير بيديه بحركةٍ تنمّ عن قلة الحيلة والقدرة لكنه أكمل:

– لننتظر قليلا ، سيخرج جارنا من أمام البيت، مع أغنامه الفضولية مثله عما قريب.

وأشار بيده ناحية البيت بعد أن مشى عدة خطوات وأطلّ برأسه ليرى إن كان قد خرج أم لا، وأردف بينما ما يزال ينظر بحذرٍ إلى ذلك الاتجاه بعينيه الغائرتين:

– إنه قذر ومقزز.

وأكمل بعد أن عاد إليهم:

– لا أُريد أن يرانا هذه الوغد المقزز كما قلتُ عنه قبل قليل.

ولأنّ العقيد نايف صالح، وجد هذا الرجل ينظر إليه بينما يقول جملته الأخيرة، فقد هزّ رأسه عدة مرات كنوع من التأييد والتعاطف وهو ما زال واضعا يده على أنفه وفمه، وأشفق العقيد على حال مريم، وهي بالكاد تتنفس بينما تقف فوق القاذورات، وهمس في نفسه، متطلعا إليها بنظراته الحنونة، بأنه متأسفٌ لجلبها معه ووضعها في هكذا ظروف، وأنّ عليها أن تصبر لأن القادم الذي ينتظرهم في نهاية هذا اليوم أجمل بكثير، وأنّبته بعينيها، وهي تبادله النّظرات، وقالت في نفسها أيضا: كنت سأغضب منك لو لم تفعل وتأخذني معك عزيزي نايف. فهز رأسه، وقال بلسان حاله ردا على تأنيبها الداخلي، وهو ما زال ينظر إليها أيضا: وكيف لي ألا آخذك معي في كل أموري، عزيزتي مريم؟ ووضع يده على خصرها وجلبها إليه، لبث المزيد من الطمأنينة

في قلبها، ولم تتحرك أو تمانع وضع تلك اليد، بل على العكس من ذلك، اقتربت بجسدها إليه أكثر.

وأكمل الرجل مبتسمًا:

– لماذا لا أريده أن يرانا هذا الجار اللعين، لأنه سيدسّ أنفه الطويل فيما سنفعل، وأنا مُحرج جدا لأجلكم.

قال جملته الأخيرة عندما كان يرفع ثوبه ويجلس على طوبة موضوعة في الحضيرة بشكلٍ طوليٍّ، وأردف:

– انتظروا قليلاً، قليلاً فحسب، إن الله دائمًا مع الصابرين.

وابتسم في وجههما وحرص أن يُوزّع هذه الابتسامة بسخاءٍ أكثر في وجه مريم. وفي هذه الأثناء المبكّرة جدا من الصباح، وبينما النَّجمة الكبيرة ما تزال تتلألأ وحدها مُضيئة في الجهة الغربية من كبد السَّماء، غدا بوسع الليل أن ينجلي رويدًا رويدًا، كأنّما راحت الشّمس، وبيديها الضخمتين تسحب غطاء العتمة الكبير بخفة وهدوء إلى الأسفل، وأخذتْ خيوطها البيضاء المزرقّة الرقيقة تصلُ الآن إلى السهول والتلال الممتدة وحواف الوديان، بينما تنسلّ وتنساب برفق من قرصها الأرجواني المشرق وهي تترقرق على حُدَب الجبال الشَّرقيةً للبلدة.

وفي الجوار، ركض حمَلٌ سمينٌ برشاقة خلفَ أُمه النعجة البيضاء، يتقافز ناطحًا برأسه في الهواء العليل. وجرَّت بقية الخراف أذيالها المكتنزةِ بالدُّهن، راعيةً في بلاد الله الواسعة، تحصدُ أفواههن الطويلة الملاصقة للأرض ما يرتطم بها من العشب الأخضر الطّازج

بينما تسير، كأفضلِ توضيح عملي لنظرية القطيع، وراء دقّات ناقوس صغير مُعلّقٍ برقبة إحداهن. ونبح كلبٌ عدة مرات من مكانٍ ما، دون أن تتوقّف قافلة الخراف، ومن باب المنافسة أخذ كلبٌ آخر يرد عليه من ناحية السّهل القريب.

وفي الأفقِ البعيد، فوق الجبال البنفسجية، رفرف سربُ حمامٍ بري، طارَ مُبتعدا باتجاه الغرب.

ولأنّ الجار صاحب الأنف الطويل، قد خرج قبل قليلٍ بصحبةِ أغنامه، ومضى يقودها إلى المراعي. قال العقيد بصوتٍ خافت:

– ها قد خرج جارك على ما أعتقد، والآن، هل جلبت كل شيء؟

– أجل أيها العقيد. جلبتُ كلَّ شيء.

obeikan.com

obeikan.com

الحصى الصغيرة تنقرُ صلعة العقيد

في الخارج، على رصيف الشارع الفرعي، كانت شاحنة بيضاء بانتظارهم، "بك أب" ذات غُرفة واحدة، كابينة السائق والشخصين المجاورين، وصندوق خلفي مكشوف. وبعد أن ركبوا جميعا بها، استدارت وذهبت بهم نحو الطريق العام.

كانت نساء القرية قد استيقظن باكرا ذلك الصباح، وعلى خلاف أزواجهن الذين يشرعون بالإبكار إلى فلاحة الأراضي ورعي الماشية، فقد رحن يتجولن ببلادة أمـامَ البُيوت الرِّيفية النَّائية عن بعضها، ينثرن حُبوبا للدَّجاجات والديوك، ومن فوقِ جدار رطب من الحجارة المتراصّة، يُطلُّ رأس بقرة نحيلة ناظرة صوبَ الطَريق المعبَّد، تمضغ بفهما شيئا لا يبدو أنها ستنتهي منه عما قريب، وعلى زقاقٍ ترابي ضيق، ملاصق لبيت بسيط بطابقين، تضعُ طفلة يدها الصغيرة على شعرها الأشعث المنفوش إلى أسفل كتفيها، بينما تمسك الأخرى بثوب أمها، وتجلَّت البلدة مكانا متألقًا ورائقا، والهواء منعشا عليلا في هباته البِكر، وكل ذلك أخذ يُبلي بلاء حسنا لبعث المرح في داخل نفس العقيد وصديقته، أخذت مريم تنظر من خلف زُجاج نافذة الشاحنة إلى الحقول الفسيحة المزروعة بأشجار الزيتون، ثم إلى شمس الفجر الباردة في حُضن الأُفق، والتي لم تكن تركض إلى الخلف مثلما تفعل بقية الحقول والأشجار، لكنها، وكأنها الحقيقة الماثلة، ترافقهم باستمرار متطلعةً إليهم، إلى العقيد نايف صالح بالتّحديد الذي يرسم

ابتسامة على وجهه المستطيل، وراحت أشعتها البيضاء المزرقة تصل إليهم بشكلٍ متلاحق، وتتعداهم إلى بقية السهول والهضاب.

وتباعدت البلدة في الأفق شيئًا فشيئًا، وما إن أطلت الشمس حتى استطال ظلّ سيارتهم "البك أب"، كما لو كان قطعة من المطاط، وهرول بهدوءٍ، نحو الغرب، صاعدا التلال المقابلة، وراح يسير هو الآخر سريعا برفقتهم.

ونظر العقيد نايف صالح بخفة نحو الشمس التي لم يشتد وهجها بعد، وفكر بتلك الإشارة الإلهية الأُخرى، بعد أن سمعها تهمس له:

– أبعث إليك هذه الأشعة الإضافية يا نايف، أدفئ بها صدرك، وأبارك يومك المميز،لتتمكن من استعادة أمجادك وجلي الهموم عن روحك التواقة.

وهزَّ رأسه وزرَّ عينيه وأشاح بوجهه إلى الأمام متأملاً، تلك المباركة، ومفكرا بما سيحدث له بعد هذا اليوم الفارق في تاريخه.

توقفت السيارة لبعض الوقت، لأن قطيعًا من الأغنام برفقة كلبين، وحمارا رماديا فوقه صبي، يعبرون الشارع جميعهم ببطءٍ شديد، فشتم العقيد نايف الراعي، وصرخ به بعد أن وقف في صندوقِ الشاحنة:

– هه! لماذا لا تسرع بتلك النّعاج المريضة مثلك أيها المعتوه؟

وبسببِ تلك الإهانة، راحت النعاج تلتفت واحدة تلو الأخرى إلى نايف بيك، تهزّ خطومها وتصفعه في عيونها المحتقِرة، وتبطئ أكثر في مسيرها نكايةً به، وماءت جميعها في مسباتٍ قادحة جماعية:

"مممماااء.. لما لا تنظر إلى أنفك الضخمة المحمرة أيها المهرّج " وتضامن الحمار معهن، بعد أن أخذ ينظر شزرا بطرف عينه الواسعة إلى العقيد نايف، واقترب من صندوق السيارة، وخرج عن صمته، ونهق في وجهه بشتيمةٍ أخرى عدة نهقات، وكل ذلك، في دفاعهم جميعا عن الراعي الذي لم يسمع الشتيمة،وفضّل عدم الإكتراث وإماطة اللثام عن وجهه.

فلعدم وجود فسحة إضافية في كابينة الشاحنة الصغيرة، فقد اضطر نايف بيك للجلوس في الصندوق الخلفي المكشوف، بعد أن وجد له حيزًا مناسبا بين كومة الكراكيب والأغراض المرصُوصة هناك، ورفرف شعره المغطِي لصلعته بشكلٍ جانبي، وكان قد استمتع بما فيه الكفاية بهواء الصباح المنعش العليل بينما يسيرون على الطَّريق الرئيسي المعبَّد النَّظيف، لكنه وعندما انحرف بهم السائق فجأة إلى طريق فرعية تُرابية، أصبحَ من المتعذر تمييز نايف بيك وهو يرزخُ تحت هجمة عنيفة من سحابة الغبار المتلولبة حول الحافلة المسرعة، وراحت ذرَّات الغُبار المتطايرة تلتصقُ بشعره، وتحوّلت رُموش عينيه الطَّويلة، إلى رموش بيضاء حليبية، وتدلت عدة شُعيرات إبريَّة مُغبرة من أنفه الضخمةً، وتحولت بشرة العقيد نايف صالح السَّمراء الجافَّة إلى رمادية مُطفأة، وحملَ الهواءُ على جناحيه شيئا ما؛ حشرة مفصلية صغيرة جدا، لها أرجل عديدة، قذف بها في إحدى عينيه، وسبحَ هذا الشيء مُتخبطًا لتنسدَ عين العقيد تلقائيا حابسةً وجعًا حارقا ومؤلما، وانحدرت دموعه، وتمنَّى فقط لو لم ينس نظارته الشّمسية لكان يرتديها الآن في هذه الظروف الصعبة، أو لو أنه يحصل

obeikan.com

على نظارة السيدة مريم الجالسة براحةِ بال في الأمام، فإنه يحتاجها بشكل ضروري ومُلح جدا في هذا الوقت،وقال في نفسه؛ إن الصعاب قد هانت، وهذه المعاناة التافهة في صندوق السيارة، ليست ذات قيمة إذا ما قورنت بما هم ذاهبون إليه.

لكنَّها لغاية اللحظة أبدًا ما هانَت،فقد سارت الشاحنة الصغيرة خلال الطريق التُّرابي مسافة لا يُستهان بها، ولم تكن الطَّريق منبسطة، وبين الفَينة والأُخرى يرتفع العقيد نايف صالح في الهواء عدَّة إنشات ثم يهوي على مؤخرته بقوَّة جرَّاء الحُفر والأخاديد الغائرةِ بعمق في الطريق، وراحت حدّة الغُبار تشتدُّ، لدرجةِ أن حجارة صغيرة أخذت تتراشق في الهواء بفعلِ سرعة الشاحنة، وراحت تنقرُ صلعته ورقبته بشكلٍ قوي ومزعج.

obeikan.com

حجر النّرد

بعد أن أوصلتهم الشاحنة الصغيرة إلى نهايةٍ مسدودة للطريق الترابي، أكملو المسير راجلين على أقدامهم، وجلب الرجل حماراً كان موثوقا إلى وتدٍ في مكانٍ ما، وطلب من السيدة مريم أن تتفضل وتركب لأنّ الطريق وعِرة وطويلة، ووافقت بعد أن رفضت لأول وهلة، وتقدّم منها نايف بيك، وحملها من خاصرتها بكلتا يديه، أرادت أن تقول له: لا تجعلني أضحك بالله عليك! لكنها ابتسمت فقط وخجلت، وكان العقيد قد شرد بتفكيره؛ رأى نفسه فارس أحلام نبيل، يضع حبيبته على فرسٍ أبيض ثم يقفز إلى جوارها، لكنه فزع علّى نهقاتٍ متواصلة من الحمار المنزعج.

ولأكثر من نصف يوم، أخذوا يمشون في إحدى الأودية الجنوبية الغربية للبلدة، إلى أن أرخى الليل سُدوله الممتدة بانسياب، وراحت الطيور تُطلُّ بمناقيرها وأذيالاها من فوقِ أغصان أشجار ضخمة كما لو كانت كائنات عملاقة من زمن الديناصورات تحفُّ جانبي الوادي، وتنتشر بين جذوع هذه الأشجار، شُجيراتُ دُفلى صغيرة، ويسيلُ جدول صغير على استحياء بائن في مجرى ضيِّق ومتعرِّج في قعر الوادي، ليصب في آخر مساره بالبحر الميت، وأخذت بعضُ الضفادع المحاطة بأعدادٍ كبيرة من أبي ذنيبة، تُنقنق بتناوبٍ مدروس وهي تُخرج رؤوسها من سطح الماء. وتركض سرطانات نهرٍ صغيرة بشكل جانبيٍّ وسريع على حوافه الرّطبة المخضرة، ثم تكمشُ أرجلها مختبئةً بين الأحجارً

اللزجة الملساء.

وبعد أن استطالت ظلال الغروب وتداخلت حتى أصبحت ظلا واحدا ضخما ابتلع كلَّ الموجودات، طفقَ كلٌّ شيء يصبح داكنا دون ملامح وتفاصيل، وغدت عناصر الوادي جميعها نائمة بهدوءٍ تحت وقع السكون المهيمن.

أخذوا استراحة في نهاية المطاف، أخرجوا مصابيحهم اليدوية، ووقف الرجل وأشار إلى العقيد نايف والسيدة مريم أن يتبعاه إلى مكانٍ تحت سفحِ جبلٍ صخري، وعندما مشى العقيد مباشرة، يحمل مصباحه اليدويَ خلفَ الرجل الأقصر منه، كانت بقعة الضوء تأتي مباشرة على رأسه من الخلف، ولاحظ العقيد أن هناك بُثورا كبيرة وواضحة على صلعته، ولما كانت هناك عادة تولدت لدى العقيد إبّان كان قائدا عسكريا، أن يعد أي شيء قابل للعدّ أمامه، فقد استطاع أن يعدها مرات كثيرة، وخمّن أنها ناشئة عن أشعَّة الشَّمس العمودية على تلك الصلعة في أوقات الظَّهيرة. ولأنها كانت ست بثور بترتيبٍ معين، فقد فكر بأن رأسه أقرب ما يكون إلى حجر النرد.

وبدا امتعاض نايف بيك واضحًا من المكان الذي سيقضون الليلة فيه، لأن المبيت لم يكن في الحسبان، المعلومات الأولية التي قالها له الرجل قبل أن تبدأ الرحلة لم يكن من ضمنها مبيت ليلة.

– لماذا ننام؟ لم تقل لي ذلك من قبل؟

قال الرجل المنهمك بإعداد المكان:

- لأننا لن نتمكن من إنهاء كل شيء في عتمة الليل، سننام هذه الليلة، وغدا صباحا نقوم بكل شيء.

وما زاد في امتعاض نايف بيك في مكان المبيت هذا، اكتشافه طبيعةَ شيءٍ ما يكمن على الأرض أمام وجهه بالتحديد، كان يتأمله بينما يفترش الأرض ويُحاول إغماض عينيه، ما أثار فضوله تلقائيا أن هذا الشيء يتدحرج إلى الأمام وإلى الخلف، وسرعان ما تبيّن له عندما مطَّ رأسه باتجاهه أنها كتلة كروية من روث دابةٍ يقتتلُ عليها خنفسان سمينان، يسارعان تحت ضوء القمر، لدحرجتها على وجه السرعة، كلٌّ منهما في اتجاه.

obeikan.com

obeikan.com

الصَّرخة

استيقظ نايف بيك على تسلل مريم إلى حضنه في عتمة الهزيع الأخير من الليل، كانت النار قد خمدت أخيرا، وساعدت عتمة المكان على مدارة ذلك عن الرجل الذي نام بعيدا قليلا ليترك لهما فرصة الحديث قبل أن يناما، وهمستُ له وهي تلتصق به:

– نايف. عزيزي. هل أنت مستيقظ؟ إنني قلقة وخائفة، المكان موحش!

ضمّها أكثر ما يمكن، وشعر مرة أخرى بحاجته هو الآخر إليها قال متطلعا ناحية الرجل:

– لست نائما. فلم أستطع النوم لغاية الآن. لا تخافي، ها أنذا معك ولن أتركك لحظة واحدة

وعندما نامت، متوسدة ذراعه، بسبب الدفء والطمأنينة اللذين بعثهما احتضانه لها، تأمل عينيها المغمضتين، وأحسّ بوخزة قوية من الشفقة الذكورية المتأصلة نحو المرأة، والتي تخرج على شكل حبٍ وحنان وتعلّق وقُبل مفرطة في بعض المرات، وتأمّل شفتيها ومطّ فمه نحوهما، قبلهما قبلة رقيقة، ثم أعاد رأسه إلى حذائه الذي كان يتوسده.

تذوقت مريم القبلة دون أن تفتح عينيها، لعقت شفتيها، ابتسمت كالرضيع، وتابعت النوم بهدوء.

استيقظا أخيرًا، على صوت الرجل يتخبّط من حولهما، ويشعل النار، وتجاهل وضعهما،وبعد أن شربوا الشاي الذي أعده، تهيأ كغفيرٍ على رأس سرية، وقال :

- نحن في المكان الصحيح. اتبعاني بسرعة.

تبعاه إلى أحد الكُتل الصَّخرية الشَّاهقة، وبدت حولها آثارُ الخربة القديمة لأحد الأديرة، وهناك ظهرَ مدخلٌ صغير لكهف، تقلّص الرجل وانكمش مثل قطة ستدخل في أنبوب للتهوية، ورغم سنه الكبيرة إلا أنه دخل قافزا، وقال: " ادخلا بحذر!"

دخلت مريم أولا بمساعدة لطيفة من نايف بيك الذي حاول أن يدفعها من مؤخرتها وهي تضحك وتتلوى وتقول له من جديد: "لا تجعلني أضحك بالله عليك!" ودخل خلفها أخيرا وأمسك يدها.

نظروا حولهم ممعنينَ في الجدران، بدت فجوة قريبة في أحد الجوانب تفضي إلى غرفة داخلية معتمة بشكل تام، ساد الصمت، توجَّه الرجل إليها ومشيا خلفه، أشعل نايف بيك المصباح اليدوي، جال بضوئه على كافة الجوانب وعلى سقف المغارة، كانت أربعة جدران بنية ورطبة لا غير، وكان الكثير من الخفافيش تتدلى كالمشانق السوداء من السقف، أخيرا سلّط نايف بيك المصباح في وجه الرجل. قال الأخير:

- الآن اتبعاني!

دخلا خلفه إلى حجرة داخلية بسقف مقوس، ولما أضاء العقيد المصباح فيها، وجدها تمتلئ بالتماثيل الذّهبية المرصوصة إلى جانب بعضها البعض كما لو كانت ستأخذ صورة تذكارية، وفي الأسفل منها

تتراكم القلادات والأطواق والسبائك والمجوهرات المرصعة بالأحجار الثمينة وقطوف العنب، ذات الحبات المصنوعة من الماس الأحمر والزبرجد.

وعندما ركضا إليها؛ العقيد ومريم، بفرحة مجنونة، وحاول كلٌ منهما أن يمد يده للإمساك بها، كانا كمن يمسكً بالهواء، لا شيء قابل للإمساك؛ مجرد فراغ. كانت أشياء بصرية فقط، سراب. قال الرجل بهدوء:

– لأجل هذا جلبنا البخور الأزرق، نايف بيك.

وشرع يُخرج ما بحوزته من البخور الباهظ الثمن، ويحرقه فوق أرض الحجرة، ويتمتم، وكلما حرق أكثر، كلما سمع صوت الأواني والمجوهرات تنهار فوق بعضها لتصبح قابلة للمسك.

وأخيرا أصبح كل شيء حقيقة ماثلة للعيان، راح العقيد نايف بيك، يتحسس التماثيل المصفوفة ويعانقها كما لو كان كل واحد منها صديقا عزيزا، وتقلدّ، كحاكم اسطوري، أكثر من عشرين قلادة في رقبته، وارتدت مريم، كزوجةً لذلك الحاكم الأسطوري، الخواتم والإسورات، وركضت بها هنا وهناً، ووقف العقيد في فوهة الكهف، نظر إلى الخارج، أخذ نفسًا طويلا جدا، إلى أن انتفخ صدره وتصدر، ثم فتح فمه وأخذ يصرخ بأعلى صوته، صرخة فرح مدوّية، وقد ترافقت بالدموع، وأخرجت معها كل ما تراكم في أحشًائه، عبر السّنين، من ضيق وكبتٍ وخذلان، صرخةً غطّت آلاف الهكتارات، وتردّدت بين قمم الجبال بصَدىً متداخلٍ مدوّي، كما لو كانت صرخة النّفير،وفزعت

لأجلها الطيور في أعشاشها لذلك رفرفت بشكلٍ جماعي نحو السماء، وركضت الزواحف والأرانب البرية مسرعةً إلًى جحورها، واهتزّت الأوراق وتطايرت من فوق الأشجار التي انثنت وكادت أن تنقلع من جذورها؛ كانت صرخة الأنا القادمة لا محالة.

obeikan.com

العقيد جذع شجرة

وانتهى الحلم على ذلك الحال من الصراخ بعد استخراج الكنوز الباهظة، ونهض العقيد فزعا من صرخته المباغتة لسكون الغرفة في منتصف الليل، وكان قد سقط من فوق سريره، وهو يبكي، وتلفّت يمنة ويسرى ونظر إلى يديه الخاليتين، ولم يجد شيئا غير خاتمه الفضي القديم وعليه شعار الجيش، حتى مريم لم يجدها ترقد إلى جواره، واستند على حافةِ السرير لبرهة من الوقت، تنفّس بهدوء ومسح دموعه، ثم نهض وذَهب إلى المطبخ، صنع لنفسه فنجان قهوة، وبقي يدخن ويفكر إلى أن أشرقت الشمس.

في صباح ذلك اليوم، طلب مريم بالهاتف، وعرجت عليه قبل أن تذهب إلى عملها في البنك، روى لها ذلك المنام، لكنه لم يذكر شيئا عن حملها من خاصرتها فوق الحمار، وتسللها إلى فراشه بالقرب من النار وضمه لها من الخلف وهي نائمة تحت ضوء القمر، أو حتى دفعها من المؤخرة إلى فوهةِ الكهف، وهي تقول جملتها المشهورة في هكذا موقف.

طلب منها أن ترافقه فيما ينوي القيام به، وأخبرها بالقصة، ولم تُمانع، بل تشجّعت وفرحت لأجل ذلك، وعندما حاول العقيد أن يتصل هاتفيا بالرجل، لم يتلق أي رد، وعلى مدارِ يومين متتاليين كان قد اتصل به أكثر من خمسين مرة، وفي نهاية اليوم الثاني أغلق الرجل المتنصّل هاتفه، وقرر العقيد أن يذهب مع السيدة مريم في سيارتها

obeikan.com

إلى القرية، إلى بيته بالتحديد.

عندما وصل العقيد إلى البلدة في عصر اليوم التالي، سأل عن بيت الرجل، وتمكّن أخيرا من ايجاده، كان بيتا بسيطا جدا، عبارة عن قطعة مستطيلة من البناء، كما لو أنها بنيت بجهدٍ شخصي، مطلية من الخارج بلونٍ أبيض رديء، ومقسّمة إلى ثلاث حجرات متلاصقة، كل منها بباب خشبي يفتح على الباحة الاسمنتية الأمامية، وعلى بعد عدة مترات، يوجد حمام خارجي يغلق بابه بستارة قديمة من الكتّان الأخضر السّميك، معلقة بمسمارين من كل ناحية.

ركنتْ السيدة مريم سيارتها الغولف، وانتظرت فيها، ولما ترجّل العقيد نايف صالح واقترب من البيت، وجد امـرأة في منتصف الأربعين من العمر، لكنها تبدو أكبر بكثيرٍ من عمرها، تقرفص على فرشةٍ صغيرة مهترئة في فناء البيت، وأمامها ابريق ماء وإناء كبير من العجين، تصب الماء برفق، وتهرس العجين بيديها الاثنتين. تنحنح العقيد وقال:

– أسعدتِ مساء، أيتها الأخت.

رفعت المرأة يديها من العجين، ووضعت زندها أمام عينيها لتتجنب وهج شمس الأصيل وتتعرّف على الزائر، وقالت:

– مساء الخير. من أنت؟ تفضل.

– شكرا. هل السيد فارس ابراهيم موجود؟

ضحكت المرأة بسخرية. وقالت:

- السيد فارس ابراهيم؟

- أجل ، السيد فارس ابراهيم.

أردفت وقد أعادت يديها إلى الإناء لتنهمك في العجن من جديد:

- منذ متى أصبح زوجي سيدا؟ لأول مرة، في حياتي، أسمع شخصا يقول عنه السيد فارس ابراهيم!

ثم نادت على ابنتها الصغيرة لكي تحضر بساطا يجلس عليه الضيف. وعادت تلكم العجين بقبضتيها. قال العقيد:

- أنا في عجلة من أمري. وأود لقاءه لو سمحتِ.

زرّت المرأة عينيها، ونظرت إلى السيارة، وأشارت إليها:

- دع زوجتك تنزل. سنشرب الشاي معا.

- لا، إنها متعبة جدا من السفر، لقد أتينا من عمان. ولكني أرغب برؤية السيد فارس لأمرٍ ضروي.

تنهّدت المرأة. ثم رفعت رأسها فجأة، حدقت بالعقيد:

- ألستَ نايف بيك الذي ترشّح للانتخابات الماضية؟

- أجل أنا

ابتسمتْ:

- رغم أنه مضى أكثر من سنتين، إلا أنني أتذكر صورك، كانت مُعلّقة في كل مكان في الشوارع. لقد منحتك صوتي.

ثم أردفت بعد أن شكرها العقيد لذلك الصوت:

– فوجئتُ أن زوجي قد أخذ ثمن صوتينا منك، يا للخزي والعار! على الرّغم من أنه لم يعطني ولا قرشا واحدا، لكنني لم أكن لأقبل أن أبيع صوتي بأي ثمن. واحسرتاه على الأخلاق يا زوجي! ثم إني لم أكن أعلم أنه يصادق البشوات. لكن إيه، ماذا أقول لك عن السيد فارس. اللّه وحده يعلم أين هو!

رفع العقيد حاجبيه:

– كيف يكون ذلك؟ أليس هذا بيته؟

– أجل بيته، لكنني مثلما ترى، أعجن لأخبز لنا بعض الخبز، فمنذ أكثر من شهرين لم نره. وهذه حالنا معه طيلة العام. يأتي يوم ويغيب مئة.

تململ العقيد فوق البساط الذي جلس عليه قال منفعلاً:

– لكنه أتى إلي في عمّان، وأخذ مني عشرة الآف دينار!

توقفت المرأة عن العجن. نظرت إلى عيني العقيد:

– لا تقل لي أنه أخذها من أجل شراء بخورٍ أزرق لإخراج تلك الكنوز في كهوف الخِربة؟

– تماما، من أجل تلك الكنوز في الخِربة التي يعرف مكانها!

هزت المرأة رأسها متأسفة، وعادت تنظر إلى وعاء العجين، سكبت عليه بعض الماء، وأكملت عملها بهدوء وبرود، وكأنها سمعت قصة غير

مشجّعة ومستهلكة جدا. نادت على ابنتها لكي تجلب كوب شاي للعقيد، وقالت:

- إذن اشرب الشاي بالنعناع نايف بيك، واذهب للبحث عنه في ذلك الوادي خلف الجبل، ربما تجد آخرين مثلك، يبحثون عنه منذ عام.

ولم تتكلف اخراج يدها من الصحن، لكنّها أشارت بذقنها الحاد إلى جبلٍ بعيد بانت قمته.وتابعت بعد لحظةِ صمت وهي تتأمل العجين وتهرسه ببعضه البعض:

- كما قلتُ لك، نراه في السنة مرة أو مرتين. فمنذ أن أوكلوه بحراسة الخربة، بالرغم من أنه مهمل وبالكاد يحرسها، وهو لا يُطيق البقاء معنا، يأخذ أغنامه ويرعى بها في الأودية البعيدة وينام هناك في أحد الكهوف.

وأكملت بصوت حزين وخجول متلكئ:

- حتى أنهم يقولون شيئا عن معاشرته إمرأة غجرية في تلك النواحي.

انفعل العقيد:

- وأين هي الخربة؟

- بعيدة جدا، لكنني لا أعلم مكانها، ولو كنت أعلم أين هي، لذهبت إليه لآخذ منه بعض النقود التي سرقها مني أيضا.

- لكنه توضأ وأقسم على كتاب الله أمامي!

ضحكت المرأة وبانت سنّا ذهبية في فمها ناحية اليمين:

- هل قلت توضأ؟ هل رأيته بعينيك يفعل ذلك؟ غريب فهو لا يعرف كيف يتوضأ أو يُصلي. حتى أنه -استغفر الله العظيم- لا يؤمن بوجود الله تعالى، ويذهب إلى صلاة الجمعة رفعا للعتب. كان يخاطب الأموات في الليل، ويسألهم أن يخرجوا إليه، ويخبروه إن كانوا قد وجدوا شيئًا مهمًا في ذلك العالم؟ اسألني أنا زوجته منذ عشرين سنة!

وأشعل العقيد سيجارة بعد أن وقف وأصبح يمشي جيئة وذهابا أمام المرأة، ورأى أحد أطفالها يقفُ جانبا وعاريا بنصفه الأسفل وينظر إلى العقيد. ونظر إلى السيارة، فوجد مجموعة من الأطفال يُلصقون وجوههم وأفواههم على النافذة ويمدون ألسنتهم إلى السيدة مريم، وفكّر بأنه من الغباء مواصلة هذا الحديث أو حتى البقاء هنا فترة أطول، لأنه المسؤول أولا وأخيرا عما وصل إليه الحال. وقالت المرأة، وهي تُخرج شيئًا من إصبعها:

- ماذا عساني أن أفعل. إنني محرجة منك أيها السيد. وأعرف أنه لا يساوي شيئًا يذكر، لكن خذه؛ خذ خاتم الذهب هذا، العزيز على قلبي جدا وبعه لأجل نقودك.

أراد أن يصرخ؛ وماذا يساوي هذا الخراء؟ لكنه صمت وامتلأ بالغضب، وبالتزامن مع ذلك، بالشّفقة على حال المرأة، طلب منها أن تُعيد ذلك الخاتم العزيز على قلبها جدا والمليء بالعجين إلى إصبعها، وعندما حزم أمره، وذهب مبتعدا عن الفناء، استدار وأشار بيده إلى

الطفل الواقف عاريا وهو يتسلى بالإمساك بعضوه الصغير وينظر من بعيد إلى العقيد، ولما أتى إليه راكضا، أَشار نايف بيك بإصبعه إلى العضو المتدلي، وسأله:

– ما هذا الشيء؟

شعر الطفل بالخجل وتلوّن وجهه، وضع اصبعه في فمه وعضّ عليه. دسّ العقيد عشرين دينارا في يده، وقال وهو يربت على رأسه:

– اين أبوك؟

صمت الطفل قليلا ، وأشار بيده:

– بعيد، هناك في الوادي.

– في الوادي! إذن حافظ على عضوك الصغير ليومك الكبير، وارتدي بنطالك، بني. وخذ هذه النقود لأمكِ بسرعة.

وقرر العقيد أن يطوي هذه الصفحة أيضا من صفحات أخطائه الشخصية، فماذا ينفع الآن، وغريمه هائم في الأودية مع خرافه، إنه هو المغفّل هذه المرة أيضا.

وفي الطريق إلى السيارة حانقا ويملؤه الغضب، اضطرّ أن يقف قليلا ، بكل روح رياضية، فقد استعان به طفلان، كان المخاط يسيل من أنفهما بينما يركضان خلف بعضهما البعض، كما لو كان جذع شجرة، يمسكان به ويستديران حوله وهما يضحكان ويحاول أحدهما أن يمسك بالآخر، وأدخل قميصه ورفع بنطاله القماش الفضفاض الذي انزلق واتسخ جرّاء مناوشات الطفلين، وأكمل مسيره، بعد أن هربا من جديد.

صعد إلى السيارة يسب ويشتم بانفعال، وقد أصبح وجهه محمرا وحانقا، قال:

- إلى عمان بسرعة، يا مريم، أكاد أختنق.

- أخبرني ماذا حصل؟

فتح النافذة، وظلّ ينظر نحو المرأة وهي تعجن بهدوء وإذعان. قال وهو بالكاد يتنفس من شدة غضبه:

- ابن الحرام، أنظري إلى زوجته وأبنائه، كيف يثيرون الشفقة!

- لكن ماذا حصل؟

تنهد تنهيدة طويلة، وهو ما زال ينظر نحو المرأة والطفل:

- سأحكي لكِ كل شيء في الطريق

وحالما تلاشت السيارة، فتح فارس ابراهيم طرف الباب الخشبي المطلي بالأخضر، وتلصص، كسلحفاة في قوقعتها، برأسه وعينيه الزائغتين، ثم خرج من إحدى الحجرات، وجلس فوق الفرشة إلى جانب زوجته يُدخّن وهو يمدّ جسده ويستند إلى مرفقه.

قالت الزوجة وهي تضحك وتدسّ العشرين دينارا بلطخةِ عجين، قبل أن يراها، في حمالةِ صدرها:

- كم هو مهذب هذا الرجل! إنه يدعوك بالسيد فارس.

رمق زوجته مبتسما، بنظرةٍ جانبية، مجّ من سيجارته. أراد أن يتكلم

لكنه لم يدر ما يقول حيال كونه السيد فارس. أضافت:

- يا له من مسكين. هل أنت متأكد من أنه يملك مالا كثيرا؟

هزّ فارس رأسه وهو ينفخُ الدخان إلى الأعلى من منخريه:

- يبيعنا ويشترينا أنا وأنت. لقد دفع مئات الألوف عندما ترشح للانتخابات النيابية، ومع ذلك فهو طماع. حتى أنه صدّق تلك القصة.

حملت المرأة صحن العجين، قالت وهي تقفُ لتدخل:

- إلى متى سأبقى أكذب بشأنك، يا زوجي العزيز؟ هل تنتظر ابن حرام من المتنفذين يُلقي بك في السجن؟ حتى إنك لا تُقدّر ذلك، وتضحك علي بقليل من المال كلما فعلتَ فعلةً كهذه.

obeikan.com

صوت الإنسان الأول

أخرج المحقق هاتفه النقال، وطلب رقمًا آخر، سمح للصوت أن يخرج عبر السّماعة الخارجية أيضًا، قال المحقق:

- كيف الحال، حسان بيك؟

- تحياتي سيدي. بخير وأحسن حال.

- حسان بيك، ما هي آخر أخبار حزب العقيد؟

- كما أخبرتك بالأمس فقط، لقد كسر التلفاز، وما زال يذهب إلى الزملاء في بيوتهم، وأماكن عملهم، يقتحم خصوصيتهم، ويجتمع بالمتقاعدين العسكريين في المقهى، يحرّضهم على الحكومة، ويطلب منهم حزّ رقبتها ما أمكن، ويقول لهم: إن لم تتوافر لكم أداة الحز، فعليكم بالخنق، ثم يخطب فيهم بشأن تأسيس ذلك الحزب، الذي ينوي أن يكون الأمين العام له، وقال بأنه قد فرغ تقريبا من كتابة النظام الداخلي له، وأن الافتتاح عما قريب. لكنه، وكما هو معروف لديكم، أنا والبقية تقريبا، بانتظار تعليماتكم.

بعد أن أنهى الرجل المكالمة، خيّمت لحظةُ صمت رهيبة ومدوية في أجواء السيارة، فكر العقيد بأن الصوت يُشبه تمامًا صوت حسان بيك، إنها طريقته في الكلام؛ يلثغ دائمًا بحرف الراء، وها هو قد قال ذلك الآن: "عما قييب، ومعووفٌ لديكم!" بكل تأكيد إنه هو، لذلك لم

يره في المقهى، كان كل شيء معدا مسبقا، وخاطب نفسه بأنّ خططه التي كانت قبل قليل، بشأن الحديث إلى الرجل بما يجول في النفس ما هي إلا الهراء بعينه، ثم شعر بأن هناك كتلا خرسانية تتوضّع وتُطبق على صدره، فتح النافذة وأخذ شهيقا طويلا جدا من هواء الليل العليل البارد.

كان المحقق قد أدار المحرك وتوجّه نحو الطريق الرئيسي العام. توالت إنارات الأعمدة البرتقالية على وجه العقيد الصامت والمحدّق بزجاج السيارة الأمامي.

لم يخطر بباله شيئا سوى التفكير بصديقته سلمى، ماذا عساها تفعل الآن؟ فكّر بأنه ما إن يصل حتى يطرق باب شقتها ويدخل إلى سريرها الدافئ بكل هدوء، تأخذه إلى حضنها، تمسح وجهه، ويقبلا بعضهما بحبٍ وطيبة، وللحظة نظر بعينيه فقط، دون أن يستدير برأسه إلى الرجل الجالس يقود السيارة بجانبه، فكر أن يسأله إن كان لديه رقمها أيضا، على سبيل المثال، لكنه نفض هذه الفكرة الغبية من رأسه، وعدل عن ذلك.

أخرج العقيد هاتفه ليطلب الرقم. قال المحقق:

– ستُكلم أحدا؟

– أجل.

– من؟

زرد لعابه. كزّ على أسنانه الخلفية، وأجاب بعد لحظةِ صمت:

– وهل عليّ أن أجيب على شيءٍ خاصٍ بي؟

ابتسم المحقق:

– لنقل ذلك. فكل شيء مهم هنا، يجب أن أكون على معرفةٍ بكل من تتواصل معهم، أيها العقيد.

هزّ رأسه، وقرر أن ذلك ليس بالشيء المهم، أن يخبره مع من يتصل، طالما أن المكالمة ليست ذات خطورة. إنها مكالمة شخصية بينه وبين المرأة التي يحب. قال:

– صديقتي، سلمى أيوب.

خرجت الجملة من فمه كما لو كانت نحيبا. ضحك الرجل ضحكة خفيفة، حرص أن تكون من باب الملاطفة. قال:

– بالمناسبة، انقل لها سلامي الحار، المسكينة مصابة بالزكام في هذين اليومين.

هزّ العقيد رأسه، صمت قليلا، وفكر بداخله بكذبته المنمقة، ودعابته السخيفة غير المبررة أبدا، اهتز بطنه كأنه يكتم شيئا،ثم أطلق، وبشكلٍ مباغت، ضحكة مجلجلة وبفم ملآن، وأخذ يُكمل ضحكته ويلوّح برأسهٍ، وينظر بعينيه نحو الرجل، وقهقه الأخير معه بالمستوى ذاته من الضحك، وامتلأت السيارة بضحك الرجلين، واستمر العقيد، فاغرا فمه، يضحك بقدر ما يستطيع، كما لو كانت تلك الضحكة، تفريغا منتظرًا لكبتٍ قاتم استمر طويلا في صدره، وفكر لوهلة، أن يرفع يده ويخبط كفه بكفً المحقق الجالس إلى جواره، لكنه حافظ

على رزانته وعدل عن ذلك، وانحدرت عدة دمعات من عينيه من شدة الضحك المباغت، ولم يدر لماذا رغب في استغلالهن للبكاء بنهاية تلك الضحكة، لكنه جالد نفسه ومنعها، وقال بصوت مكتوم:

- مُصابة بالزكام؟

قال المحقق وهو يضحك أيضا:

- أجل مصابة الزكام.ألا يصاب الشخص بالزكام!

وهزّ العقيد رأسه، أراد أن يقول له بأنه يتمتع بخفةِ دم لا بأس بها، لكنه عدل عن ذلك وفكر، آخر الأمر، بعد أن هدأ، وهو يطلب الرقم، بأنها لم تكن مصابة بالزكام، لقد كانت إلى جواره صباح هذا اليوم، جلسا لصق بعضهما البعض على الأريكة، احتسيا القهوة معا بكل سرورٍ وسعادة، وقال لها أشياء مضحكة على سبيل الدعابة، وتصرّف بشقاوةٍ وروح مرحة، ومازحها وهي تضحك، وتقول جملتها الشهيرة، وقال لهاً بأنهً سيلتقي بصديقه الشاب المحامي في أقرب وقت، فقد اقتربت جلسة المرافعة في القضية التي رفعها ضد بعض الأشخاص، وأنهيا هذه الأجواء المفعمة بالسعادة والسرور، وقد اتفقا أخيرا على الذهاب إلى المحكمة الشرعية، والزواج في نهاية الأسبوع القادم أو الذي يليه على أبعد تقدير، وسُرا جدا لهذا الشيء المنتظر، وضحكا كثيرا من فرط السعادة والهناء، وخططا أيضا لبعض الأمور المستقبلية، ثم قبّلها على فمها قبلة طويلة ومسترسلة قبل أن تخرج.

وفكر الآن، في قرارة نفسه، أنه ودعها، وقد كانت على أحسنِ ما يرام. ثم ضغط زر الاتصال. وهو ينظر بطرف عينه إلى المحقق

مبتسما. جاءه صوتها من الجانب الآخر من الهاتف:

- أهلا عزيزي، أين أنت؟

- إنني مشتاق إليكِ، عزيزتي. أنا بالقرب من البيت، سأكون عندك بعد قليل.

وغاب صوتها لعدة ثواني، لأنها كانت تشهق، ثم عطستْ سلمى أخيرا. قالت:

- أوه عزيزي، إنني متعبة ومصابة بالزكام منذ الظهيرة. لا أسمعك جيدا. أريد أن أراك الليلة كما أخبرتك صباحا، لكنني لا أرغب بنقل العدوى إليك، سنؤجل لقاءنا يومين، يومين فقط، عزيزي.

مرّت لحظة صمت بدت كما لو أنها أزلية، طويلة ومكثفة، أكثف من العتمة الممتدة في الكون الفسيح فوق رأسه، انكمشت الإبتسامة بسرعة البرق، وشعر بيدين امتدتا إليه من مكانٍ ما، واحدة صفعته على وجهه والأخرى تلبست رقبته وشرعت تضغط عليها؛ على حنجرته بالتحديد، وراحت تخنقه بلا رحمه، حاول أن يتخلص منها، لكنها غير مدرَكة أو ملموسة، سعل عدة مرات من أعماق صدره الهزيل، احمرت عيناه، ثقل لسانه؛ أصبح بحجم جبل، أكبر من قدرته على تحريكه في فمه.

لم تتلقّ سلمى أية اجابة، قالت:

- عزيزي!

أراد أن يتحدّث، لكنّ فكه ثقيل ايضًا على الفتح، جاهد وغمغم أشياء

لا معنى لها أبدا، شحبُ وجهه، ارتخت يده هابطةً بالهاتف إلى حجره. وسلمى ما زالت كالببغاء، صوتها مضغوطا في سماعة الهاتف: أين أنت؟ هل تسمعني؟ أين أنت عزيزي؟

قال المحقق:

- ها أنت لم تنقل لها سلامي الحار!

حرّك شفتيه، ومن خلف غلالة الخيبة والجزع، بالكاد أصدر تمتمة أخرى غير مفهومة، تمتمة أقرب لصوت الإنسان الأول. فتح النافذة، حاول التنفس بعمق، وعندما دخلت نسمات باردة إلى السيارة، ضغطَ الرّجل الزّر بجانبه وأقفل نافذة العقيد، رأى الأخير وجهه أمامه، يصعد شاحبًا مع الزجاج.

obeikan.com

ضبّاط الكتيبة الخامسة

٤/كانون الأول/٢٠١٠

عمان. يوم السبت

٩:٠٠ ص

مرّت الأيام مؤلمة وأقسى ما تكون على العقيد نايف صالح الصالح، وضع كل تلك الأحلام والأمجاد الهزيلة جانبًا، إنّ عليه الآن أن يعيش كأيّ كائنٍ حي، يأكل ويشرب وينام. لقد ترك الجانب المخفي من إنسان المحيط؛ جبل الجليد العائم، وبدأ يتعاطى مع القمة، إن كان الإنسان الذي يأكل ويشرب وينام، جزءً صغيرا يُمثّل القمة من الإنسان ككل، فعليه أن يؤمّن ذلك الجانب أولا، ومن ثمّ يغوص إلى المخفي العظيم منه.

ورغم أن مريم تأتي لزيارته من وقت لآخر، وتقوم ببعض الأعمال، إلا أنها لم تعد كسابق عهدها عندما كان يُغدق عليها الوعود، وأصبح البيت كما لو أنه مهجورٌ منذ زمن، راحت العناكب تتكاثر في كلّ مكانٍ مُتاحٍ؛ تملأ زوايا السقوف والأثاث، وتنزل أيضا كعادتها إلى منتصف المسافة، تتأمل وجه العقيد الجالس فوق الأريكة ثم تصعد، وأخذت طبقات الغبار الرّقيقة، تُجلل، كالأغطية الشّفافة، كلّ شيء في البيت؛ فوق المناضد والرّفوف، وعلى أغلفةِ مجموعة الكتب التي ما زالت موضوعة بنسق غير مرتّب؛ كتاب بغلاف أزرق، مكتوب عليه "أسرار الأواني والكأسُ نصف الملآن"، وكتابٌ آخر بلوحةِ غلافٍ أشبه بزوبعةٍ

كونية؛ "الفوضى والإبداع"، وآخر على غلافه لمعة برق تخرج من رأسِ إنسان، عنوانه: "الشخصية المبهرة"، وبقايا كتاب "قادة عسكريين عظماء"؛ الدجاجة المنتوفة من قبل والملقاة في مكانٍ ما.

وبلا جدوى، طرق أبواب جميع الشركات والمؤسسات الحكومية والخاصة. وتراكمت عليه الديون والأعباء المالية والقروض البنكية، فتّت في عضده، راحت تخنقه في جنح الليل وتتركه صريع الأرق والسّهاد، لقد صرف كلّ ما ادّخر واستدان من البنوك، في تلك الانتخابات النيابية الفاشلة، ومن ثم طباعة خمسة آلاف نسخة من كتابه، ترقد الآن في كراتين مُغلّفة في أحد المستودعات، بالإضافة لما تعرض له من نصبٍ واحتيال من ذلك القروي، وباءت محاولاته الملحة، للحصول على وظيفة حكومية جيدة بالفشل الذريع، فقد رفض كليةً، ليس بسببٍ من مسلكه المتمردً ولسانه الطويل، إنما وكما يقال له، لأسبابٍ اقتصاديةٍ، فلا عقود عمل في ظلّ الأزمة الاقتصادية الخانقة. كما صرح رئيس الوزراء.

وفي هذا الصباح المشبع بضجيج المدينة؛ الصباح الكئيب الذي يُشرق على صلعةِ العقيد، ذات المساحة الواسعة والمنزلقة إلى خلفَ الرأس بقليل،كانت الأحزان الغائرة في جوفه، كما لو أنها مُسنَّنات فولاذية عملاقة، قد جمعتْ قواها وتدحرجتْ فوق صدره من جديد، فها هو اليوم، خاوي الوفاض، نكرةً لا يلوي على شيء، يبحثُ عن أيّ عملٍ يكسب به قوته ويُشعره بأنه شخصٌ منتج، ضاربا بعرض الحائط كلٍ تلك المحاولات البائسة في استرجاع أمجاده الموؤدة، فقد تيقّن أخيرا أنها الأوهام بعينها، إن كانت أناه المعنوية قد صدأت وتآكلت بما

فيه الكفاية، فليدعها كما هي، فالأولوية المطلقة الآن، هي للبحث عن الأنا الأخرى، الأنا الجسدية وإشباعها.

وعندما تناول قُصاصة ورقة الجريدة من جيب سترته الدّاخلية، وقرأ العنوان، هزَّ رأسه، وتنهَّد، وفجأةً وبصورة قوية، رغب بالبُكاء، كانت ثمة دمعة تصعد من أعماقه المرتجّة، إلى أن وصلت إلى عينيه، ثم نزّت بهدوءٍ من هناك؛ دمعة اعتيادية، لكنها مشبعة بكل ذكريات الماضي وآلامٍ الحاضر المريرة، وراحت تلك الدموع الطّافحة، تتدحرج من عينيه ساخنةً بسلاسة وانسياب، وكانت الغيوم المتفرقة قد التأمت، وغدت السماء مُلبَّدة بالسحب الرمادية الثقيلة، فقد مضى الصيف، وجاء الشتاء مرة أخرى، وشرعتْ السماء تُرسل تباشير المطر، والرياح تصفر، وكأنها تخرج من شدقي مارد، تأتي مسرعةً من خلف الجبال نحو الأشجار، تهزُّها بيديها الضَّخمتين، وتكنسُ، بطريقها، الأوراقَ البرتقالية المحمرَّة المسجاة هنا وهناك على الأرصفة، ثم تُبعثرها وتدور بها كيفما اتفق، وفوق أسلاك الكهرباء، تُزقزق مجموعة من عصافير الدوري مرتين أو ثلاث ثم تنكمشُ لصق بعضها البعض، متطلعةً من فوقِ مناقيرها.

وفي الجوار، في زحمة قاع المدينة، ولِصقَ العقيد الواقف في مكانه؛ كالإله "آريس"، مرّ خمسون ضابطا وضابط صف، يعرف وجوههم جميعا أكثر من معرفته بوجهه، كانوا جميعا يرتئسون برئاسته في تلك الكتيبة، خبطوا التحية للعقيد ومضوا، ومرّ مئات من الجنود في طوابير منتظمة متتالية، مرتدين بزّاتهم الكتانية الخضراء يستديرون بروؤسهم وينظرون، نظرة واحدة، نحو العقيد بالتحديد، هزّ رأسه

بتحيةٍ عظيمة لهم ثم زرَّ عينيه الصّغيرتين المترقرقتين تحت حاجبين رماديين كثيفين، تطلَّع إلى الأعلى، وأعاد بيده تمشيط الشّعرات البيضاء الفوقية المعدودة ثم مشى ببطءٍ وثقل، يرتدي قميصه الأزرق الداكن وبنطاله القُماش البني الفضفاضً، ثم راح يُسرع ويهرول قبل أن تشتدّ وطأة المطر، وأخيرا وجد نفسه يعدو، قدر ما يستطيع، يعدو وعلى منكبيه أحمال ثقيلة من الحزن والكآبة، بساقين هرمتين شبه منفرجتين وبظهرٍ محني أو يكاد.

أخذتْ قطرات المطر تتسارع من الأعلى وتضرب جبهته بالتحديد؛ وأصبح يركضُ مُتطلعا إلى الأرض، ورأى الشارعُ، كقشاط آلة الركض، ينساب إلى الوراء من تحت قدميه، ولاحظ في بادئ الأمر أعداد كبيرة من أقماع السجائر المتناثرة، أراد أن يبطء المسير لكي يعدها، لكنه عدل عن ذلك، وبدلا من هذا التصرف غير المجدي، انسابت الذكريات، ومن حيث لا يدري خطر بباله أنه ركض هنا ذات مرة، ركض في الشارع ذاته؛ شارع الحرية، بأقصى طاقته، كان ذلك قبل سِنين خلت، تذكّر بالتحديد، كيف كان يركض لصق الموكب الملكي، عندما كان الملك يجوب مُعظم شوارع عمّان؛ للتلويح باليد على شعبه، كان العقيد يرتدي سترته العسكرية، يدفع الناس بيديه، ويصيح بهم أن يبتعدوا؛ ابتعدوا أيّها الناس، إلى الوراء أيّها الناس! لكن النّاس يُصرون على أن يمدوا أيديهم للسلام على الملك، أو لمس يده فقط، والملك يُلوّح لهم وهو جالس في الفتحة العلوية للسيارة، والعقيد، النقيب آنذاك، يلهث خلف سيارة المرسيدس المصفّحة، يركض وهو يدفع الناس من جديد؛ ابتعدوا أيّها الشعب، إلى الوراء أيّها الشعب.

هوائي سيء

استدار العقيدُ برأسه ونظر إلى الأمام، ترك وجه شاحبا وملتصقًا على زجاج النافذة، تقلّص في معطفه، قال: "إنني مرهقٌ جدًا" وضمّ يديه إلى صدره، أسند رأسه إلى المقعد وأغمض عينيه.

قال المحقق:

– ستنام! لن تدلني إلى عنوان بيتك؟

وبالكاد التفتَ العقيد برأسه إليه، نظر نحوه ببرودٍ ساخر، ثم أعاد رأسه وأغمض عينيه.

لم يكن يدري بماذا يفكر وهو مُغمض العينين، أراد أن يبدأ التفكير بشيءٍ ما بشكلٍ جيد، أن يُعيد الشّريط إلى أول يوم بعد التّقاعد، وهو جالسٌ على ذلك الكرسي الفاخر في مكتبه، يقرأ خطاب اقالته، أن يفكّر إن كان قد قام بما يجب وبصورةٍ حسنة، أم أنه تغافل عن بعض الأمور، أراد أن يضع الأمور الأخرى في نصابها، ويشرع برسم خطة لإعادة أمجاده من جديد، كابد لفعل ذلك لكنه لم يقوَ، فكر وهو يحدّق بالعتمة المحمرة في جفنيه المنسدلين، بأن وجود هذا الرجل إلى جانبه يمنعه من التفكير؛ يُشعره بالقلق على نحو ما، الصورة مشوشة، رأسه تلفاز بهوائي سيء تعبثُ الرياحُ به، لم يكن هناك طرفَ خيطٍ بائن ليمسكه، كانت جميعها خيوط من ماء، خيوط هلامية ذاوية، خيوط عناكب، تتقطع حتى لو شدها برفق، بطرفي اصبعيه.

ثم تذكر شيئا قديما أيضا، لاح فجأةً في خياله دون مقدمات، خيمة منصوبة في سفح الجبل الملاصق للقرية، الأجواء ربيعية ورائقه، سحب خفيفة وعالية تعبر قبة السماء، العصافير تتقافز فوق الأشجار وأسلاك الكهرباءوتُسقسق بفرح غامر، تذكر كيف كان يطل برأسه الصغيرة من باب الخيمة ويشاهد أرمندا، تعزف على آلتها وهي تُغني بعينين ذهبيتين براقتين، تذكر ملمس يدها عندما ودعها لآخر مرة وهي تجلسُ حزينة فوق كومة الأشياء في السيارة، ثم فكر إن كان ذلك برمته ما هو إلا حلما رآه في منامه ذات مرة، أم حقيقة عاشها فيما مضى، ثم تذكر الحقول التي كان يركض فيها فوق قصبته من حقلٍ لآخر، كما لو كان حصانا حرا طليقا لا رسن في رقبته، يجوب السهول والوديان بحرية الآيائل، تذكر النوم الهانئ فوق السطيحة في ليالِ الصيف المقمرة في بيتهم العائلي القديم، والموسيقى المنسابة من إذاعة لندن، تذكر أشياء كثيرة تداخلت فيما بينها، جعلته يذهب في غفوةٍ سريعة، غفوة ذهنية فارغة، أكثر منها جسدية.

أخيرا سكنت جلبة المحرك والإطارات فوق الشارع، انطفأت إيماءات الضوء فوق عينيه المغمضتين، توقفت السّيارة أمام البناية التي يقطن فيها، وقبل أن ينكزه الرجل بيده، أدرك انعدام الحركة، فتح عينيه، ورفع ساقيه محاولا النزول من باب السيارة، لكنه شعر كما لو أنهما ساقان من حديد صلب، ساقان من معدنٍ لتمثالٍ في طور التّشكل، أراد أن يبقى قليلا في المقعد، أن يتنفس ببطء وحسب، إلى أن يستطيع النزول.

لكنه كابد وترجّل آخر الأمر، ومضى متثاقلا، كالمقاتل الأخير،

متجها إلى بيته. قال المحقق:

– سليم بيك!

استدار بعد أن مشى عدة خطوات، كان رأسه يتذبذب كما لو كان مثبّتا فوق نابض، نظر بعينيه الباردتين إلى الرجل. قال الأخير بحزنٍ شديد، وهو يلمحُ الشيب يملأ رأسه:

– أرى أنك بائس، ووحيدٌ جدا، سليم بيك!

أضاف هزّة إلى رأسه دون أن يتفوّه بكلمةٍ واحدة. رفع يده ملوحًا للمحقق وأبقاها مرفوعة وجامدة لبعض الوقت كشجرةِ صبّار. ثم استدار وأكمل مسيره نحو مدخل البناية ببطءٍ ثقيل، لكنه التفت، برأسه فقط، لنداءٍ آخير من الرجل في السيارة:

– سليم بيك!

وأردف بعد لحظةِ صمت:

– لقد فاض النهر، وتهدّم بيت القندس.

لكمة من الأعلى، هوت فوق رأسه، سحقته وساوته بالأرض. تمتم بصوتٍ مقروء أكثر منه مسموع:

– القندس؟

– أجل، القندس. إنه الآن كالكأس الفارغ، سليم بيك.

×××

كان منهمكًا بسرد أحداث تلك الليلة مع العقاب آكل السمك كما

أسماه لي، قال بأنّ ذلك حصل الليلة الماضية فقط، أصبحت الساعة الحادية عشر، لا نزال نجلس معا في المقهى، ولا أدري لماذا يقولُ لي هذه الأشياء، لماذا اختارني أنا بالتّحديد، وحاولت وأنا أعصر ذهني أن أتعرّف عليه، إن عقلي الباطن يُصرّ على أنّي أعرفه تماما، لذلك وضعت يديّ على رأسي،تشوّشت، ثم مرّت لحظات صمت مطبقة، تلاشى بوقٌ آخر لسيارةٍ تمر في الخارج، هبّت نسمات باردة، قال العقيد سليم وهو يحدّق بشيءٍ ما:

– كما أقول لك، جميعهم يتبعون التعليمات، يحاولون الزج بي إلى الجنون، الخطة محكمة، أنا على علمٍ بذلك.

صمتَ بعض الوقت، ثم أردف:

– أنت لا تُصدقني، كالبقية! لكنه كان هناك، يجلس في تلك الناصية، وكنتُ أجلس قبالته، لم يكن أحد غيرنا في المقهى؛ هذا في البداية، لكنني وجدتهم جميعا حينما كنا سنغادر، يرتدون معاطف عسكرية خضراء، ويجلسون بظهورٍ محنية، يمسكون ورق اللعب بأيديهم دون أية حركة. أنت لا تصدقني!

ومن جديد، وأنا أتمعّن به، رأيتُ عينيه مبهمتين من فرط الأسى، مترقرقتين، عينا ديك المصارعة الخاسر، الذي فضّل المواجهة الدامية على إعطاء الظهر.

وفجأة رأيت عرفا أحمر متهدلا ومجعّدا فوق رأسه، مددتُ يدي وتلمسته، كان عرفا حقيقيا بملمس أشبه بجلد الزواحف، ورأيت ريشا ينمو على رقبته وصدغيه، فقد تحوّل رأسه إلى رأسِ ديكٍ كبير؛ العقيد ديكٌ كبير في هذه الدنيا، راح يُحدّق بعينيه الدائريتين، شاردا بنظرهِ،

إلى ناحيةٍ ما، ثم سرقتُ نظرة إلى الطاولة المشغولة بالقرب منا، رأيتُ حيواني كسلان حقيقيين، يمدان أطرافهما الأمامية، ويلعبان الزهر، وإلى جوارهما فقمة. وفي زاوية ما، كان صبي المقهى، قد انقلب إلى جندب، يضع ساقا منشارية فوق الأخرى، وينظر إلينا بعينين حمراوتين بانتظار أن نغادر.

وفي حركة مباغتة للسكون، خبط العقيد بيده، وقد تحولت إلى جناح، فوق الطاولة، صلصل الفنجان فوق صحنه وكاد أن يسقط:

– لا يمكن ذلك! أنت كالجميع، دائما لا تُصدّقني.

وأردف بعد لحظةِ هدوء، وكان الكلام يخرج من منقاره:

– لا أريد مقالات! ستكتبُ كل كلمة قلتها لك في الرواية؛ أدري أنك ستكتب رواية حول ذلك، لقد كان هناك –

وأشار بجناحه إلى الركن:

– أشبه بالعقاب آكل السمك، أوصلني بسيارته الفارهة، وكان يعرف الطريق إلى بيتي، قال بأنني قندس عجوز. من أين له أن يعرف أنني قندس عجوز؟ ستكتب ذلك كله. أنا أطلب منك أن تفعل. ما زلت لا تصدقني، لقد وشوا بي كلهم بلا استثناء، حتى سلمى تغيّرت عليّ منذ زمن، الجميع يخافون منه، أنا أعلم ذلك، المخبرون كالفطر، سرعان ما يتكاثرون على أولّ وميضِ برقٍ للمال! لم أكن أهذي، كما تتّهمني دائما، أو أي شيء من هذا القبيل، لقد كان هناك في تلك الزواية، فزّاعة في حقل بازلاء!

كان منقار الديك ما زال يتحرّك ويتمتم دون أن أتمكّن من تميز ما

يقول، حاولت أن أستجمع قواي الذّهنية؛ أضاعف تركيزي في كلماته، لكنني لم أعد أسمع صوتا بشريّا، بعد ذلك خبى الصّوت بكامله؛ المنقار يتحرك دون صوت، كما لو كان الحيوان محبوسا داخل صندوقٍ من الزّجاج.

أغمضت عيني محاولاً ابعاد أي تشتيتٍ فكري عني؛ لأتمكن من مجاراته في الحديث، وعندما فتحتهما، وجدت العقيد سليم، قد عاد من هيئة الديك إلى وضعه الطبيعي، لكنه كان صامتا وقد بدأ يتيبّس، زحف الرخام إلى رقبته، ثم صعد إلى فمه أيضًا، ولبرهةٍ أصبح أكثر شبهًا بوجه الجنرال الصدأ فوق لوحةِ المقهى، وعندما وقف ليتركني ويمضي، تسمّر في مكانه، وتحول العقيد إلى تمثالٍ كامل من الرخام لجنديّ مجهول في منتصف المقهى.

رحتُ، غير عابئ به، أشرب النرجيلة وأنظر إلى الباب الزجاجي، رأيت لوحة شعرية أخرى بخط اليد، تترقرق كالضوء فوقه، وفكرت كيف جاءت من ذلك المقهى إلى مقهى الجنرال ؛ "يفصلني عن الأموات/ جدارُ أحلام شنيعة" وكانت قطرات المطر تنقرُ الباب بصوت خافت، المارة يختبؤون تحت مظلاتٍ سوداء، مظلات سوداء لها ساقان وتمشي.

على ضوء النيون الأبيض، تتساقط القطرات مُضيئة، كزخاتٍ من الشّهب. أصوات نرد حيواني الكسلان، ما زالت تُقرقع على خشب الزّهر. والمياه، من جديد، تُبقبق كما لو أنها تغلي في قارورة النرجيلة. يخرج الدخان كثيفا من فمي، يتصاعد ويلتصق بظهره إلى السّقف، يزحف نحو الباب، يتلاشى ويوغل في الصّمت.

مرافعة

عمان. حي اللويبدة

الأحد

٩/كانون الثاني/٢٠١١

دقت ساعة المنبه في هاتفي الخلوي، واستيقظتُ في السابعة والنصف من صباح هذا اليوم، كان عليّ، وأنا المحامي المثابر، أن أستعدّ للذهاب إلى عملي المعتاد في المحكمة، لا سيما بأنّني سأترافع اليوم في تمام العاشرة صباحًا، بقضيةِ العقيد المتقاعد "سليم السالم"، جاري في الدور الأسفل من البنايَة التي أسكن فيها في حي "اللويبدة". لم أكن قد نمتُ بما فيه الكفاية ليلة أمس، فقد خلدت إلى سريري بنحو السّاعة الثالثة والنصف فجرا، وكان كوب الماء على الحافة فوق رأسي، ممتلئً إلى النصف، وكانت رواية "هيرتا مولر"، على الحافة أيضًا، وقد أوشك رجل الشّرطة أن يضاجع ابنة "فينديش"، لكي يُقدّم لعائلتها أوراق الهجرة المنشودة.

جلستُ قليلاً على السرير، أُحدّق في الفراغ أمامي، تثائبتُ ومططت ذِراعي في الهواء كما لو كنت أقوم بحركاتٍ ستؤول بي إلى التّحول، أُعاني، جراء السهر المتأخر، من صداعٍ خفيف يرواح في مقدمة رأسي، انتعلت حذائي وذهبتُ متكاسلاً إلى دورةِ المياه، وبعد أن أخذت حمامًا ساخنًا، وحلقت ذقني، صنعت فنجان قهوة، وجلستُ إلى مكتبي

obeikan.com

محاولا تذكّر الحلم المشوّش الذي راودني ليلة الأمس؛ حلمت بأنني ذلك الصحفي ذو الحقيبة البنية! وقد دخلت إلى مقهى غريب؛ يحمل اسم "مقهى الجنرال"، ولا أدري لماذا كانت صورة العقيد "سليم" مرسومة على لوحة حديدية صدئة مُعلقة تحت نورٍ ساطع فوق باب المقهى، كانت صورة بائسة جدًا؛ العقيد بأنفه الكبيرة، يرتّدي قبّعته العسكرية، وينظر إلى ناحيةٍ ما بعينيه المنتفختين دائما، وبلون باذنجاني أسفلهما، وبعد ذلكً بقليل، أتى صبي المقهى ليُخبرني أنَّ العقيد "سليم" كان يسأل عني ويرغب بلقائي، ثم جاء وجلس إلى طاولتي، عرّفني باسمه،ولم أتعرّف إليه أبدًا، كان يتفوه بكلام مبهم ومضحك، وقال بأنه قرأ روايتي التي تدور حول عقيدٍ متقاعد، لكّنني لمً أكن قد كتبتها بعد، وراح في نهاية لقائه بي، يسردً لي قصته المعتادة مع رجلٍ يُسميه؛ العقاب آكل السمك!

فلقد عدتُ، ليلة الأمس، بعد منتصف الليل بقليل من "مقهى لوركا"، المقهى القريب من بيتي في حي "اللويبدة"، والذي أرتاده باستمرار مع بعض الأصدقاء المحامين والصّحفيين، وقد تعرّفت إلى فتاةجميلة على قدر عال من الثقافة والولع بقراءة الروايات، ووعدتني بعدً أن طلبت مني استعارة رواية "هيرتا مولر"، ان تأتي لتتذوّق طبق "الفوتوتشيني" الذي أُعدّه، وشعرتُ عندها بأنني لن أبقى وحيدا بعد الآن، ثم سهرتُ إلى تلك السّاعة المتأخرة من الليل، وأنا أقرأ بعض الملفات الموجودة على الطاولة أمامي، المتعلّقةبقضيةِ صديقي سليم بيك، كانت في مجملها دعاوى قضائية عادية؛قضية ضد شخص قروي من بلدته؛ كان قد احتال عليه بمبلغ من المال، وقضية ضد صديق

obeikan.com

مشترك لنا يسكن في الدور الثاني من البناية، كان يعمل مُدرّسا في إحدى المدارس، لكنه الآن قد سافر إلى البحرين بعد أن وجد فرصة عمل هناك، وقد سرق منه مبلغًا كبيرًا من المال أثناء ترشّحه للانتخابات النيابية، وأخرى أكثر غرابة، ضد شخص متطفل، لا يعرف من هو، لكنه دائمًا ما كان يُحدثني عنه، ويدعي أنه محقق من جهةٍ أمنية، مستمرًا بملاحقة العقيد في كل مكان.

وعندما كنت أقلّب صفحات وملفات العقيد، وأنا أحتسي القهوة، فكّرت بروايتي الرومانسية الأولى؛ ذات الشّهرة القليلة، ولا أدري لِماذا خطر ببالي أن أبدأ كتابة مذكراته وملاحظاته على شكلِ روايةٍ أُخرى، مستعينًا ببعض الأمور التي ذكرها في ملفاته، ولن أذكر اسمه الصريح، بطبيعة الحال، ربما أستبدله هو و صديقته "سلمى" بإسمين آخرين، "نايف بيك" و"مريم" على سبيل المثال. فقد بدت الأحداث على أنها في غايةِ الأهمية.

obeikan.com

حلم الرجوع الأخير

انتهت جولة الركض بتلك الأحمال على الظهر المحني؛ وأخيرا، وصل العقيد نايف صالح الصالح إلى المكان المنشود، استند بظهرِهِ إلى الحائط الخارجي للمجمّع التجاري وأخذ يلهث، ويسعل، ويخرج الصفير من صدره كحصانٍ مريض لا طاقة له على الصّهيل، ثم تساءل بينه وبين نفسه إن كان هذا هو العنوان الصّحيح بالفعل، وتمنّى من اللّه تعالى أن يمدَّ له يدا من الأعلى، ويوفّقه هذه المرة، ومشى عدة خطوات بطيئة وثقيلة، أصبح الكلب البوليسي، عجوزًا الآن، ذلك الكلب البوليسي العجوز الذي لا يقو رفع ذيله الهرم حتى، وفكر إن كانوا قد أطلقوا عليه رصاصة مطاطية من قبل، فإن رصاصةً حية، ستطلق الآن على خطمه الطويل؛ إن الجواد السّريع قد شاخ أيضا. وذبلت عيناه.

وكان في هذا الصباح، قد دفع الغطاء عن جسده، واستيقظ بمنبهٍ بيولوجي مُشوّه؛ لم يعد هذا المنبّه مضبوطا في السادسة والنصف تماما، إنما أصبح منبهًا هرما، يوقظه قبل أو بعد ذلك بساعة أو ساعتين، فيرفع العقيد رأسه، ينظر إلى السّاعة بعينين محمرّتين غائرتين ثم يعود ليضع رأسه فوق الوسادة، وبعد ذلك يعود إلى الاستيقاظ من جديد، وهكذا، فقد تشظّى المنبه إلى أن أصبح عدة منبهات ليلية منغّصة.

وما أن استيقظ حتى رشف سيجارة في سريره قبل أن يقوم، وقال بهدوء وبعينين ذابلتين: "اخرج، اخرج بسرعة، إنهم قادمون إليك!"

وانتظر اللقطة المزعجة، ثم انفعل وهزّ رأسه متأسفًا لمقتل الرجل ونهض، أغلق جهاز التلفاز وقد اعتاد أن ينام ويتركه مضاء كل ليلة، توجّه إلى دورة المياه، وضع يديه تحت الصنبور وحفن الماء الساخن ولطم به وجهه، نظر إلى المرآة، وفكر بأنه قد قام بعملٍ جيد ليلة الأمس قبل أن ينام؛ حلَق ذقنه، لأنه الآن في مزاج سيء لفعل ذلك، تأمّل وجهه في المرآة، قال إنني الرجل ذاته على لوحة المقهى، تأمل الشامة السوداء الكبيرة فوق زاوية فمه اليمنى، فعندما كان يضحك، يتحول الفم الواسع إلى حرف زاي، تأمّل حاجبيه الرّماديين الكثيفين كدغلين فوق عينيه، تأمّل عينيه البُنّيتين، القريبتين من بعضهما البعض بصورة ملفتة، لوهلة، وكما لو أنها أول مرة، رأى أنهما بدون بريقٍ أو حيوية، ولاحظ الانتفاخ والاسوداد الباذنجاني الدّائم أسفلهما، وقررٍ أن ذلك مردّه للسّهر لوقتٍ طويل على متابعة الأفلام، حتى أنه حفظ أحداثها عن ظهر قلب، تمعّن بشعاع التجاعيد المنطلق من كل حافة من عينيه، تأمّل الشعر الأبيض على جانبي رأسه، وحاول أن يتأكد من عدد الشعرات الفوقية. قال لنفسه: ها أنت قد أصبحت عجوزًا أشمطًا قبل الآون.

نزل من مصعد المجمّع إلى بهو الطابق الرابع، دفع باب المكتب الزّجاجي بيده، واهتزَّ جرسٌ ناعم مُعلنا وصوله، تنبّه الرجل الجالس خلف مكتبه للعقيد نايف صالح، سأل الأخير:

– أنتم؟

وقد رفع القصاصة إلى وجهِ الرجل، لكنّ الأخير تساءل:

- من نحن؟

قال العقيد، من خلف أسنانه:

- الذئاب؟

وصرخ الرجل:

- ماذا همهمت للتو من فضلك؟ هل تسعلُ في وجهي؟

وتمالك نايف بيك قواه، وأخذ كمية كافية من الهواء ليخرج الصوت الانساني بشكلٍ أوضح:

- هل أنتم شركة الذئاب؟

- نعم نحن. وبما أننا في شركة الذئاب، فيا حبذا لو تنطقها جيدا من فضلك.

حكَّ نايف بيك أنفه الضخمة المحمرة، التي كانت تحرقه من الداخل، قال:

- أجل، إنني أعتذر منك. إنها شركة الذئاب، هل يمكن لي أن أجلس؟

- تفضل، اجلس.

أجاب الرجل، وانهمك ببعض الأعمال المكتبية التي كان يقوم بها، يقرأ بعض الأوراق ويكتب عليها، ويقوم بتدبيسها ورصفها فوق بعضها.

انتظر العقيد لبعض الوقت أن يسمح له الرجل بالكلام، لكنّه بقي صامتا في عمله، يكتب ويجدول الأشياء في الأوراق والملفات. ركز

العقيد نظره إلى وجهه المحني نحو سطح المكتب، فكر بأن وجهه السمين، بتلك الذقن الحادة والأنف الصغيرة، يُشبه الأرنب تمامًا، أراد أن ينبهه لذلك، لكنّه فضل الصمت، وبقي يحدّق به طويلاً، إلى أن تململ العقيد أخيرا في كرسيه. قال:

- من الواجب أن أعرفك باسمي، انا نايف صالح الصالح.

أجاب الرجل بسرعة دون أن يرفع رأسه.

- أهلا بك.

لكن العقيد تابع بهدوء:

- عقيد متقاعد من الجيش، كنت قائدا للكتيبة الخامسة، وقبل ذلك عملت في الحرس الملكي، وكان بوسعي أن أستمر في عملي وأترفع إلى رتبة عميد، لكنني- صمت برهة ثم أكمل- لكنني فضّلت الاكتفاء، كما تعلم، يجب أن أفيد المجتمع المدني بخبراتي، فأنا على درجة عالية من الكفاءة، وفي هذا الملف الذي أحمله إليك، ما يزيد عن خمسين دورة وورشة عمل، كلها من النوع المتقدّم.

- الدورات المتقدمة ضرورية.

قال الرجل، دون أن ينظر إليه وهو ما زال منكبًا على العمل في أوراقه. تابع العقيد:

- بالفعل، أريد أن أجعل الناس المدنيين يستيقظون من غفلتهم، لا بد أن يتمتّعوا بنوع من الدقة والانضباط، اللذين تعلمتهما في حياتي في الجيش، كما تعلم.

- الدقة والانضباط أمران ضروريان.

- بالتأكيد، ولا بد أن تتفاجأ، يا سيدي، إذا ما قلت لك إنني تحصلت على أعلى العلامات في قسمي أثناء دراستي في الكلية العسكرية، وحاصل على المرتبة الأولى في دورة الأركان، ووسام الاستقلال من الدرجة الرابعة، وتخرجت بمرتبة شرف من دورة السيطرة والانضباط-

قاطعه الرجل دون أن يُكمل:

- مرتبة الشرف مهمة.

- أحسنت القول، مهمة جدا، معظم الناس هذه الأيام، للأسف الشديد، لا يكترثون لذلك، فما جمال الحياة دون شرف، لقد خضتُ غمار هذه الحياة، بطولها وعرضها، وبدأ يتسنى لي معرفة صاحب الشرف من عديمه.

- لا بد من ذلك.

- وها أنا اليوم، بين يديك، بامكانك أن ترى، أنني قامة من الخبرات والكفاءات والسمعة الحسنة، لن أقول لك إنني أتمتع بأمور أخرى، لا تقل حصافة، مثل كوني مؤلفًا جيدًا، ومترشحًا سابقًا للبرلمان النيابي، خسرت بفارق ضئيل جدا، بسبب التزوير ضدي.

صمت الرجل المنهمك، قطّب وجهه وهو يتأمل ورقة بين يديه، ثم أخيرا كتب عليها بعض الأشياء، ولما لاحظ أن العقيد قد صمت أخيرا. نظر إليه، وقال:

opeikan.com

- أجل، بالطبع.

ثم عاد إلى الأوراق أمامه. مرّت لحظة سكون ثقيلة. قال العقيد آخر الأمر:

- أعتقد أنكم طلبتم موظفين في الإعلان المنشور؟

رفع الرجل رأسه، وهزَّه مُستوضحا:

- للنظافة؟

انتفض العقيد، ولوح بيده نافيًا:

- لا لا، للأمن والحراسة.

- نعم طلبنا.

وأردف نايف صالح وهو يتوسّل بداخله إلى الله تعالى أن يُسدّد خطاه:

- هأنذا، كما قلت لك، العقيد المتقاعد نايف بيك، خمسة وعشرين عاما في القوات المسلحة، وكما قلت لك قبل قليل، لا بد أنك لم تسمعني جيدا، لأنك كنت منهمكا بعملك؛ حاصل على المرتبة الأولى في دورة الأركان، ووسام الاستقلال من الدرجة الرابعة، وتخرجت بمرتبة شرف من دورة السيطرة والانضباط-

قاطعه الرجل من خلف مكتبه، وقد خبط القلم على رزمة الأوراق، ووضع ساقا على أخرى، ومال بظهره مع مسند الكرسي الدّوار إلى الوراء:

- لماذا، كالببغاء، تُعيد عليّ ما قلتَه قبل قليل؟ لقد سمعتك

obeikan.com

جيدا، ولن تخبرني الآن بسيرة حياتك العسكرية!

وتناول ورقة من حاملة أوراق فوق المكتب، أمسك القلم، وأضاف بعد أن صمت برهة مُحدقا في العقيد:

– تفضّل يا سيدي، إملأ هذا الطلب الآن، في الواقع نحتاج لجملة من الحراسِ ومسؤولي المواقف والمداخل، لمجمَّع تجاري ضخم.

أمسكَ نايف بيك الورقة بيد مرتجفة، تناول القلم وشرع يقرأها بصمت، نهض الرجل واستدار متطلعا إليه بعينين جادتين وملاحظتين، تأمله جيدا، وأضاف:

– املأها. وسنوافق على طلبك، لا عليك، حتى إننا نحتاج إلى المزيد من الأشخاص، إن كنت تعرف زملاء لك مثلاً.

لكنَّ نايف بيك كان يتسامى في الفراغ في تلك اللحظة خانعًا كما لو كان خروفًا أمسكوه جيدًا للذبح، طائر دُرّج سقيم، لا تُمكنه جناحاه من الطيران، ولم يقوَ عقله على التفكير، وذبُل من جديد، كأنه بالون فَرِغ منه الهواء على وجه السرعة، تهدَّلت كتفاه، أصبح عجوزًا في الخامسة والتسعين دفعة واحدة، تحسّس علبة الدواء في جيبه واطمأن لوجودها، قال:

– ليس لي أصدقاء.

ثم استدار الرجل متوجها إلى الخزانة بجانبه، تناول شيئًا مغلفًا من الأسفل:

- لا بأس. هذا هو الزّي الرّسمي خاصتك، لونه جميل.

بسطه على الطّاولة أمامه، أردف وهو يُخرج أشياء إضافية:

- وهذه الهراوة السوداء؛ خرطوم الفيل، تضعها في هذا الخطاف إلى جانبك، بهذا الشكل-

أراه كيفية وضعها، وتابع:

- وهذه هي القُبعة يا سيد نايف

أدارها فوق اصبعه بحركةٍ رشيقة، وأضاف:

- ليست جميلة مثل تلك التي كنت ترتديها فيما مضى، لكنها تُناسب رأسك الكبيرة بلا شك، لنرى-

وضعها فوق رأس العقيد، ابتسم وقال بضحكة خفيفة:

- حتى أنها تُخفي صلعتك. ومن الضروري جدا أن تلتزم بهذا الزِّي، سيد نايف صالح، إن الزي هو هوية شركتنا التي نعتز بها، وليس بإمكانك أبدا، ولا بأي حال من الأحوال أن تذهب إلى العمل بدونه، هل كنت تذهب إلى عملك دون بزتك العسكرية، لا قدر اللّه؟

أومأ العقيد برأسه نافيًا.

- طبعًا لم تكن تفعل. ولن تستهتر وتفعل ذلك في شركتنا أيضًا. والآن، وقّع هنا لو سمحت.

هزَّ العقيد المتقاعد نايف صالح رأسه مع تلك القبعة، تمتم بضراعة:

- الراتب؟

obeikan.com

- ماذا؟ أعد ما قلتَ من فضلك، لم أسمعك.

كان يعلم بأن صوته مخنوق ولم يتجاوز حنجرته، لم يكن صوته، بل حشرجة حيوانٍ مريض. تقوَّى وأخذ نفسًا وافرًا، سأل بقوةٍ أكبر:

- كم هو الراتب؟

- سنحسب لك أجرًا جيدًا مثل أيِّ موظفٍ لدينا.

لوّح الرجل بيده، وأكمل:

- ثم لا تنسَ الحوافز والمكافآت أثناء العمل، ولا تنسَ أيضا، ما يضعه أصحاب السيارت في يدك عندما يركنونها في المواقف من وقتٍ لآخر سيد نايف، ذلك مبلغ جيد جدًا، ربما أنا لا أحصل عليه.

وأخيرًا، أشار بيده إلى العقيد:

- تستطيع المغادرة الآن سيد نايف. ولا تنس أن هناك كرسيّا خاصا بك في مدخل المجمع، لكن لا تجلس عليه كثيرا، عليك أن تمشي جيئة وذهابا.

وما إن أنهى نايف بيك كامل الإجراءات، وتوجّه نحو الباب ماشيا بضع خطوات، حتى نادى الرجل من خلفه:

- نايف صالح.

استدار الأخير برأسه واستفهم بعينيه فقط. قبض الرجل أصابع يده ليُلوّح إلى العقيد بسبّابته:

- كن يقظًا يا رجل.

obeikan.com

وانتظر العقيد نايف الرجلَ أن يُنهي كلامه حيال اليقظة وما إلى ذلك، لأنّه ما زال يُشير باصبعه نحوه، ومُقطِّبا جبينه، يستحضر كلمة إضافية يقولها للعقيد، ثم قالَ أخيرا، بعد أن أعاد إصبعه إلى قبضته، ولوّحَ بها في الهواء:

- كن ذئبا يا رجل! هذه خلاصة القول!

لكنّ الحماسة هذه، لم تجد أي صدىً في كوامن الكلب البوليسي العجوز، وأردف نايف الصالح بحشرجة حيوانية إضافية وهو يغادر، ضاربًا عرض الحائط بكل هذه التعليماتٍ وخلاصة القول حول اليقظة والبسالة:

- العنوان هنا؟

- أجل يا سيدي، العنوان ورقم الهاتف وكل شيء، في الورقة معك.

وسأل، مرة أخرى، بالصوت المخنوق ذاته:

- منذ اليوم؟

ضحك الرجل، اهتزّ بطنه المندلق:

- أرى أنك متحمسٌ جدًّا، لنقل منذ مساء الغد.

ومن جديد هز نايف صالح الصالح رأسه عدة مرات ومشى متثاقلاً، لأن ظهره انحنى فجأةً، وكان شيءٌ ما يتبرعم من أسفل ظهره؛ بدا كما لو كان ذيلاً صغيرًا، لزجا، ثم نمى إلى أن أصبح طويلا وغليظا، ذيلا ناضجًا يملؤه الشعر الرّمادي. واستطالت أذناه بما يكفي لتصبحا أذنا

ذئبٍ عجوز.

خرج من باب المجمع، يحمل بيده الكيس المليء بزي العمل، لم يلحظ أنه نزل من الطابق الرابع بواسطة السلالم وليس بالمصعد.

مشى عدة خطوات في الزحام، وفوجئ بضجّةِ المدينة وكأنها انفجرت للتو؛ أصوات النّاس والباعة وضجّة السيارات وأبواقها، التفت بعينيه باحثا عن الضّباط الخمسين، رآهم كالسّراب الباهت في البعيد، يمضون مبتعدين عنه: واح اثنين. واح اثنين! حاول أن يُنادي لكن صوته لم يسعفه؛ كان صوتا ذليلا بالكاد خرج من حنجرته ليروح هباءً في الأثير.

شنكل الكيس بإصبعهِ السّبابة على ظهره من ناحيةِ الكتف الأيمن، تطلّع حوله ومضى، مشى لأول تقاطع اشارات مرورية، انتظر السيارات أن تقف، وعَبر الشارع، لم يدري لماذا عبر، لكنه استمر يمشي، مشى على امتداد شارع شهداء الجيش العربي، شعر بالظمأ فابتاع علبة ماء صغيرة من المتجر، وأكمل مسيره، دخل زقاقا يفضي إلى شارع الأمير طلال، مشى فيه إلى أن وصل إلى آخره، وفي نهاية الشارع الأخير، عرّج شمالا على الشارع المتقاطع منه، وظل يمشي، نزل على درج قصير كوصلة إلى رصيفِ شارعِ آخر سُفلي، تزاحمت أصوات الناس المتداخلة من حوله، رأى الجنود يستديرون من البعيد ويعودون إليه، يقصدونه هو بالتحديد، عاد "آريس" ووقف وسط ذلك الضّباب، الضباب ذاته؛ المتزامن مع النّياشين والنجوم والتيجان، ارتفع صدره، وتقطّب جبينه بانتظارِ وصولهم إليه، أراد أن يُصدر أمرا عسكريا لكنّه تمهل، فقد

اخترقته صفوف الضباط الخمسين كما لو كانوا خيالات شفافة، مدّ يده نحو كتف أحدهم لعله يُشعرهم بوجوده، لكنه نكز الفراغ، وحاول مع كتفٍ آخر، وحظي بالنتيجة ذاتها، التفّ حول نفسه وصرخ بصوتٍ ضريعٍ وعالٍ:

- "تهيّأ!"

لكنّ أحدًا لم يتهيّأ. ولم يلتفت إليه غير بعض المارة المتأسّفين لحاله، تهدّل صدره من جديد، تبخرت النياشين الملونة والنجوم البرّاقة، هزّ رأسه واستمر يمشي دون وجهةٍ مُعينة، المشي العشوائي بحد ذاته هو الوجهة؛ الفوضى الخلاقة مع انعدام الهدف!

واستمر في المشي إلى تلك الوجهة، إلى أن نضبت كل طاقته آخر الأمر، بالكاد استطاع أن يقف مستندا بيديه إلى "دربزينٍ" يفصل الرّصيف عن الشارع. أوقف سيارة أجرة واستقلّها.

عاد العقيد إلى بيته، جلس على الأريكة وأخرج عُلبة المهدئ من جيبه، تأمّلها بصمتٍ رهيب ثم أفرغها في يده ليرى كم يملك منها، كانت أكثر من عشرٍ حبات. نظر إليها طويلاً بينما ترتجفُ راحة يده، وأخيرًا أعادها وأبقى على حبّةٍ واحدة، زردها بصعوبة بالقطرات المتبقية في قنينة الماء، وضع علبة الدواء على حافة المنضدة، استلقى على جنبه، ضم رجليه إلى صدره وانكمش فوق الأريكة، تمنّى لو يدور على فوره في جسده، لأن الأفكار المؤلمة قد استيقظت، وراحت تمدُّ مخالبها، وتنتشُ رأسه من الداخل.

ومن جديد تعالت أصوات الكتيبة الخامسة؛ هدير المحركات العسكرية، وصيحات الجنود الراكضين في الساحات،ودخلت طلائع الضباط والأفراد من مكانٍ ما إلى الغرفة، مرّوا من أمامه؛ واح اثنين واح اثنين!أدوا له التّحيةً، وهم يخترقون الجدران ويمضون، ابتسم ورفع يده إلى جانب رأسه بتحيةٍ تليق بالجموع، ثم تمتم محاولا أن يتكلّم أو يقول لهم، كقائد ملهِم، أية عبارةً أو كلمةٍ طيبة، لكنّ الهدوء المطبق من حوله أشار له أن يخرس:

اششش، اخرس الآن، أيها العقيد المتقاعد.

obeikan.com

obeikan.com

لمراسلة الكاتب:
oth.ma@yahoo.com

obeikan.com

للاطلاع على أحدث إصدارات مؤسسة إبداع

يرجى زيارة الموقع الإلكتروني

www.prints.ibda3-tp.com